# قضايا جون ثورندايك

آر أوستن فريمان



# قضايا جون ثورندايك

**تأليف**
**آر أوستن فريمان**

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد



# قضايا جون ثورندايك

آر أوستن فريمان

# John Thorndyke's Cases

R. Austin Freeman

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org



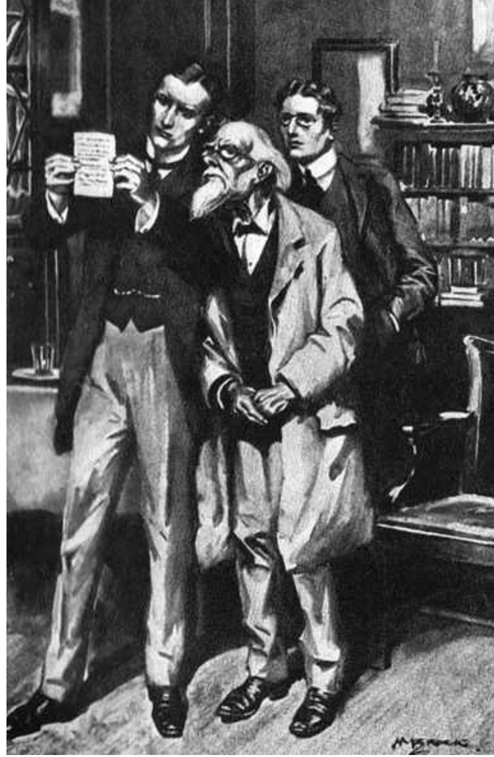
---

تصميم الغلاف: يوسف غازي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٢٧٧ ٦

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٩
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١

# المحتويات



البروفيسور بابلباوم وهو يُوضِّح له الأمور.

**إلى صديقي**

**فرانك ستاندفيلد**

أُهديك هذا الكتاب إحياءً لذكرى العديد من الأمسيات الساحرة التي قضيناها معًا مع المِجهر والكاميرا.

# تقديم

تتطلَّب القصص المعروضة في هذه المجموعة بعضَ الكلمات التقديمية؛ إذ إنها تُمثِّل شكلًا جديدًا بعضَ الشيء في هذا النوع من الأدب. إنَّ المهمة الأساسية لكل أنواع الأدب القصصي هي إمتاع القارئ، وأنا لم أُغفِل هذه الحقيقة، لكن في اعتقادي إن مُتعة ما يُطلَق عليه أدب القصص «البوليسية» تتعزَّز كثيرًا بالالتزام الدقيق بما هو مُمكِن، وبالتجنُّب الشديد للأمور المستحيلة ماديًّا؛ وطبقًا لهذا الاعتقاد، كنتُ دقيقًا في الالتزام بالأمور المُمكنة والأساليب القابلة للتطبيق من الناحية العمَلية. إنَّ القصص تتمتَّع في أغلبها بطابَع طبِّي شرعي، وأساليبُ الحل الوارِدة بها مُشابهة لتلك التي يستخدمها الأطباء الشرعيُّون في الممارسة العملية. وحقيقة الأمر أن هذه القصص تُوضِّح كيفية تطبيق أساليب البحث العلمي الشائعة في كشف الجريمة. وأودُّ أن أُضيفَ أنَّني قمتُ بنفسي بتنفيذ التجارب الواردة في كلِّ القضايا المعروضة في هذه المجموعة، وأن الصور المِجهرية ما هي إلا صور لعيِّنات حقيقية بالطبع.

وأستغلُّ هذه الفرصة لتوجيه الشكر لأصدقائي الذي قدَّمُوا لي يدَ العون بأشكال مُختلفة، وخاصة صديقي الذي أهديتُ هذا الكتاب له؛ والذي أراحني من عبءٍ كبير تمثَّل في إنشاء الصور المجهرية، والذي ساعدني أيضًا كثيرًا في الحصول على العيِّنات وإعدادها. ويجب عليَّ أيضًا أن أتوجَّه بالشكر إلى شركة ميسرز بيرسون لسماحِهم لي باستخدام رسومات السيد إتش إم بروك التوضيحية الرائعة، وكذلك إلى السيد بروك نفسه على عنايتِه وحرصه الشديد على الالتزام الدقيق بالنص.

آر أوستن فريمان

جريفزيند

٢١ سبتمبر عام ١٩٠٩

الفصل الأول

# الرجل ذو الحذاء المسمَّر

في اعتقادي أنه ليس هناك الكثير من الأماكن حتى على الساحل الشرقي لإنجلترا التي تُعدُّ منعزلةً ونائية أكثر من قرية ثاندرسلي الصغيرة وما يُحاوِطها من مناطق ريفية. إن تلك القرية البعيدة عن أيِّ خط سكة حديد، والتي على بُعد عدة أميال من أيِّ مدينة كبيرة، تظلُّ بعيدة عن مظاهر الحضارة وتُحافِظ على الأعراف والعادات البدائية وتقاليد العالم القديم في زمن لم يَعُدْ لها مكان فيه. في الصيف، صحيح أن مجموعة من الزوَّار، الذين يتمتَّعُون برُوح المغامَرة رغم أنهم في الغالب يَبحثُون عن الهدوء والانعزال، يأتون إليها فيزداد عددُ سكانها القليل، ويُضفُون على المساحات الشاسعة من الرمال التي تحدُّ شواطئها مظهرًا مؤقتًا نابضًا بالحياة والبهجة الوقورة؛ لكن في أواخر شهر سبتمبر — وهو الشهر الذي عُرفَت فيه هذه البقعة — تجد مراعيها مهجورة ونادرًا ما يطأ إنسانٌ ممراتِها الوعرة على طول المنحدَرات، وتكون الرمال مجردَ قِفار صحراوية لا تشهد آثارَ أقدامِ أحدٍ عليها سوى آثار أقدام الطيور البحرية، وذلك لفترة قد تصل في بعض الأحيان إلى عدة أيام مُتواصِلة.

كان السيد تورسيفال، وهو وكيلي الطبي، قد أكَّد لي أنني سأجد الوظيفة التي أعمل بها الآن «وظيفة سهلة إلى حدٍّ بعيد ومُناسبة لرجل يحب البحث.» وهو لم يَخدعني بكلِّ تأكيد؛ ذلك أن المرضى كانوا في واقع الأمر قليلين جدًّا حتى إنني كنتُ قلقًا بشدة على مُديري، وأصبحتُ كليلًا من قلَّة العمل. ولذا، حين اقترَحَ صديقي جُون ثورندايك — خبير الطب الشرعي المعروف — أن يأتيَ إليَّ ويَقضي معي عطلة نهاية الأسبوع وربَّما بضعة أيام بعدها، وافقتُ على اقتراحِه فرحًا، ورحَّبت به أيما ترحاب.

قال ثورندايك بينَما كنا نخرج من بوابة المنزل بعد أن شربنا الشاي في يوم وصوله لنسير قليلًا على الشاطئ: «لا يَبدو أنك مُنهَكٌ من كثرة العمل يا جيرفس بكل تأكيد. هل هذهِ وظيفة جديدة، أم أنها وظيفة قديمة ولكنَّها في حالة اضمحلال؟»

أجبتُه: «في الواقع، ليس هناك وظيفة من الناحية العمَلية. كان مديري كوبر هنا لمدة نحو ستِّ سنوات، ونظرًا لأنه كان يمتلك دخلًا خاصًّا، فإنه لم يبذل قطُّ جهودًا جادة من أجل محاولة إقامة عمل خاص ناجح هنا؛ وحيث إن الطبيب الآخر — وهو الدكتور باروز — يتصف بالحماس الشديد، كما يتَّسم الناس هنا بالتحفُّظ الشديد، فإن كوبر لم يُمارس تلك الوظيفة حقَّ ممارستها. لكن هذا لا يبدو أنه كان يُزعجه.»

قال ثورندايك مبتسمًا: «إذن، إذا كان هو راضيًا، فأعتقد أنك راضٍ كذلك. إنك تقضي إجازة على شاطئ البحر وتتلقَّى أجرًا على ذلك. لكنَّني لم أكن أعلم أنك قريب من البحر لهذه الدرجة.»

وبينما كان يتحدَّث، كنا ندخل فجوةً اصطِناعية محفورة عند المنحدر المنخفِض، مما شكَّل مسارًا مُنحدِرًا للعربات يصل إلى الشاطئ. كان ذلك المسار معروفًا بين السكان المحليين باسم «فجوة ثاندرسلي»، وكان يُستخدَم في الأساس — هذا إذا كان هناك مَن يستخدمه أصلًا — من قِبَل المزارعين حيث ينزلون عليه بعرباتهم ليجمعوا الطحالب البحرية بعد هدوء العواصف.

أكمل ثورندايك حديثَه بينما وصلنا إلى أسفل المنحدر وقال: «يا له من امتداد رمليٍّ رائع!» ثم وقف ينظر نحو البحر عبر الشاطئ المهجور. ثم استطرد قائلًا: «هناك شيء شديد العظمة والمهابة فيما يتعلق بالامتداد الرملي الكبير حين يتراجع عنه المدُّ، ولا أعلم أيَّ شيء يُمكِن أن يُثيرَ في المرء إحساسًا بالانعزال أكثر منه. إنَّ رمال الشاطئ الناعمة والمستوية لا تُثيرُ في النفس فقط إحساسًا بأنها مهجورة الآن، وإنما تُقدِّم أيضًا للمرء دليلًا قويًّا بأنها ظلَّت على حالتها هذه من الهدوء والسكون لفترة كبيرة من الوقت. على سبيل المثال، لدينا هنا دليلٌ واضِح على أن هذه الفجوة لم تَطأْها أقدامُ أحدٍ غيرنا سوى أقدام رجلين فقط وذلك على مدار عدة أيام.»

سألته: «كيف أجزمت أنها «عدة أيام»؟»

أجابني: «الأمر بسيط للغاية. إنَّ القمر الآن في التربيع الثالث؛ ومن ثَمَّ فإن المد الآن ناقص. يُمكنك أن ترى بوضوح خَطَّي الطحالب البحرية ومطروحات البحر اللذين يُشيران إلى علامتَي ذروة المد للمد الربيعي والمد الناقص على التوالي. وشريط الرمال الجافة نسبيًّا بينهما — الذي لم ترتفع إليه المياه لعدة أيام — يحمل، كما ترى، أثرَ مجموعتَين من آثار الأقدام، ولن يمحوَ البحر هذه الآثار تمامًا حتى موعد المد الربيعي القادم؛ أي، بعد ما يَقرب من أسبوع بداية من اليوم.»

«أجل، أرى ذلك الآن. ويبدو الأمر أكثرَ وضوحًا حين يسمع المرء تفسيره. لكن يبدو لي من الغريب أنَّ أحدًا لم يمرَّ عبرَ هذه الفجوة لعدة أيام، ثم يأتي أربعة أشخاص إلى هنا دون أن يفصلَ بين مجيئهم سوى فترة قصيرة.»

سأل ثورندايك: «ما الذي يجعلك تعتقد هذا؟»

أجبتُه: «في الواقع، يبدو أن تلك المجموعتَين لا تزالان حديثتَين، ويبدو أنهما قد حدثتَا في وقتٍ واحد تقريبًا.»

ردَّ ثورندايك: «ليس في وقت واحد يا جيرفس. هناك بالتأكيد فترة زمنية تمتدُّ عدة ساعات بينهما، رغم أننا لا نستطيع أن نجزم بعدد تلك الساعات تحديدًا؛ وذلك بسبب قلة الرياح التي هبَّت مؤخرًا، لكن لا شكَّ أن الصياد مرَّ من هنا في غضون الساعات الثلاث الماضية وليس أكثر، وأقول إنه ربما مرَّ في غضونِ ساعة قبل الآن؛ بينما عبر الآخر من خلال الفجوة — ويَبدو أنه نزل عن قارب ليُحضرَ شيئًا ذا وزن كبير — بالتأكيد في غضون ليس أقل من أربع ساعات مضت، وربما أكثر.»

حدَّقتُ في صديقي من شدة الدهشة؛ لأنَّ مثل تلك الأحداث وقعت في الأيام التي كانت قبل أن أنضمَّ إليه كمُساعد له، وحينها لم أكن أُقدِّر تمامًا معرفتَه الخاصة وقدرتَه على الاستدلال.

قلت له: «من الواضح يا ثورندايك أن آثار الأقدام تعني لك شيئًا مختلفًا عما تَعنيه لي. ولا أعرف على الإطلاق كيف وصلْتَ إلى تلك الاستِنتاجات.»

كانت إجابته: «لا أعتقد ذلك؛ لكن المعرفة الخاصة من هذا النوع هي الأداة اللازمة لنجاح عمل خبير الطب الشرعي، وينبغي أن يتحصل عليها المرءُ من خلال الدراسة الخاصة، رغم أن المثال الحالي على قدرٍ كبير من البساطة والوضوح. لكن لننظر في الأمر شيئًا فشيئًا؛ في البداية سننظر إلى تلك الآثار التي قلتَ إنها آثار أقدام رجل صياد. لاحِظْ حجمَها الكبير. لا بد أنها آثار أقدام رجل عِملاق. لكن طول الخطوة بين القدم والأخرى يدلُّ على أنها لرجلٍ قصير نوعًا ما. ثمَّ لاحِظْ حجم النعلَين الكبيرَين، وحقيقة أنهما خاليان من المسامير. لاحظ أيضًا خطوته الغريبة الخرقاء — العلامات العميقة لكعب القدم والأصابع — إنها كما لو أن هذا الشخص كان يمتلك ساقَين خشبيَّتين أو أن ركبتَيه وكاحلَيه كانَت ثابتة. من تلك الصفات يُمكننا أن نستنتج دون تردُّدٍ أن الحذاء كان عاليَ الرقبة من جلدٍ سميك وصلبٍ ولا يَحتوي نَعلاه على مسامير، كما أنَّ حجم الحِذاء أكبر من حجم قدمِ مَن يَرتديه. لكنَّ الحذاء الوحيد الذي يَنطبِق عليه هذا الوصف هو الحذاء

الطويل الذي يصلُ للفخذَين والذي يَرتديه الصيادُون — ويكون هذا الحذاء ذا حجم كبير ليتمكَّن مَن يَرتديه من ارتداء اثنين أو ثلاثة من الجوارب المَحبوكة الثقيلة أثناء الشتاء، الواحد فوق الآخر. والآن انظر إلى آثار الأقدام الأخرى؛ هناك مسارٌ مُزدوَج لها، أحدُ هذَين المسارَين قادمٌ من البحر والآخر متَّجِه نحوَه. وبينما كان الرجل (المقوَّس الساقين والذي تتجه أصابع قدميه نحو الداخل) يَسيرُ، يُصبحُ من الواضِح أنهُ أتى من البحر ثمَّ عاد إليه. لكن لاحظِ الفرق بين مجموعتَي الآثار؛ إنَّ الآثار التي تُشير إلى عودته إلى البحر أكثرُ عمقًا من الأخرى، كما أن خطوته فيها أقصر بشدة من خطوته في الأولى. لا شكَّ أنه كان يحمل شيئًا حين عاد، وأنَّ ذلك الشيءَ كان ثقيلًا جدًّا. علاوة على ذلك، يُمكننا أن نرى من خلال العمق الكبير الذي تُخلِّفُه آثارُ أصابع قدمه أنه كان يَميلُ للأمام بينَما كان يَسير؛ ومن ثَمَّ فربما كان يحمل الحمل على ظهره. هل هذا واضح الآن؟»

أجبتُه: «تمامًا. لكن كيف أمكنَكَ أن تَستنتِجَ الفترة الزمنية بين مرور الرجلين؟»

«هذا أيضًا سهل وبسيط إلى حدٍّ كبير. إنَّ المدَّ الآن ناقص تقريبًا؛ ومن ثَم فقد مرَّت نحو ثلاث ساعات منذ انتهاء المد المُرتفِع. والآن، كان الصياد يسير تقريبًا في الوقت الذي كان المدُّ فيه ناقصًا — أي علامة ذِروة المد — أي في وقتٍ قصير قبلها أو بعدها. لكنَّ أيًّا من آثار أقدامه محَتْها المياه؛ ومن ثَم فقد مرَّ بعد انتهاء المدِّ المُرتفِع؛ أي قبل أقل من ثلاث ساعاتٍ مضَت؛ وبما أنَّ آثار أقدامه لا تزال مُميزة جميعها، فلا يُمكِن أن نَقول بأنه قد مرَّ حين كانتِ الرمالُ مُبتلةً للغاية. لذا فقد مرَّ قبل أقل من ساعة على الأرجح. أما عن آثار أقدام الرجل الآخَر فإنها تمتدُّ فقط إلى حين كان المدُّ ناقصًا — أي علامة ذروة المدِّ — حيث تنتهي فجأة. لقد اجتاحَت المياه بقيةَ الآثار ومحَتْها؛ ولذا فقد مرَّ ليسَ قبل أقل من ثلاث ساعات ولا أكثر من أربعة أيام؛ أي في غُضون أربع وعشرين ساعة مضت على الأرجح.»

وبينما كان ثورندايك يُنهِي شرحَه سمعنا صوت أشخاص قادمين من الأعلى، واختلط صوتُهم بوقع أقدامهم، وبعد ذلك مباشرة ظهرت مجموعة غريبة للغاية من الأشخاص عند مدخل الفجوة في طريقهم إلى الشاطِئ. في مقدمتِهم كان صيادًا قصيرًا ضخمَ الجثة يَرتدي رداءً من المشمَّع وقبعة عريضة الحافة من المشمع أيضًا ويمشي بخُطًى ثقيلة خرقاء في حذائه المائي الطويل، ثم تَبِعه رقيبُ الشرطة المحلِّي ومعه مُنافِسي المِهَني الدكتور باروز، بينما أتى في آخر المجموعة اثنان من رجال الشرطة يَحمِلان نقَّالة. وحين وصَلَ الصياد — الذي كان من الجليِّ أنه يقومُ بدورِ المُرشِد — إلى أسفل الفجوة، استدارَ بمُحاذاة الشاطئ وتتبَّعَ آثار قدمَيه، وتبعتْه بقيةُ المجموعة.

قال ثورندايك: «طبيب، ونقالة، واثنان من رجال الشرطة ورقيب شرطة. ماذا يوحي ذلك إليك يا جيرفس؟»

أجبتُه: «سقوط من المنحدَر، أو جثَّة ألقى بها البحر على الشاطئ.»

رد عليه: «ربما؛ لكن علينا أن نسير في هذا الاتجاه.»

استدرنا لنتبعَ المجموعة التي كانت تسير عكس اتجاهنا، وبينما كنا نسير على الشاطئ المستوي الذي خلَّفه انحسار المد، أكمل ثورندايك حديثه وقال:

«إنَّ موضوع آثار الأقدام يُثير اهتمامي بشدة دومًا لسببَين؛ الأول هو أن الدليل الذي تقدمه آثار الأقدام دومًا ما يكون له الأولوية، وغالبًا ما يكون له أهمية قصوى؛ والثاني هو أن الأمر كلَّه يُمكن أن يكون محلَّ استعراض منهجيٍّ وعِلمي حقيقي. في الأساس تكون البيانات المتعلِّقة به تشريحية، لكنَّ العُمر والجنس والوظيفة والصحة والمرض هي كلُّها عوامل تُعطي مؤشِّراتها المُختلِفة. من الواضِح على سبيلِ المثال أنَّ آثارَ أقدام رجل عجوزٍ ستَختلِف عن آثار أقدام شابٍّ وإن كانَا لهما نفس الطول، وأنا لستُ في حاجة لأن ألفتَ انتباهَك إلى أنَّ آثار أقدام شخص يُعاني من اختلاج حركي أو شلل رعاش ستكون لا لبس فيها.»

قلت له: «أجل، أفهم ذلك بوضوح تام.»

وأضاف: «وهذا هو خير مثال على ذلك.» توقَّف ليُشيرَ بعَصاهُ إلى صفٍّ من آثارِ الأقدام التي ظهرت فجأةً فوق علامة ذروة المد، وتقدَّمتْ لمسافة قصيرة، فقطعَتِ الخطَّ مرةً أخرى، ثمَّ اختفَت حيث اجتاحتْها المياهُ ومحتْها. كان تمييز هذه الآثار أسهل من تمييز أيِّ آثارٍ أخرى وذلكَ بفعل الآثار الواضِحة التي خلَّفتْها الكعوب المطاطية الدائرية.

سألني: «هل ترى بها أيَّ شيءٍ جديرٍ بالملاحَظة؟»

أجبتُه: «أُلاحظ أنها أعمق بكثير من آثارِ أقدامنا.»

«أجل، كما أن مقاسَ الحذاء هو نفس مقاس أحذيتنا تقريبًا، إلا أنَّ مسافة الخُطوة أقصر بصورة ملحُوظة، بل هي قصيرة للغاية في الواقع. هناك نسبة ثابتة بين طول القدم وطول الساق، وبين طول الساق وطول الشخص، وبين طول الشخص وطول الخطوة التي يخطُوها. إن القدم الطويلة تعني ساقًا طويلة، ورجلًا طويل البِنية، خطوته طويلة. لكن هنا لدينا قدم طويلة وخطوة قصيرة. ماذا تَستنتِج من هذا؟» ثم وضع عصاه — وهي عصا ملساء مَصنوعة من سيقان نخلِ الرابس، وعلى أحد جوانبِها مقياس بالبوصُات والأقدام — بجوار آثار الأقدام لإثبات حالة التناقُض.

قلت مقترحًا: «إن عمق آثار الأقدام يُوضِّح أن الرجل كان أثقل من كلَينا. ربما كان بدينًا بشدة.»

قال ثورندايك: «أجل، يبدو أن هذا هو التفسير لذلك. إن السير بحمل ثقيل يتسبب في قِصَر الخطوة، والدهون هي في الواقع حمل ثقيل. الاستِنتاج الذي نخرج به هو أن طول الرجل كان قرابة خمس أقدام وعشر بوصات، وأنه كان بدينًا بصورة مفرطة.» ثم التقط عصاه، وأكملنا سيرنا، وقد ثبتنا ناظرَينا على المجموعة أمامنا حتى اختفَت في أحد مُنحنيات الشريط الساحِلي، وهنا أسرَعنا في خُطوتنا بعضَ الشيء. وسرعان ما وصَلنا إلى لسانٍ صغيرٍ؛ حيث وجَدنا مجموعة الرجال الذين سبقونا. كان الرجال قد توقَّفُوا في خليجٍ ضيقٍ، ووقفُوا يَنظُرون إلى جثة ممدَّدة على الأرض، وبجوارها كان الطبيب جاثمًا على ركبتَيه.

قال ثورندايك ملاحظًا: «كنا مُخطئين. لم يسقط رجلٌ عن المنحدَر ولم تَجرِفه مياه البحر إلى الشاطئ. إنه يَرقُد فوق علامة ذروة المد، ويبدو أن آثار الأقدام التي كنا نفحصها هي آثار أقدامه.»

وفيما كنا نقترب، استدار رقيب الشرطة ورفع يده وقال:

«أطلب منكُما ألا تَقتربَا من الجثة الآن أيها السيدان. يبدو أن هذا حادث مدبَّر، وأريد أن أستوضح آثار الأقدام قبل أن يَطأها أحد.»

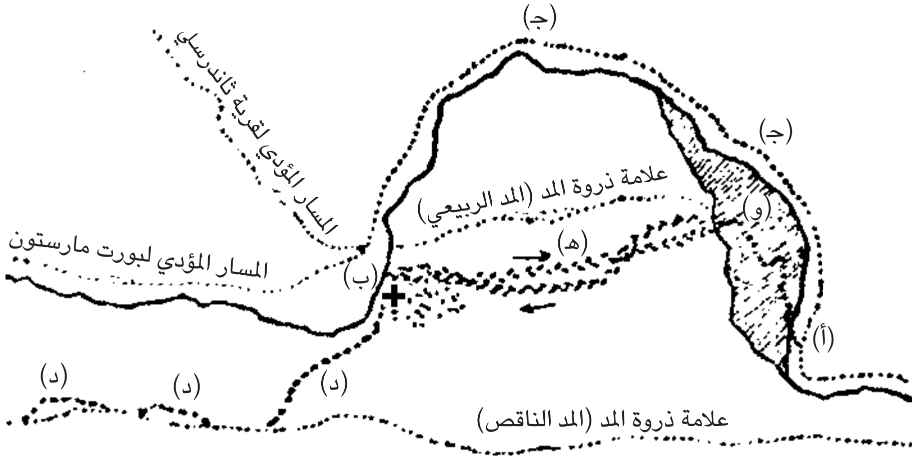
قبلنا هذا التحذير، وتقدَّمنا إلى حيث كان رجلَا الشرطة يقفان، ونظرنا ببعضِ الفضول إلى القتيل. كان طويل القامة ضعيف البِنية، ورفيعًا إلى حد الهزال، وبدا أنه في الخامسة والثلاثين تقريبًا من عمره. كان ممددًا في وضعية رخوة وكانت عيناه نصف مغلقتَين، وكان وجهه يحمل تعبيرًا هادئًا يتناقض بصورة غريبة مع ظروف وفاتِه المأساوية.

قال الدكتور باروز وهو يَنفُض الرمال عن ركبتَيه حين وقَف: «هذه جريمة قتلٍ واضِحة. هناك جرح سكين غائرٍ فوقَ قلبه، الأمر الذي لا بدَّ وأنه تسبَّب في وفاتِه في الحال.»

سأله رقيب الشرطة: «في رأيك كم مرَّ على وفاتِه أيها الطبيب؟»

كانت الإجابة: «اثنتا عشرة ساعة على الأقل. إن جثَّتَه بارِدة ومتصلِّبة إلى حدٍّ كبير.»

قال الرقيب: «اثنتا عشرة ساعة؟ هذا يعني أنه قُتل في حوالَي السادسة من صباح اليوم.»




+ مكان الجثة

(أ) أعلى ممر شيبرد

(ب) منحدر متدلٍّ

(ج) مسار على طول حافة المنحدر

(د) آثار حذاء هيرن

(هـ) آثار الحذاء المسمَّر

(و) المنحدر المتدرج الميل الصاعد لممر شيبرد

مخطَّط لخليج سانت بريدجيت.

عاجله الدكتور باروز قائلًا: «لن ألتزم بالتصريح بوقتٍ محدَّد. إنما أقول فقط إن مقتَلَه لم يمرَّ عليه أقل من اثنتي عشرة ساعة. ربما مرَّ على مقتلِه أكثرَ من ذلك بكثير.»

قال الرقيب: «آه! إذن، لقد صارَعَ كثيرًا من أجل إنقاذ نفسِه فيما يبدو.» ثم أشار إلى الرمال التي حملَت في مُحيط بضع أقدام حول الجثة آثارًا عميقة لأقدام، كما لو أن صراعًا عنيفًا قد وقع. ثم استطرد الرقيب موجِّهًا حديثه للدكتور باروز: «هذه الحادثة غريبة بشكلٍ كبير. يَبدُو أن ذلك الصراع كان بين القتيل ورجلٍ واحد فقط — فهناك مجموعة واحدة من آثار الأقدام بالإضافة إلى آثار أقدام القتيل نفسه — وينبغي أن نعرف مَن كان ذلك الرجل؛ وأظن أن هذا لن يُشكِّل مُشكِلة كبيرة، وذلك بالنظر إلى نوع العلامات المُميزة التي خلَّفها وراءَه.»

وافقه الطبيب قائلًا: «نعم، ليس من المفترض أن تكون هناك مشكلة كبيرة في تحديد نوعية هذا الحذاء. يبدو أن الجاني عاملٌ، وذلك استنادًا إلى الحذاء المسمر.»

عارضه الرقيب قائلًا: «لا يا سيدي؛ إنه ليس عاملًا. إن حجم القدم صغير للغاية، هذا أول شيء؛ ثم إن مسامير الحذاء ليست من النوع الاعتيادي أو المألوف. إنها أصغر بشكل كبير؛ كما أن المسامير في حذاء العامل ستكون مَنثورةً حول حواف الحذاء، كما سيكون هناك أطراف حديدية مستدقَّة عند الكعب، وربما عند مكان الأصابع أيضًا. أما هذا الحذاء أمامنا فلا يُوجد به أطراف مستدقَّة، كما أنَّ المسامير منثورة بطريقة معيَّنة عند الكعب ومنطقة باطنِ القدم. هذا الحذاء على الأرجح هو حذاء صيد، أو هو حذاءٌ رياضيٌّ من نوعٍ ما.» وبدأ يسيرُ جيئة وذهابًا وهو ممسك بدفتر له في يده وأخذ يُدوِّن ملحوظات سريعة ويَنحني على الرمال ليتفحَّص الآثار الموجودة عليها. انشغل الطبيب أيضًا بتدوين الحقائق التي سيكون عليه أن يُدليَ بها في شهادتِه عن الحادث، فيما نظر ثورندايك في صمت وانهماكٍ كبير إلى آثار الأقدام حول الجثَّة، والتي ظلَّت لتكون شاهدةً على ملابسات الجريمة.

قال الرقيب بينما كان يَختتِم تحقيقاته: «من الواضِح إلى حدٍّ ما كيف حدثَتِ الجريمة، ومن الواضح أيضًا أن الجريمة كانت قتلًا مع سبق الإصرار. أيها الطبيب، إن القتيل، السيد هيرن، كان على ما يبدو قادمًا من بورت مارستون ومتوجهًا نحو منزله سيرًا على قدميه؛ لقد رأينا آثار قدمَيه بطولِ الشاطئ — فكعبَا حذائه المطاطان يَجعلان من السهل تحديدهما — ولم يَكُن قادمًا من ناحية فجوةِ ثاندرسلي. ربما كان يُريد أن يتسلَّق المنحدَر عند ذلك الممرِّ الصغير هُناك، والذي يُطلِق عليه الناس هنا «ممرَّ شيبرد». لا بدَّ وأن القاتل كان على علمٍ بمجيئه، ولا بد وأنه انتظر أعلى المنحدَر ليُراقِب المكان جيدًا. وحين رأى السيد هيرن يَدخل الخليج، سار إلى الممرِّ وهاجَمَه، ونجَحَ في طعنِه بعد صراعٍ شديد. ثم استدار القاتل وصعد إلى الأعلى باستخدام الممرِّ نفسِه. يُمكنك أن ترى آثار الأقدام المزدوَجة بينَ الممر والمكان الذي وقَعَ فيه الصراع، كما أنَّ آثار الأقدام المتَّجهة نحو الممرِّ تعلو الآثار القادمة منه.»

قال الدكتور باروز: «إنك إذا ما تتبَّعت الآثار، فينبغي أن تعرف أين ذهَبَ القاتل.»

أجابه الرقيب: «أخشى أنَّ الأمر ليس كذلك. ليس هناك آثارٌ على الممرِّ نفسه، إن صخوره صلبة للغاية، وهكذا أيضًا الأرض أعلى المنحدَر. لكنَّني سأُعرِّج عليهما بإمعان.»

وحيث إنَّ التحقيقات قد انتهت عند هذا الحد، جرى رفعُ الجثَّة على النقالة، وتحركت مجموعة الرجال المكوَّنة من الضابطَين اللذين كانَا يَحمِلان الجثة والطبيب والصياد نحوَ الفَجوة، فيما تسلَّق الرقيبُ ممرَّ شيبرد واختفى أعلاهُ بعد أن تمنَّى لنا أُمسية سعيدة.

قال ثورندايك: «يا له من رقيبٍ ذكيٍّ للغاية! أريد أن أعرف ماذا دوَّن في دفتره.»

قلتُ له: «بدتْ روايته لملابَسات الجريمة منطقية جدًّا.»

«منطقية للغاية. لقد لاحَظَ الحقائق الأساسية والجليَّة وخلص منها إلى الاستِنتاجات الطبيعية. لكنَّ هناك بعض النقاط المميزة للغاية في هذه القضية؛ وهي مُميزة جدًّا، حتى إنني أميل إلى كتابة بعض الملحوظات عنها لنفسي.»

ثم انحنى على المكان الذي كانت الجثَّة راقِدة فيه وبعد أن تفحَّص الرمال فيه وفي المكان الذي كانت قدمَا القتيل مُستقرَّة عنده، أخرج دفتره ودوَّن بعض الملحوظات. بعد ذلك رسم رسمًا تخطيطيًّا سريعًا للخليج، وحدَّد مكان الجثة وآثار الأقدام المختلفة الموجودة على الرمال، ثم تبعَ المسار المزدوَج لآثارِ الأقدام الذي يأتي من ممرِّ شيبرد ويُؤدِّي إليه، وتفحَّصَ آثار الأقدام بعناية بالغة، وكان في أثناء ذلك يُدوِّن الملاحظات ويُضيف الرسومات في دفتره.

قال ثورندايك: «دعنا نصعد أيضًا على ممرِّ شيبرد. أعتقد أننا ينبغي أن نتسلَّقه أيضًا، فربما كانت هناك آثار واضحة للقاتل. إن صخورَ الممر ما هي إلا صخور رملية، وهي ليست في غاية الصلابة.»

وصلنا عند سفح الممرِّ الصغير الوعر، والذي كان يمتدُّ على نحوٍ متعرِّج حتى أعلى المنحدر، ثم رحنا نتفحَّص السطح ونحن منكبان على الأعشاب الجافة المتيبِّسة. وعند سفح الممر — حيث تسبَّب الطقس في تقليل صلابة الصخور — كان هناك عدة آثار بارِزة لحذاء القاتل المسمَّر على السطح المتفتِّت للمَمر، رغم أن تلك الآثار كانت مُختلطة بعض الشيء بآثار أقدام الرقيب الذي كان يرتدي حذاءً به الكثير من المسامير. لكن وبينما كنا نتسلَّق الممرَّ، أصبحت الآثار أقلَّ بروزًا، وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة من سفحِ الممرِّ صعودًا فقدنا تلك الآثار تمامًا، رغم أننا لم نجدْ صُعوبة في تتبُّع الآثار الأحدث لأقدام الرقيب عليه.

وحين وصلنا إلى أعلى المنحدَر، توقفنا لنفحصَ المسار الذي كان بمُحاذاة حافَّتِه، لكن هناك أيضًا لم يكن هناك أيُّ آثارٍ لأقدامٍ أخرى، رغم أنَّ آثار أقدام الرقيب كانت لا تزال بارزة نوعًا ما. وعلى مسافة قصيرة كان الرقيب الذكي نفسُه يَستكمِل تحقيقاته، فكان يَسير جيئة وذهابًا وجسدُه مُنحنٍ بشدة وعيناه مثبَّتتان على الأرض.

قال الرقيب وهو يستقيم في وقفته بينما نحن نقترب نحوه: «لا يوجد له أثر في أي مكان. كنت أخشى حدوث ذلك بعد كل هذا الطقس الجاف. ينبغي أن أجرب مسارًا مختلفًا للتحقيق. المكان هنا محدود، وإذا كان ذلك الحذاء يَنتمي لأيِّ شخصٍ يَعيش في هذه الأرجاء، فمن المؤكَّد أننا سنَعرفه.»

قال ثورندايك بينما استدرنا وتوجَّهنا نحو القرية: «القتيل — أعتقد أنك ذكرتَ أن اسمه السيد هيرن — هل هو من سكان هذه الأرجاء؟»

أجابه الرقيب: «أوه، لا يا سيدي. إنه يكاد يكون غريبًا عن المكان. لقد أتى إلى هنا قبل نحو ثلاثة أسابيع فقط؛ لكن، كما تعرف، في مكانٍ محدودٍ كهذا، سرعان ما يُمسي الرجل معروفًا.» ثم أضاف مبتسمًا: «وكذا سبب زيارته أيضًا.»

سأله ثورندايك: «ماذا كان سبب ذلك إذن؟»

«أعتقد أنه كان هنا من أجل الاستمتاع. لقد أتى إلى هنا في إجازة، رغم أن موسم الإجازات قد انقضى منذ مدة طويلة؛ لكن كان للرجل صديقٌ يعيش هنا، وهذا يُحدِث فارقًا. على حد علمي، كان السيد درابر الذي يعيشُ عند أشجار الحور صديقًا قديمًا له. سأذهب إليه الآن.»

سرنا على طول الممشى الذي يؤدِّي إلى القرية، لكننا لم نكد نقطع مسافة مائتي أو ثلاثمائة ياردة، حتَّى سمعنا نداءً عاليًا جذب انتباهنا نحو رجل يَجري نحونا عبر أحد الحقول من اتجاه المنحدَر.

قال الرقيب مُتعجبًا ووقف وأخذ يُلوِّحُ بيدِه: «عجبًا، ها قد أتى السيد درابر بنفسه. أعتقد أنه عرف بما وقَع بالفعل.»

توقفت عن السير وثورندايك كذلك، ووقفنا نرقب ببعضِ الفُضولِ وصول ذلك الرجلِ ومعرفته بالمأساة التي وقعت. وبينما كان الرجل الغريب يَقترب منا، رأينا أنه كان طويل القامة وتبدو بِنيتُه رياضية ويبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا، ويَرتدي بذلة من طراز نورفوك نيكربوكر ويبدو كرجل ريفيٍّ غنيٍّ عاديٍّ، عدا أنه كان يَحمِل في يدِه — كبديلٍ لعصا المشي — عصا شبكة صيد فراشات، والتي كانت حلقةُ طيِّها وشبكتها تخرجان جزئيًّا من جيبِه.

صاح الرجل بينما أتى نحونا، وكان يلهث من الجري: «هل ما سمعته صحيح أيها الرقيب؟ أقصد ما حدث للسيد هيرن. هناك إشاعة تقول بأنه وُجد ميِّتًا على الشاطئ.»

«أجل، هذا صحيح يا سيدي. يؤسفني قول هذا؛ والأسوأ أنه قُتِل.»

«يا إلهي! أنا لا أستطيع تصديق ذلك!»

كان وجهه يوحي بأنه رجل يحبُّ المرح في العادة، لكن وجهه الآن كان شاحبًا وتبدو عليه أماراتُ الخوف، وبعد أن صمت لبرهة، صاح متعجبًا:

«قُتِل! يا إلهي! يا لَلمسكين العزيز هيرن! كيف حدث ذلك أيها الرقيب؟ ومتى؟ وهل هناك أيُّ دليل يُشير إلى القاتل؟»

أجابه الرقيب: «لا يُمكننا أن نجزم بوقتِ مقتله تحديدًا، وأما عن سؤالك عن الدليل، فقد كنت في طريقي إليك.»

صاح درابر مُتعجبًا بينما نظر للرقيب باندهاش: «في طريقكَ إليَّ! لماذا؟»

«في الواقع، نُريد أن نَعرف شيئًا عن السيد هيرن؛ هُويَّته، وإن كان له أعداء، وما إلى ذلك؛ في الواقع نُريد معرفة أيِّ شيء يُمكن أن يُساعدنا في تحديد مكان البحث عن القاتل. وفي هذا المكان، أنت الشخص الوحيد الذي كنتَ تَعرفه معرفة عميقة.»

أصبح وجه السيد درابر الشاحب أكثرَ شحوبًا، ونظر حوله نظرة المتُحيِّر في أمرِه.

بدأ حديثه بنبرة مُترِدِّدة: «أخشى ... أخشى أنَّني لن أُفيدَك كثيرًا. لم أكن أعرف الكثير عن حياته. لقد كانت علاقتنا — في الواقع — مجرَّدَ علاقة سطحية.»

قاطعه الرقيب قائلًا: «حسنًا، يُمكنك أن تُخبرَنا مَن كان وما هو عملُه، وأين كان يعيش، وما إلى ذلك. سنَكتشِف نحن أمر البقية إذا ما ساعدتنا في معرفة هذه الأشياء.»

قال درابر: «أفهم ذلك. أجل، أعتقد أنكم ستفعلون.» وظلَّت عيناه تتحرَّك يمنةً ويسارًا بلا كلل، ثم أضاف في النهاية: «ينبغي أن تأتيَني غدًا، وتتحدَّث معي بشأنه، وسأرى ما يمكن أن أتذكره.»

قال الرقيب بنبرة حازمة: «أُفضِّل أن آتيَ إليك هذا المساء.»

قال درابر متوسِّلًا: «ليس هذا المساء. إنني أشعُر أنني ... كما تعرف، لقد أزعجني بشدة ما حدث. لا يُمكنني أن أكون منتبهًا جيدًا ...»

تلاشت كلماتُه وتحوَّلت إلى غمغمة غير واضحة، ونظر إليه الرقيب في اندهاش واضح من أسلوبه الذي ينمُّ عن عصبية وحيرة. لكن أسلوب الرقيب كان شديدَ الحزم، رغم أنه كان مهذبًا.

وقال: «لا أريد أن أضغط عليك سيدي، لكن الوقت يُداهمنا — سنتحرَّك واحدًا تلو الآخر؛ فهذه البِركة مصدر إزعاج عام. ينبغي عليهم أن يصنعُوا لها ضفَّة من هذه الجهة. سنأتي وراءَك يا سيدي.»

كانت البِركة التي أشار إليها الرقيب قد امتدَّ ماؤها في وقتٍ ما عبر الطريق، لكن الآن وبفعل الطقس الجاف، تَحوَّل قطاعٌ منها إلى أرضٍ مُوحِلة لم تجفَّ تمامًا بعد، وقد استدارَ السيد درابر ليَسيرَ عليها. وكان الرقيب على وشكِ أن يَسير خلفَه حين توقَّف فجأةً وثبَّت نظرَه على الأرض الموحلة. وعرفتُ من نظرة واحدة سبب دهشتِه، ذلكَ أن آثار الأقدام

الحديثة للرجل الذي بدأ سيرَه لتوِّه قد بدَت بارزةً، وكأنها على قالب مصنوع من الشمع، على الأرض المُوحِلة التي تُشبه المعجون، وكان كلُّ أثر من آثار قدمَيه يُظهِر عند منطقة باطن القدم مجموعةً من المسامير التي تتَّخذ شكلَ ماسَّة، وعند منطقة الكعب مجموعة من المسامير المشابهة لها التي تتَّخذ شكل صليب.

تردَّد الرقيب للحظة نظر إلينا خلالها نظرةَ اندهاشٍ سريعة؛ ثم تبع الرجل فكان يسير بحذر شديد على حافة الطريق الموحل وكأنه يُحاول أن يَتجنَّب أن يطأ على آثار أقدام سابقِه. وبصورة غريزية فعلنا مثلما فعل، وتبعناهما عن كثبٍ بينما كنا نَرقُب بشغفٍ ما سيُسفِر عنه تطور أحداث هذه المأساة. سرْنا جميعًا في طريقنا في صمتٍ لدقيقةٍ أو اثنتَين، ومن الواضح أن الرقيب كان في حيرة من أمرِه بشأنِ ما يَنبغي عليه أن يفعله، وكان السيد درابر غارقًا في أفكارِه. وبعد برهة تحدَّث الرقيب قائلًا:

«سيد درابر، أتعتقِد أنه من الأفضل لك أن أزورك غدًا للحديث عن هذا الشأن؟»

أجاب الثاني في حماسة قائلًا: «أفضِّل ذلك كثيرًا، إذا لم تَكُن تمانع.»

قال الرقيب وهو يَنظر إلى ساعته: «إذن، في هذه الحالة وحيث إنَّ أمامي الكثير لأقوم به في هذا المساء، سأترُكُكم هنا، وسأذهب إلى قسم الشرطة.»

وبعد أن لوَّح لنا الرقيب بيدِه مودِّعًا، تسلَّق سُلَّمًا صغيرًا، وحين نظرتُ إليه، بعد لحظات قليلة، عبر فتحة في السياج، كان يجري عبر المرج جريًا سريعًا وكأنه أرنبٌ برِّيٌّ.

كان رحيل الرقيب على ما يبدو مصدرَ ارتياح كبير للسيد درابر الذي تراجَعَ فجأة في خطوته وبدأ يتحدَّث إلينا.

وقال: «أعتقد أنك الدكتور جيرفس. رأيتُك البارحة وأنت تخرج من منزل الدكتور كوبر. نحن نعرف كلَّ شيء يحدث في القرية.» ثم ضحك بطريقة تنمُّ عن التوتُّر وأضاف: «لكنَّني لا أعرف صديقك.»

قدَّمتُ له صديقي، فقطب الرجل جبينِه حين ذكرتُ اسمَ ثورندايك ونظر بفضول إليه.

وقال: «ثورندايك؛ يبدو الاسم مألوفًا لي. هل تعمل في مجال القانون يا سيدي؟»

رد ثورندايك عليه بالإيجاب، فأكمل صاحبُنا حديثَه بعد أن عاوَدَ النظر إلى صديقي بفضول شديد: «لا شك أن تلك الحادثة المريعة تُثير اهتمامك، من وجهة نظر مهنية. أعتقد أنك كنت حاضرًا حين عثرُوا على جثَّة صديقي المسكين، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك: «نعم، لقد وصلنا بعد ذلك، حين كانُوا يحملونها.»

استمرَّ رفيقُنا في سؤالنا عن الجريمة، لكنه لم يتلقَّ من ثورندايك سوى الردود الأكثر عمومية وغُموضًا. ولم يكن هناك متَّسعٌ من الوقت للخوض في الأمر على نحوٍ مطوَّل؛ ذلك أننا سرعان ما وصلنا إلى الطريق المجاوِر لمنزل السيد درابر.

قال: «اعذراني إن لم أدعُكما لزيارتي الليلة، لكنَّكما ستَتفهَّمانِ أنَّني لا أستطيع أن أستضيف أحدًا الآن.»

طمأنَّاه بأنَّنا نَتفهَّم ذلك تمامًا، وبعد أن تمنَّينا له أمسية سعيدة، أكملْنا طريقنا نحو القرية.

قلتُ ملاحظًا: «أعتقد أن الرقيب ذهب ليحصُلَ على مذكرة توقيف.»

«أجل، وهو قلقَ كثيرًا من أن يهرب الرجل قبل أن يُفعِّلها. لكنَّه لا يَعلم أبعاد الأمر جيدًا يا جيرفس. هذه القضية شديدة التعقيد والتفرُّد؛ في الواقع هي إحدى أغرب القضايا التي قابلتُها في حياتي. سأتتبَّع تطوُّراتها باهتِمامٍ بالغ.»

قلت: «يبدو الرقيب شديد الثقة على أيِّ حال.»

رد ثورندايك: «لا يُمكِن أن نلومَهُ على ذلك. إنه يتصرَّف بناءً على المظاهر البيِّنة، وهو الشيء الصحيح الذي يَنبغي القيام به في المقام الأول. ربما يَحتوي دفتره على معلومات أكثر مما أظن، لكن سنرى.»

حين دخلنا القرية، توقفتُ لأُنهيَ بعض الأعمال مع الصيدلي الذي كان يَتعامَلُ معه الدكتور كوبر، فاقترحتُ على ثورندايك أن يَذهب إلى المنزل؛ لكن حين خرجت من المتجَر بعد عشر دقائق، كان ثورندايك يَنتظِر في الخارج مع لفَّتَين صغيرتَين مُغطاتَين بورقِ اللفِّ البُنيِّ وكان يَحمِل كلَّ واحدة منهما تحت إبطه. ألححتُ على إراحته من حمل واحدة منهما، رغم اعتراضِه، لكن حين ناوَلَني إياها في النهاية تفاجأت بشدَّة بوزنها الثقيل.

قلت ملاحظًا: «كنت سأجعلُهم يُرسِلُون هذه اللفَّة إلى المنزل على عربة.»

أجابني: «وأنا كنتُ سأجعلهم يفعلون ذلك أيضًا، لكنَّني لم أُردْ أن ألفت الأنظار إلى ما اشتريت، ولم أُردْ أن أعطيَ عنواني لأحد.»

قَبِلتُ هذا التلميح وأحجمتُ عن سؤالِه عن طبيعة ما تَحتويهِ هاتان اللفَّتان (رغم أنني يجب أن أعترفَ أنَّ الفُضول كان يتملَّكُني بشدة بخُصوص هذا الشأن)، وحين وصلنا إلى المنزل، ساعدتُه في وضع اللفَّتَين الغامضتَين في حجرته.

وحين نزلت الدرج، كانت هناك مُفاجأة غير سارَّة تنتظرني. قبل ذلك، كنتُ أقضي أمسياتي الطويلة برفقة نفسي في عُزلة واستِمتاع لا يَنقطعان بمكتبة الدكتور كوبر الرائعة، لكن شاءت الأقدار في هذه الليلة أن أخرُجَ من المنزل؛ ذلك أن أحد المُزارِعِين الحمقى والذي يسكن في ضيعة تبعد عني خمسة أميال قد اختار مساء وصول ضيفي ليتسبب في خلع كتفه. كان يحدوني بعض الأمل أن يقترح ثورندايك عليَّ أن يُرافقني، لكنه لم يفعل، بل بدا في حقيقة الأمر غير متضرر بأي شكلٍ من احتمالٍ غيابي.

قال ثورندايك بنبرة مَرِحة: «لديَّ الكثير ليَشغلني أثناء غيابك.» شعرتُ من تأكيدِه هذا ببعض الراحة، فركبتُ دراجتي وقُدتها عابسًا بعض الشيء عبر الطريق المظلم.

استمرَّت زيارتي قرابة الساعتَين، وحين وصلت المنزل وأنا أشعر بالجُوع والحرِّ الشديدَين من ركوبي للدرَّاجة، كانت الساعة قد دقت التاسعة والنصف وبدأ سكون الليل يُخيِّم على القرية.

قالت الخادمة حين دخلت إلى الردهة: «الرقيب باين في انتظارك في غرفة العيادة سيدي.»

قلت: «الرقيب باين الحائر! هل الدكتور ثورندايك برفقتِه؟»

أجابت الفتاة مُبتسِمة: «لا يا سيدي. لقد خرج الدكتور ثورندايك.»

قلت مُكرِّرًا بسبب اندهاشي الشديد: «خرج!»

«أجل سيدي، خرج بعدك بقليل، على دراجته. كان هناك سلَّة — أو على الأقل سَبَت — مربوطة إلى الدراجة وقد استعار من الطبَّاخ طستًا ومِلعقة مطبَخ.»

حدَّقتُ بالفتاة في ذهول. كانت تصرُّفات جون ثورندايك في واقع الأمر غيرَ مفهومة على الإطلاق.

قلت: «حسنًا، جهِّزي لي الغداء أو العشاء في الحال، وسأنظر ماذا يُريد الرقيب.»

وقَف الرقيب حين دخلت العيادة، ووضَع خُوذته على الطاولة وحدَّثني بنَبرةٍ تنمُّ عن أهمية حديثِه ورغبتِه في التكتُّم.

قال الضابط: «في الواقع سيدي، وقعتِ الفأسُ بالرأس. لقد ألقيتُ القبض على السيد درابر، وأودعته الحبس في مبنى المحكمة. لكنني كنت أتمنَّى لو أن القاتل كان شخصًا آخر غيره.»

قلت: «وهو كذلك أيضًا حسبَما أعتقِد.»

أكمل الرقيب حديثه: «يا سيدي، نحن جميعًا نحبُّ السيد درابر. إنه يعيش بينَنا منذ سبع سنوات تقريبًا، وهو واحد منَّا الآن. لكن ما أتيت هنا من أجلِه هو ما يلي: يبدو أن الرجل الذي كان معك هذا المساء هو الدكتور ثورندايك، الخبير الشهير. ويبدو أن السيد درابر سمع عنه — كما سمع معظمُنا — وهو يُريد بشدة أن يَتولَّى الدكتور ثورندايك الدفاع عنه. أتعتقِد أنه سيُوافِق على ذلك؟»

أجبتُه متذكِّرًا اهتمامه الكبير بتلك القضية: «أتوقع ذلك.» لكنَّني أضفت: «لكنَّني سأسأله عن ذلك حين يعود.»

قال الرقيب: «أشكرُكَ سيدي. وربما لن تُمانع الحُضور إلى المحكمة بنفسِك. يبدو السيد درابر غريبًا حقًّا، ولا عجبَ في ذلك، لذا أريد منكَ أن تأتيَ وتُلقيَ نظرةً عليه بنفسِكَ، وإذا استطعتَ أن تُحضرَ الدكتور ثورندايك معك، فسيسرُّ السيد درابر بذلك، وهكذا أنا، ذلك أنني أؤكد لك يا سيدي أنَّني سأكونُ مَسرورًا لو كنتُ مُخطئًا، رغم أن إدانة أحدِهم تعني ارتقائي درجة في السلَّم الوظيفي.»

كنتُ في طريقي لتوصيلِ ضَيفي إلى الخارج حين دخلتْ دراجة من البوابة المفتوحة، ونزل عنها ثورندايك عند الباب، حاملًا سَبَتًا مربع الشكل — من الواضح أنه أخذه من العيادة — وكان مربوطًا إلى حامل الدراجة الخَلفي. طرحتُ على ثورندايك في الحال طلبَ الرقيب وسألتُه إن كان يُريد أن يتولَّى القضية.

أجاب ثورندايك: «بالنسبة لتولِّي أمر الدفاع، فسأفكر في الأمر؛ لكنَّني على أي حال سآتي لرؤية المتهم.»

رحل الرقيب بعد ذلك، وبعد أن حلَّ ثورندايك وثاق السبَت من الدراجة بكل حذر وكأن به مجموعة تُحَفٍ من الخزف لا تُقدَّر بثمن، حمله بحرص شديد إلى غرفته؛ ثم ظهر مرةً أخرى بعد برهة من الوقت مبتسمًا وكأنه يعتذر عن تأخره.

قلت متذمِّرًا بينما كان يأخذ مكانه على الطاولة: «كنت أظن أنكَ تُغيِّر ملابسك من أجل تناول العشاء.»

أجابني: «لا، كنت أفكر في أمر هذه الجريمة. إنها في غاية الغرابة حقًّا، ويبدو أنها ستكون معقَّدة بصورة غير معهودة أيضًا.»

«إذن، فهل ستقبل بتولي أمر الدفاع؟»

«سأفعل إذا ما قدَّم درابر رواية صريحة ومنطقية.»

بدا أن ذلك الشرط سيتحقق؛ ذلك أننا حين وصلنا إلى المحكمة (حيث كان المتَّهم حبيسَ مكتب فرعي، في حالة مريحة بالنظر إلى طبيعة التهمة الموجهة إليه) وجدنا السيد درابر في غاية الصراحة أثناء حديثِه معنا.

«أريد منك أيها الدكتور ثورندايك أن تتولَّى أمر الدفاع عني في هذه القضية المريعة، لأنني أثق في أنك ستكون قادرًا على تبرئة ساحتي. وأعدُك أنني من جانبي لن أتحفَّظ أو أُخفيَ عنك شيئًا تريد معرفته.»

قال ثورندايك: «رائع جدًّا. بالمناسبة، أرى أنك غيَّرت حذاءك.»

«أجل، لقد أخذ الرقيب الحذاء الذي كنتُ أرتديه. وقال شيئًا عن مقارنة آثار أقدامه ببعض آثار الأقدام الأخرى، لكن لا يُمكن أن يكون هناك أيُّ آثار مشابهة لآثار حذائي هذا في ثاندرسلي؛ فالمسامير مثبتة في منطقة باطن القدم بنمط مميز للغاية. لقد صُنع هذا الحذاء خصيصًا لي في إدنبرة.»

«ألديك زوج آخر منه؟»

«لا، ليس لديَّ حذاءٌ مسمَّر غيره.»

قال ثورندايك: «هذه معلومة مهمة. والآن أرى أن هناك شيئًا تودُّ إخبارنا به بشأن هذه الجريمة. هل أنا مُحق؟»

«أجل. هناك شيء أرى أنك لا بد أن تعرفه، رغم أنني أتألم بشدة لاستدعاء ذكرى أشياء من الماضي كنت آملُ أنها قد دُفِنت إلى الأبد. لكن في النهاية ربما لا يكون من الضروري أن يعرف أحدٌ غيرك بشأن هذه الأسرار.»

قال ثورندايك: «آمل ذلك، وإذا لم يكن ذلك ضروريًّا، فيمكنك أن تعتمد عليَّ في ألا تتسرَّب تلك الأسرار لأحد غيري. لكنَّك تتمتَّع بالحكمة بحيث تُخبرني بأي شيء قد يكون بأي نحو ذا صلة بالقضية.»

عند هذه المرحلة، وحيث وجدت أن الأمور آلت إلى مناقشة مسائل تتَّسم بالسرية، نهضتُ من مكاني وكنتُ مُستعدًّا للخروج؛ إلا إنَّ درابر أشار لي أن أجلس مرة أخرى.

قال درابر: «لستَ في حاجة لأن تتركنا أيها الدكتور جيرفس. لقد حصلتُ على مساعدة الدكتور ثورندايك من خلالك، وأعرف أن بإمكاني أن أثقَ بكما كأمينَين على أسراري كما تفعلان مع عملائكما. والآن سأُدلي ببعض الاعترافات. في المقام الأول، يُؤلمُني أن أعترف أنني كنتُ فيما مضى مدانًا وأُفرج عني بعد قضاء عقوبتي — أو كما يقال «مجرمًا سابقًا».»

تحوَّل لون وجهِه إلى الأحمر الداكن وهو ينطق بتلك الكلمات، وكان يَرمق ثورندايك بنظره ليعرف وقْعَها عليه، لكن يُمكن القول إن مُحَيَّا صديقي الجامد كان أشبهَ بوجه رأس خشبي أو حجري؛ وحين أومأ ثورندايك بإيماءة خفيفة بعد كلماته تلك، أكمل درابر حديثه قائلًا:

«وحكاية ما ارتكبتُ من جرم هي حكاية المئات غيري. كنتُ أعمل موظفًا في أحد البنوك وكانت أموري تسير على خير ما يرام مثلما قد أتوقَّع في مثل تلك الوظيفة التي ليس فيها مجالٌ كبير للترقي، وذلك حين ابتُليت بصحبة أربعة أشخاص فاسدين. كانوا جميعًا شبَّانًا، رغم أنهم كانوا أكبر منِّي في العمر، وكانت رابطة الصداقة بينهم قوية للغاية فشكَّلوا فيما بينهم عصابةً صغيرة. لا يمكن وصفهم في العادة بأنهم «مخادعون». لقد كانوا شبَّانًا يتمتعون بالرزانة وحسن السلوك إلى حدٍّ ما، إلا أنهم كانوا يُدمنون بشدة المقامرة، وسرعان ما أصابتني عدواهم. لم يمرَّ وقت طويل حتى صرتُ أكثرَ من يُقامر فيما بينهم، وصرتُ أستمتِع بشدة بلعب الورق والبلياردو والأشكال الأخرى العديدة من المقامرة، ولم يذهب في العادة الجزء الأكبر من راتبي الهزيل في الخسارات الحتمية التي كنتُ أتعرض لها وحسب، وإنما أيضًا سرعان ما وجدتُ نفسي واقعًا تحت وطأة ديون كبيرة، دون توافُر وسائل واضحة تُمكِّنني من سدادها. صحيح أن أصدقائي الأربعة كانوا هم أكبرَ مدينيَّ — بل في الواقع يكاد يكونون هم الوحيدين — لكنَّني على أيِّ حال كنت مديونًا، ولا بد من سداد تلك الديون.

كان أصدقائي الأربعة — والذين أسماؤهم على التوالي هي ليتش، وبيتفورد، وهيرن، وجيزارد — أذكياء بصورة غير مألوفة، رغم أنَّني لم أنتبِه إلى مدى ذكائهم إلا متأخرًا جدًّا. كنتُ ذكيًّا أيضًا ولكن بطريقتي الخاصة، ويا له من ذكاء بغيض؛ ذلك أنني كنت أمتلك موهبة كارثية وهي قدرتي على تقليد خط اليد والإمضاءات بدقة استثنائية. كان تقليدي للخطوط مُتقنًا للغاية لدرجة أن مَن أُقلِّدهم كانوا في الغالب يجدون صعوبة في التمييز بين إمضاءاتهم وبين محاكاتي لها، وكثيرًا ما طلب مني بعض رفاقي استخدام مهارتي لتنفيذ بعض الخدع المازحة والدعابات في الآخرين. لكن تلك الدعابات كانت محصورةً فقط في مجموعتنا الصغيرة؛ لأن أصدقائي الأربعة كانوا حريصين على ألا يعرف أحدٌ خارج نطاقنا بمهارتي الخطيرة وقلقين بشأن ذلك.

والآن تأتي التبعات التي لا بدَّ وأنك توقعتَها. كانت ديوني تتفاقم رغم أنها كانت بمبالغ صغيرة، وفقدتُ الأمل في قدرتي على سدادها. ثم ذات ليلة، تقدم جيزارد باقتراح.

كنا نلعب إحدى ألعاب الورق في منزله، وتسبَّب حظي العاثر مرة أخرى في زيادة ديوني. حررتُ إقرارًا بالدين، ومررته عبر الطاولة إلى جيزارد، الذي أخذه بدوره ووضعه في جيبه بتذمُّرٍ شديد.

قال لي وقتها: «اسمع يا تيد، لا بأس بهذه الورقة، لكنَّني كما تعرف لا أستطيع سداد ديوني بها. إنَّ مدينيَّ يُطالبونني بأموال نقدية.»

أجبتُه: «إنني في غاية الأسف، لكن لا يَسعني سوى ذلك.»

قال لي: «لا، يسعك سوى ذلك، وسأُخبرك كيف ذلك.» ثم عرض عليَّ خطة رفضتها في البداية باستياء شديد، لكن حين دعمه الآخرون فيها، سمحتُ لنفسي في النهاية بأن يقنعني بها، بل ونفذتها أيضًا. تدبَّرتُ الحصول على بعض نماذج الشيكات، وذلك باستغلال إهمال بعض رؤسائي في البنك ولا مبالاتهم، ثم دوَّنتُ في تلك النماذج مبالغ صغيرة من المال — ليس أكثر من جنيهين أو ثلاثة — ووقعتُها بمحاكاة دقيقة مُتقنة بإمضاءات بعض عملائنا. قام جيزارد بإعداد بضعة أختام خاصة بأرقام الحسابات، وحين تمَّ ذلك، سلمتُه كلَّ الشيكات المزوَّرة كتسوية لديوني لدى رفاقي الأربعة.

تم تقديم الشيكات على النحو الواجب، لكنَّني لا أعرف مَن قدَّمها؛ ورغم أن المبالغ الصغيرة التي كتبتُها قد تمَّ تعديلُها بمهارة كبيرة إلى مبالغ كبيرة للغاية، فقد تمَّ قبول الشيكات جميعها سوى واحد. ذلك الشيك — الذي تمَّ تعديله من ثلاثة ليصبح تسعة وثلاثين — كان سيُجرى سحبه من حساب مكشوف بالفعل على نحو طفيف. انتابت الصرَّاف الشكوك؛ فتمت مصادرة الشيك وتم التواصُل مع العميل. ثمَّ انفجر اللغم بلا شك. لم يتمَّ كشف أمر هذا الشيك المزوَّر فحسب، بل تم فتح تحقيق وسرعان ما كشف النقاب عن الشيكات الأخرى. ومن ثَم أفضت الملابسات — والتي أنا لستُ في حاجة لذكرها — إلى إثارة الشكوك نحوي. وسرعان ما فقدتُ رباطة جأشي واعترفت في النهاية بكل شيء.

تلا ذلك الملاحقة القضائية الحتمية، والتي لم يتمَّ إجراؤها بطريقة انتقامية. لكنني ارتكبتُ وقائع التزوير بالفعل، ورغم أنني حاولتُ أن أُلقيَ بجزء من اللائمة على شركائي الخونة، فلم أنجح في ذلك. صحيح أنه قد تم إلقاء القبض على جيزارد، لكن تم إطلاق سراحه لعدم كفاية الأدلة، ومن ثَمَّ، حملتُ وحدي كامل ذنب ارتكاب وقائع التزوير. أدانَتني هيئة المحلفين بالطبع، وحُكم عليَّ بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة.

أثناء فترة السجن تُوفِّيَ أحدُ أعمامي في كندا، وبموجب بنود وصيَّته ورثتُ كلَّ ما كان يمتلكه من ثروة، وبهذا فحين حلَّ وقتُ إطلاق سراحي، لم أكن حرًّا وحسب، وإنما كنت

أيضًا ثريًّا بعض الشيء. تخلَّيتُ عن اسمي في الحال، واتخذت من ألفريد درابر اسمًا جديدًا لي، وبدأتُ أبحث عن مكان هادئ يمكن أن أعيش فيه بقية حياتي في سلام من دون أن يتمَّ كشف هويتي فيه. وجدتُ ضالتي في ثاندرسلي، وعشتُ هنا السبع سنوات الأخيرة حسبما أعتقد في ظل محبة واحترام من جيراني الذين لم يشكُّوا أنهم يأوون بينهم مجرمًا مدانًا.

طوال تلك المدة لم أرَ شركائي الأربعة أو أسمعْ شيئًا أبدًا عنهم، وكنتُ آمل وأعتقد أنهم قد خرجوا تمامًا من حياتي. لكن ذلك لم يحدث. لقد قابلتهم قبل شهر واحد للأسف، ومنذ ذاك اليوم تلاشى كلُّ السلام والأمان الذي كنت أعيش فيهما في حياتي الهادئة في ثاندرسلي. لقد تسللوا إلى حياتي كأرواح خبيثة، فبدَّلوا سعادتي بؤسًا وشقاءً، وأنذروني نهارًا بالهلاك، وقضَّوا مضجعي ليلًا بالرعب.»

توقف السيد درابر هنا للحظة، وبدا مستغرقًا في حلم يقظة بائس.

سأله ثورندايك: «ما الملابسات التي قابلت هؤلاء الرجال في سياقها؟»

صاح درابر بفعل شعور مفاجئ بالإثارة: «آه! كانت الملابسات غريبة ومريبة جدًّا. كنتُ قد ذهبت يومها إلى إيستويتش للتبضُّع. وعند نحو الحادية عشرة صباحًا، كنت أشتري أشياء من أحد المتاجر حين لاحظتُ رجلَين يَنظران من نافذة المتجر، أو ربما كانَا يتظاهران بذلك، بينما كانَا يتحدَّثان بجدية. كانَا يَرتديان ملابس أنيقة فضفاضة وكأنهم مُزارِعُون ميسورو الحال، وكان ذلك طبيعيًّا يومها حيث كان هو يوم انعقاد السوق. لكن بدا لي أن وجهَيهما مألوفان، فنظرتُ لهما بإمعان أكبر، فأدركت فجأة وعلى نحو غير سار أنهما كانَا يُشبهان ليتش وجيزارد، إلا أنهما لم يكونَا على درجة كبيرة من الشبه بهما. كان التشابُه حاضرًا لكن أوجه الاختلاف كانت أكبر من أن يكون مرور الزمن وحده هو المسئول عنها. وعلاوةً على ذلك، كان الرجل الذي يُشبه جيزارد لديه شامة كبيرة على خدِّه الأيسر تحت عينِه مباشَرة، فيما كان الآخر يَرتدي نظارة بعين واحدة وله شارب مبروم، في حين أن ليتش كان حليقَ الذقن ولم يَرتدِ نظارة يومًا.

وبينما كنتُ أتفكر في التشابُه، رفع الرجلان نظرَيهما، ولاحظَا أنني كنتُ أُركز نظري عليهما وأتحقق من أمرهما، حينها ابتعدَا عن النافذة؛ وحين خرجت إلى الشارع حيث كنتُ قد أنهيت عملية الشراء، لم أجد لهما أثرًا.

وفي ذلك المساء وبينما كنت أسير بجوار النهر خارج المدينة قبل أن أعود إلى المحطة، تجاوزت يختًا كان يتم سحبُه مع التيار. كان هناك ثلاثة رجال يسيرون أمامي على الضفة ومعهم حبلُ سحبٍ طويل، وكان هناك رجلٌ يقف في قمرة القيادة يُوجِّه الدفة. وبينما كنت

أقترب منهم، قرأتُ اسم «أوتر» على مؤخرة اليخت، فيما استدار الرجل الذي يُوجه الدفة، وحينها تفاجأتُ حيث أدركت أنه كان صديقي القديم هيرن. لكن ذلك الإدراك لم يكن متبادلًا من جانبه؛ ذلك لأنني كنت قد أطلقت لحيتي أثناء فترة إقامتي هنا، فتجاوزتُه دون أن أُظهر أنني تعرفتُ عليه، لكنني حين تجاوزت الرجال الثلاثة الآخرين، أدركتُ — كما كنت أخشى — أنهم أفراد العصابة الآخرين، ولا بد وأنني أطلتُ النظر إلى جيزارد، لأنه توقف فجأة وصاح: «يا إلهي، إنه صديقنا العزيز تيد! أخونا المأسوف عليه والغائب منذ فترة طويلة!» ثم رفع يده يحيِّيني في وديَّة مفرطة، وبدأ يسألني عن أحوالي؛ لكنني قاطعتُه وحسمتُ الأمر بإبداء عدم رغبتي في تجديد أواصر المعرفة، ثم استدرت نحو الممشى الذي يؤدي بعيدًا عن النهر وسرتُ دون أن أنظر خلفي.

كان من الطبيعي أن يشغل هذا اللقاء ذهني على نحو كبير، وحين فكرتُ في أمر الرجلين اللذَين قابلتهما في المدينة، وجدت صعوبة في تصديق أن التشابه بينهما وبين صديقيَّ السابقَين كان مجرد صدفة. لكنَّني حين قابلت ليتش وجيزارد عند النهر، لاحظتُ عليهما بعض التغيير، ولاحظت على وجه الخصوص أن جيزارد لم يكن لديه شامة كبيرة على وجهه، وأن ليتش كان حليقًا كعادته.

لكن بعد مرور يوم أو اثنين تبددتْ شكوكي كلُّها حين قرأتُ خبرًا في الجريدة المحلية. يبدو أن يوم زيارتي لإيستويتش هو اليوم نفسه الذي تم فيه صرفُ عددٍ من الشيكات المزورة من ثلاثة بنوك مختلِفة. كان مَن قدم تلك الشيكات هم ثلاثة رجال يرتدون ملابس أنيقة فضفاضة والذين يبدون كأنهم مزارعون ميسورو الحال. كان لدى أحدهم شامة كبيرة على خده الأيسر، وكان الثاني مميزًا بنظارة بعين واحدة وشارب مبروم، لكنني لم أستطع أن أتعرف على الثالث من أوصافه. لم يتمَّ سحب مبالغ كبيرة بأيٍّ من الشيكات الثلاثة، رغم أن مجموع المبلغ المسحوب كان أربعمائة جنيه تقريبًا؛ لكن أكثر ما يُثير الاهتمام هو أن نماذج الشيكات جرى إنتاجها عن طريق عملية التصوير الفوتوغرافي، وأن العلامة المائية مقلَّدة بمهارة ولكن ليس بإتقان. لا شك أن المحتالين كانوا يتمتَّعون بالمهارة والحذر، وعلى استعداد لبذل مجهود كبير من أجل ضمان أمنهم، وكانت نتيجة حيطتهم تتمثَّل في عدم قدرة الشرطة على التعرُّف على هوياتهم.

وفي اليوم التالي لذلك، تصادف أنني كنت أسير إلى بورت مارستون فرأيتُ اليخت أوتر موثوقًا إلى رصيف الميناء. وبمجرَّد أن تعرفت على اليخت، استدرتُ بسرعة وسرتُ بعيدًا، لكن لم تمرَّ دقيقة حتى التقيتُ بليتش وجيزارد اللذين كانَا في طريق عودتهما إلى يختهما.

حيَّاني جيزارد بشيء من الاندهاش وصاح قائلًا: «يا إلهي! ألا زلتَ تتجول هنا يا تيد؟ أنت تتخلَّى عن الحذر يا صديقي العزيز. إنني أنصحك بجدية أن تختبأ في مكان ما.»

سألته: «ماذا تقصد؟»

قال: «أف! إننا نقرأ الصحف كغيرنا من الناس، ونعرف الآن ما كنت تصنعه في إيستويتش. لكن من الغباء منك أن تتجول في الأرجاء هنا حيث يُمكن أن يتمَّ رصدُك والقبض عليك في أيِّ لحظة.»

تفاجأتُ تمامًا من اتهامِه الضِّمني لي حتَّى إنني وقفتُ أُحدِّق به وقد عقدتِ الصدمةُ لساني، وفي تلك اللحظة البائسة مرَّ تاجر كنتُ قد طلبت منه شراء ملاءات للمنزل على الرصيف. وحين رآني وقف وحيَّاني بأن لمَسَ قبعته.

قال الرجل: «عذرًا سيد درابر، لكنَّني سأرسل عربتي إلى ثاندرسلي غدًا صباحًا، إذا كان يُلائمك.»

قلت إنه لا بأس بذلك، فاستدار الرجل مُبتعدًا، ثم ابتسم جيزارد ابتسامة خبيثة.

قال جيزارد: «إذن فقد أصبحت السيد درابر الآن، وتعيش في ثاندرسلي، أليس كذلك؟ حسنًا، آمل أنك لم تُصبح مغرورًا حتى تأتيَ وتُلقيَ نظرة على أصدقائك القدامى. إننا سنمكث هنا لبعض الوقت.»

في تلك الليلة نفسها أتى هيرن إلى منزلي. كان قد أتى بصفته مبعوثًا من العصابة ليطلب مني القيام بأعمال لهم — عمليات تزوير في الواقع — رفضتُ بالطبع، وكان رفضي باتًّا قاطعًا أيضًا، حينها بدأ هيرن يُلمِّح بتلميحات غامضة عما قد يحدث إذا ما اكتسبتُ عداء العصابة ثم بدأ يُهددني بتهديدات مقنَّعة لكنها واضحة تمامًا. يُمكنك أن تقول إنني كنتُ مخطئًا أنني لم أطرده شرَّ طردة ولم أُهدِّدْهم بأنني سأفضح أمرهم جميعًا وأسلمهم للشرطة؛ لكنني لم أتمتع يومًا برباطة جأش، ولا أمانع في الاعتراف بأنَّني كنتُ أخاف بشدة من جيزارد، ذلك الشيطان الماكر.

بعد ذلك استأجر هيرن مكانًا ليسكن فيه في ثاندرسلي، وراح يلاحقني باستمرار رغم محاولاتي تجنُّبَه. ومن الواضح أن اليخت استقرَّ أيضًا في مرسى في الميناء لبعض الوقت، لأنني سمعتُ أنهم عيَّنوا فتًى محليًّا كعاملٍ عليه، وكنتُ ألتقي جيزارد وأعضاء العصابة الآخرين باستمرار والذين يَزعُمون جميعهم أنهم يعتقدون أنني صاحبُ عمليات التزوير في إيستويتش. وذات يوم كنت غبيًّا بما يكفي لأنْ أسمح لنفسي بأن يتمَّ استدراجي إلى اليخت لبضع دقائق، وحين أردت النزول، أدركتُ أنَّ وثاق اليخت قد انحلَّ وأنه

يتحرَّك بالفعل خارج الميناء. في البداية كنت غاضبًا لكنَّ المحتالين الثلاثة كانوا يتضاحَكُون ومسرورين بأنهم أخذوني للإبحار رغمًا عن إرادتي، حينها هدأ غضبي، وبعد أن غيَّرتُ حذائي وانتعلتُ حذاءً مطاطيًّا (لكيلا أتسبَّبَ بخدوش في السطح الأملس لليخت بفعلٍ حذائي المسمَّر) ساعدتهم في الإبحار باليخت وقضيتُ يومًا ممتعًا.

ومنذ ذلك الوقت، وجدت نفسي أعود تدريجيًّا إلى حالة من الصداقة الحميمة مع أولئك الأوغاد الظرفاء، وأصبح خوفي منهم يَزيد يومًا بعد يوم. وفي لحظة من الحماقة التامة من جانبي ذكرتُ ما رأيت من نافذة المتجر في إيستويتش، ورغم أنهم تجاوَزُوا الأمر بشيء من المزاح والدعابة، فإنني رأيت أنهم كانوا منزعجين للغاية من ذكري إياه. وقد ضاعَفُوا جهودهم في محاولات استمالتي، وبدأ هيرن يزورني يوميًّا تقريبًا في منزلي، وكان في الغالب يُحضر معه مستندات وإمضاءات ويحاول إقناعي بتقليدها.

وقبل عدة أمسيات عرض عليَّ عرضًا جديدًا ومذهلًا. كنا نسير في حديقتي، وكان يحاول أن يقنعني مرة أخرى بأن أعود للانضمام إلى العصابة، ولستُ في حاجة لأن أذكر أنه لم ينجح في ذلك. بعدها جلس على مقعد مقابل لسياج من شجيرات الطقسوس في آخر الحديقة، وبعد برهة من الصمت قال فجأة:

«إذن أنت ترفض الانضمام إلينا تمامًا؟»

أجبتُه: «بالطبع أرفض ذلك. لماذا أتورَّط مع عصابة من المحتالين بينما تتوافر لديَّ وسائل العيش الكريم وأتمتَّع بمكانة جيدة؟»

أجابني موافقًا: «بكل تأكيد، ستكون أحمقَ لو فعلت. لكن، انظر، أنت تعرف كل شيء بشأن عملية إيستويتش، ناهيك عن عملياتنا الصغيرة الأخرى، وقد فضحتَ أمرنا ذات مرة من قبل. ولذلك، يُمكنك أن تثقَ بكلامي حين أقول إن جيزارد قد بحث عنك في كل مكان حتى عثر عليك، وإنه لن يتركك في سلام حتى تقع في قبضتنا. أنت تعرف الكثير جدًّا، وطالما أن سجلَّك نظيف فإنك تمثل تهديدًا حقيقيًّا لنا. هذه هي حقيقة الموقف الآن، وأنت تعلمها وجيزارد كذلك، وهو يتصف بالتهور، كما أنه خبيث كالشيطان.»

فقلت في عبوس: «أعلم ذلك.»

أكمل هيرن حديثه قائلًا: «ممتاز. والآن سأعرض عليك عرضًا. خصِّص لي دخلًا سنويًّا صغيرًا — يُمكنك أن تتحمَّل ذلك بسهولة — أو ادفع لي مبلغًا كبيرًا الآن، وسأحررك للأبد من قبضة جيزارد والآخرين.»

سألته: «كيف ستفعل ذلك؟»

أجابني: «بكل بساطة. لقد سئمتهم جميعًا، وسئمت أسلوب الحياة المحفوف بالمخاطر وعدم الأمان هذا. والآن أنا على استعداد لتبرئة ساحتي وتحريرك من قبضتهم في الوقت نفسه؛ لكن يلزمني بعض ما يعينني على الحياة فيما بعد.»

سألته: «أتقصد أنك ستتحوَّل إلى شاهد ملك؟»

«أجل، إذا ما دفعتَ لي بضع مئات من الجنيهات كل عام، أو لنَقُل ألفين لسجن العصابة.»

كنتُ مذهولًا بشدة من العرض حتى إنني لم أُجبه لبعض الوقت، وبينما جلستُ لأفكر في ذلك العرض الرائع، شقَّ الصمت فجأة صوت عطسة مكتومة مصدرها الجانب الآخر من السياج.

هببتُ وهيرن على قدمينا، فسمعنا على الفور صوت أقدام مسرعة على الطريق خارج السياج. هرعنا عبر الحديقة إلى البوابة، وخرجنا منها إلى زقاق جانبي، لكننا حين خرجنا إلى الزقاق، لم نجد أحدًا. بحثنا سريعًا في الأرجاء المحيطة لكن دون جدوى، ثم عُدنا إلى المنزل. كان وجه هيرن شاحبًا ومنزعجًا للغاية، وينبغي أن أعترف أنَّني كنت منزعجًا بشدة أيضًا مما حدث.

قال هيرن: «هذا أمر غريب حقًّا.»

أجبته موافقًا: «بل هو في غاية الغرابة، لكنَّني أتوقع أن مزارعًا فضوليًّا كان يتسمع إلينا.»

قال هيرن: «لستُ واثقًا تمامًا من ذلك. على أي حال، لقد كنا غبيَّين حقًّا لأن نجلس أمام سياج ونتناقش في مثل هذه الأمور السرية.»

ظللنا نسير في الحديقة معًا لبعض الوقت وقد ساد صمت موحش بيننا، ثم انصرف بعد أن طلبتُ منه أن يُمهلني بعض الوقت لأفكر في عرضه.

ولم أرَه مرةً أخرى حتى قابلتُه ليلة أمس على اليخت. كان بيتفورد قد زارني في المنزل في الصباح ودعاني لأن أتناول العشاء معهم. رفضت في البداية، لأن ربة منزلي كانت ستذهب مساءً إلى أختها في إيستويتش وستَقضي الليلة هناك، ولم أكن أحب أن أترك المنزل فارغًا. لكنَّني وافقت في النهاية، بعد أن اشترطت أن يسمحوا لي بأن أغادرهم مبكرًا، ومن ثَمَّ، ذهبت. كان هيرن وبيتفورد ينتظران في القارب عند الدرج — لأن اليخت قد تحوَّل إلى عوَّامة طافية — ثم صعدنا على متن اليخت وأمضينا أمسية في غاية السعادة والحيوية. أعادني بيتفورد إلى الشاطئ في الساعة العاشرة، ثم سرتُ مباشرة إلى المنزل، وخلدت إلى

النوم. كان هيرن يُريد أن يأتيَ معي، لكنَّ الآخرين أصرُّوا على أن يبقى معهم، قائلين بأن هناك أمورًا تخص العمل يُريدون أن يتحدثوا بشأنها.»

سأله ثورندايك: «ما الطريق الذي سلكتَه إلى المنزل؟»

«جئتُ عبر المدينة، وعلى طول الطريق الرئيسي.»

«أهذا هو كلُّ ما تعلمه عن هذا الأمر؟»

أجابه درابر: «هذا كل شيء. لقد بُحتُ لكما الآن بأسرار حياتي الماضية التي كنت آمل ألا أكشفها أبدًا أمام أي إنسان، ولا زال يحدوني أملٌ ضعيف ألا يكون من الضروري لكما أن تُفشيَا ما قلت لكما من أسرار.»

قال ثورندايك: «لن يتمَّ إفشاء أسرارك إلا إذا كان لا مفر على الإطلاق من ذلك. إنك تأتمنَني على حياتك، وينبغي أن تترك لي حرية التصرف على النحو الذي يتراءى لي أنه الأفضل.»

بعد هذه الكلمات، جمع ثورندايك ملحوظاته وغادرنا.

وحين خرجنا إلى الطريق المظلم بعد أن تمنينا أن يُمضيَ الرقيبُ ليلةً سعيدة، قال لي ثورندايك: «يا لها من قصة غريبة للغاية يا جيرفس. ما رأيك فيما قال؟»

أجبتُه: «لا أعرف ما هو رأيي، لكن يبدو لي إجمالًا أن ما قاله ليس في صالحه أكثر من أي شيء آخر. إنه يعترف أنه مجرم سابق، ويبدو أنه تعرَّض للاضطهاد والابتزاز على يد هيرن. صحيح أنه يُقدِّم جيزارد على أنه العقل المدبِّر ورأس الأفعى خلف هذا الابتزاز، لكن ليس لدينا دليلٌ على ذلك سوى كلامه. كان هيرن يستأجر مسكنًا بجواره، ولا شك أنه كان يضطلع بالدور الأكثر فاعلية في هذا الأمر، ومن المحتمَل بل ومن الممكن أن هيرن كان في واقع الأمر هو «المدد الغيبي».»

أومأ ثورندايك وقال: «أجل، هذا هو السبيل الذي ستَسلُكُه جهةُ الادِّعاء إذا ما سمحنا للقصة أن تُعرف. ها! ما هذا؟ هل ستمطر السماء؟»

«أجل، وستكون هناك رياح أيضًا. أعتقد أننا على وشك أن نشهد عاصفة خريفية.»

قال ثورندايك: «وقد يُصبح هذا عاملًا مهمًّا في قضيتنا.»

سألتُه ببعض الاندهاش: «كيف يُمكن أن يؤثر الطقس على قضيتنا؟» لكن هطل المطر غزيرًا فجأة، فبدأ رفيقي يَجري، ولم يُجِب على سؤالي.

وفي الصباح التالي، والذي كان صافيًا ومشمسًا بعد تلك الليلة العاصفة، اتصل الدكتور باروز وسأل عن صديقي. كان في طريقه إلى المشرحة ليُجريَ تشريحًا لجثة القتيل. وقد

سُمح لثورندايك أن يحضر التشريح بعد أن أخبر قاضي التحقيق أنه تولَّى أمر الدفاع عن المتهم؛ لكن تصريح الحضور لم يَشملني، وبما أن الدكتور باروز لم يُقدم لي أيَّ دعوة للحضور، فلم يكن بمقدوري الحضور. لكنَّني قابلتهما بينما كانَا عائدَين، وبدا لي أن الدكتور باروز كان غاضبًا بعض الشيء.

قال الدكتور باروز باستياء: «إن صديقك هذا هو أشد مَن قابلتهم تمسكًا بالمظاهر والشكليات.»

نظر إليه ثورندايك مبتسمًا ثم راح يَضحك بشدة.

أكمل الدكتور باروز حديثه منزعجًا وقال: «كنا أمام جثة وُجدت في ظروف تشير بكل وضوح إلى تعرضها لجريمة قتل، وكان بها جرح سكين كاد يشق قوس الشريان الأورطي إلى نصفين؛ ورغم هذا أصرَّ الدكتور ثورندايك على معرفة وزن الجسم وفحص كلِّ عضو فيه — الرئتين والكبد والمعدة والمخ؛ أجل، المخ! — كما لو لم يكن هناك أيُّ دليل على سبب الوفاة. ثمَّ وفي النهاية أصرَّ على إرسال محتويات المعدة في إناء محكم الإغلاق بأختامنا الرسمية، وبصحبة مبعوث خاص إلى البروفيسور كوبلاند، من أجل تحليلها وإعداد تقرير بشأنها. كنت أعتقد أنه سيطلب فحصًا للتأكد من عدم إصابة القتيل ببكتريا السل لكنه لم يفعل.» ثم اختتم الدكتور باروز حديثه وقد أصبح نكد المزاج فجأة: «الأمر الذي كان يُعدُّ إغفالًا منه، لأن الرجل ربما يكون قد مات بداء السل.»

ضحك ثورندايك مرة أخرى، وغمغمتُ أنا بأن تلك التدابير ربما كانت مبالغًا فيها بعض الشيء.

كانت إجابة ثورندايك وهو مبتسم هي: «على الإطلاق. إنكم لا ترون جيدًا مهمتنا. نحن خبراء متخصصون غير متحيزين، مهمتنا أن نتأكد من سبب الوفاة بدقة علمية. إن المظاهر البديهية في هذه القضية تُوحي بأن درابر هو من قتل الرجل، وهذه هي الفرضية التي تم تقديمها. لكن هذا ليس من شأنِنا. مهمتنا ليست تأكيدَ أيِّ فرضية تُوحي بها الظروف الخارجية، بل على النقيض، فمهمتنا هي أن نحرص على التأكُّد من عدم إمكانية وجود أيِّ تفسير آخر للأمر. هذه هي مُهمتي الثابتة التي لا تتغيَّر. إنني أرفض أن أنظر لأي شيء بأنه مُسلَّم به، بصرف النظر عن الطريقة التي تبدو بها المظاهر واضحة بنحو صارخ.»

قابل الدكتور باروز جملته تلك بنخير يدل على الاعتراض، لكن وصول عربته منعت المزيد من المناقشة.

لم يُجْرَ استدعاء ثورندايك للشهادة أمام المحكمة. وحيث كان كلٌّ من الدكتور باروز والرقيب موجودَين مباشرة بعد العثور على الجثة، فإن شهادته لم تكن تُعتَبر ضرورية، وعلاوة على ذلك، كان من المعروف أنه يتابع القضية دفاعًا عن المتهم. ومن ثَم فإنه كان موجودًا بصفته مشاهدًا — مثلي — لكنه كان مشاهدًا مهتمًّا للغاية، لأنه دوَّن ملحوظات مختصرة وتامة عن مجمل الشهادة وتعليقات قاضي التحقيق.

لن أصف إجراءات المحاكمة بالتفصيل. لكن بعد أن اطلعتْ هيئةُ المحلفين على الجثة، دخل أفرادُها قاعة المحكمة على أطراف أصابعهم وقد بدت وجوهُهم شاحبة وهَلِعة، وجلسوا في أماكنهم؛ وبعد ذلك وبين الحين والآخر، كانوا يُوجِّهون أنظارهم التي تنمُّ عن الفضول الخفي إلى درابر بينما كان واقفًا يواجه هيئة المحكمة شاحبًا وهزيلًا، وعلى كلا جانبَيه وقف شرطي ريفي يبدو عليه قوة البنيان.

تم تقديم الشهادة الطبية أولًا. بعد أن أقسم الدكتور باروز على قول الحقيقة، بدأ يصف بتأكيدٍ ساخر حالة الرئتين والكبد، حتى قاطعه قاضي التحقيق متسائلًا:

«أكلُّ هذا ضروري؟ أقصد، أهذا في صلب موضوع التحقيق؟»

أجابه الدكتور باروز: «أعتقد أنه ليس كذلك. يبدو لي أن ذلك غيرُ ذي صلة إلى حدٍّ كبير، لكن الدكتور ثورندايك الذي يتولَّى الدفاع عن المتهم كان يعتقد أنه ضروري.»

قال قاضي التحقيق: «أعتقد أن من الأفضل أن تُقدِّمَ الحقائق الأساسية فقط. تريد هيئة المحلفين منك أن تُخبِرَهم بما ترى أنه سببُ الوفاة. إنهم لا يُريدون محاضرةً في علم الأمراض.»

قال الدكتور باروز: «سببُ الوفاة هو جرح نافذ في الصدر، وعلى ما يبدو أن سببَه سكينٌ كبير. دخل السلاح بين الضلعَين الثاني والثالث على الجانب الأيسر بجوار عظمِ القفص الصدري. جرحت السكين الرئة اليسرى وتسبَّبت في قطع جزئي في كلٍّ من الشريان الرئوي والشريان الأورطي — وهما الشريانان الأساسيان في الجسم.»

سأله قاضي التحقيق: «أيُعدُّ هذا الجرح وحده كافيًا ليُسبِّبَ الوفاة؟»

كانت إجابته: «أجل، كما أن الإصابة في هذين الشريانَين المهمين تُسبِّب الوفاة في الحال.»

«أيمكن أن تكون الإصابة ذاتية؟»

أجابه الشاهد: «فيما يتعلَّق بموضع الإصابة وطبيعتها، قد يكون الإيذاء الذاتي ممكنًا. لكن وبما أن الوفاة تحدث في غضون ثوانٍ على أقصى تقدير، فإن السلاح كان سيوجد إما

في الجرح أو في اليد، أو قريبًا جدًّا من الجثة على الأقل. لكن في هذه القضية لم يوجد أيُّ سلاح، لذا فلا بد وأن الإصابة كانت بدافع القتل.»

«هل رأيت الجثة قبل أن يَتمَّ نقلها؟»

«أجل، كانت الجثة ممددة على ظهرها، والذراعان ممدودتان والساقان مفرودتان على نحو شبه تام؛ وكانت الرمال بجوار الجثة مسحوقةً وكأنَّ صراعًا عنيفًا قد وقع.»

«هل لاحظت أيَّ شيء جدير بالملاحظة بشأن آثار الأقدام على الرمال؟»

أجاب الدكتور باروز: «أجل، كانت الآثار تُشير إلى اثنين من الأشخاص فقط. وكانت إحداها تُشير بلا شكٍّ إلى القتيل، حيث يُمكن تحديدُ آثار أقدامه بسهولة بفعل الكعبَين المطاطيَّين المستديرَين. وكانت آثار الأقدام الأخرى لشخص — على ما يبدو أنه رجل — يرتدي حذاءً صغيرًا أو عالي الرقبة، ومنطقة باطن القدم به مسمرة بالمسامير؛ وكانت تلك المسامير تتخذ نمطًا غريبًا وغيرَ اعتيادي للغاية؛ ذلك أن المسامير على منطقة باطن القدم تتخذ شكلَ مُعيَّنٍ أو ماسة، والمسامير على منطقة الكعب تتَّخذ شكلَ صليب.»

«هل رأيت من قبل حذاءً مسمَّرًا بهذه الطريقة؟»

«أجل، رأيت حذاءً أُخبرت أنه مملوك للمُتهم؛ والمسامير به تتَّخذ الشكلَين اللذين ذكرتُهما.»

«أتقول إنَّ ذلك الحذاء هو ما تسبَّب بآثار الأقدام التي تحدَّثتَ عنها؟»

«لا، لا يُمكنني قول ذلك. يُمكنني فقط أن أقول — في تقديري — إن الشكلَين على نعلَي الحذاء مشابهان للشكلَين المطبوعين في آثار الأقدام.»

كان هذا هو مُجمَل شهادة الدكتور باروز، وقد استمع ثورندايك لكل ما جاء بها بملامح جامدة ولكن باهتمام شديد. وكان المتَّهم يستمع باهتمام شديد أيضًا، لكنه لم يكن جامدَ الشعور؛ بل كان يشعر بانزعاج كبير حتى إنَّ أحد الشرطيَّين طلب الإذن بأن يُحضِرَ له كرسيًّا.

كان الشاهد التالي هو آرثر جيزارد. وقد شهد بأنه اطَّلع على الجثة، وتعرَّف عليها بأنها جثة تشارلز هيرن؛ وأنه كان على معرفة بالقتيل لفترة تمتد بضع سنوات، لكنه لم يكن يعرف أيَّ شيء عن علاقاته، وأنه كان يسكن وقت مقتلِه في القرية.

سأله قاضي التحقيق: «لماذا ترك اليخت؟ هل كان هناك أيُّ نوعٍ من الخلاف؟»

أجابه جيزارد: «على الإطلاق. بل سَئِمَ كونه حبيسَ اليخت، وخرج للعيش على الشاطئ كنوع من التغيير. لكنَّنا كنا أعزَّ صديقين، وكان يَنوي أن يعود معنا حين نُبحر عائدين.»

«متى رأيتَه آخر مرة؟»

«في الليلة السابقة لاكتشاف جثته، أي يوم الاثنين الماضي؛ كان يتناول العشاء على اليخت، وأوصلناه إلى الشاطئ بحلول مُنتصَف الليل تقريبًا. وقال بينما كنا نُبحر به إلى الشاطئ إنه ينوي أن يسير إلى المنزل على رمال الشاطئ حيث كان المدُّ منحسرًا. وقد صعد الدرج الحجري عند مبنى الساعة، وحين وصَل أعلاه استدار ليتمنَّى لنا ليلة طيبة. وتلك كانت آخرَ مرة أراه فيها على قيد الحياة.»

سأله قاضي التحقيق: «هل تعرف أيَّ شيء عن علاقة القتيل بالمتهم؟»

أجاب جيزارد: «أعرف أقلَّ القليل. قدَّم القتيل لنا السيد درابر قبل شهر تقريبًا. أعتقد أنهما كانَا يعرفان بعضهما قبل بضع سنوات، وبدت علاقتُهما ممتازة. لم يكن هناك أيُّ دليل على أي صراع أو خلاف بينهما.»

«متى غادر المتَّهم اليخت في ليلة وقوع الجريمة؟»

«عند العاشرة تقريبًا. قال بأنه يُريد أن يصل إلى المنزل مبكرًا، لأن ربة منزله كانت غائبة عن المنزل وهو لا يحب أن يترك المنزل فارغًا.»

كانت هذه هي كل شهادة جيزارد، وقد أكَّدها كلٌّ من ليتش وبيتفورد. وبعد ذلك، حين أدلى الصياد الذي اكتشف الجثة بشهادته تحت القسم، نُوديَ على الرقيب، وتقدم للأمام وهو يُمسك بحقيبة ويبدو منزعجًا وكأنه لم يكن شاهدًا بل متهمًا. قدَّم الرقيب وصفًا للملابسات التي رأى الجثة في ظلِّها، مبيِّنًا الوقت والمكان بدقة شديدة.

سأله قاضي التحقيق: «أسمعت وصف الدكتور باروز لآثار الأقدام؟»

«أجل، كانت هناك مجموعتان. إحداها كانت للقتيل بلا شك. وقد أوضحت الآثار أنه دخل خليج سانت بريدجيت من جهة بورت مارستون. وكان يسير على طول الشاطئ عند علامة ذروة المد تمامًا، فكان يتخطاها للداخل أو للخارج في بعض الأوقات. إن آثار الأقدام التي كان يخلفها قبل علامة المد المرتفع كانت تغمرها المياه وتختفي.»

«إلى أيِّ مدًى تتبعتَ آثار أقدام القتيل؟»

«إلى حواليَ ثلثَي الطريق إلى فجوة ثاندرسلي. ثم اختفَت الآثار قبل علامة المد المرتفع. وفي وقت لاحق في المساء، سرتُ من الفجوة إلى بورت مارستون، لكنَّني لم أستطع إيجاد أيِّ آثار أخرى للقتيل. لا بدَّ وأنه سار بين علامات المد طوال الطريق من بورت مارستون إلى ما بعد ثاندرسلي. وحين دخلتْ تلك الآثار إلى خليج سانت بريدجيت أصبحت مختلطةً بآثار رجل آخر، وكانت رمال الشاطئ مسحوقة لمسافة عدة ياردات كما لو أن شجارًا عنيفًا قد وقع. وعن آثار الرجل الغريب فقد جاءت نزولًا من ممرٍّ شيبرد وعادت إليه صعودًا مرة

أخرى؛ لكن، وبفعل صلابة الأرض بسبب الطقس الجاف، اختفت الآثار على بعد مسافة قصيرة في طريق الصعود على الممر، ولم أجدها مرة أخرى.»

سأله قاضي التحقيق: «كيف كان شكلُ تلك الآثار الغريبة؟»

أجاب الرقيب: «كان شكلها مميزًا جدًّا. كانت الآثار ناتجة عن حذاء مسمَّر بمسامير صغيرة تتَّخذ شكل ماسة على باطن القدم وشكل صليب على الكعب. قمتُ بقياس الآثار بدقة، ورسمتُ كلَّ قدم في ذلك الوقت.» وهنا أخرج الرقيب دفترًا كبيرًا، وبعد أن فتحه إلى صفحة معيَّنة فيه، قدَّمه إلى قاضي التحقيق، الذي تفحصه بدورِه باهتمام، ثم مرره إلى هيئة المحلفين. ثم انتقل من هيئة المحلفين إلى ثورندايك، وحين نظرتُ من خلفِه عليه، رأيت رسمًا بارعًا لزوج من آثار الأقدام ومبيَّنًا فيه الأبعاد الأساسية.

نظر ثورندايك إلى الرسم بدقة، ودوَّن بعض الملحوظات المختصَرة، وأعاد دفتر الرقيب إلى قاضي التحقيق، والذي أعاده بدوره إلى الرقيب.

سأله قاضي التحقيق قائلًا: «أيها الرقيب، ألديك أيُّ دليل يُرشدُنا للشخص الذي تسبب في آثار الأقدام تلك؟»

أجابه الرقيب بأن فتح الحقيبة التي كانت معه، وأخرج منها أحد الأحذية الأنيقة المتينة ووضعه على الطاولة.

قال الرقيب: «هذا الحذاء مملوك للمتهم؛ كان يَرتديه حين ألقيتُ القبض عليه. ويبدو أن الحذاء يتطابق تمامًا مع آثار أقدام القاتل. القياسات مُتماثلة، والمسامير المستخدمة فيه تتبع نمطًا مماثلًا.»

سأله قاضي التحقيق: «أتُقسمُ أنَّ آثار الأقدام سببها هذا الحذاء؟»

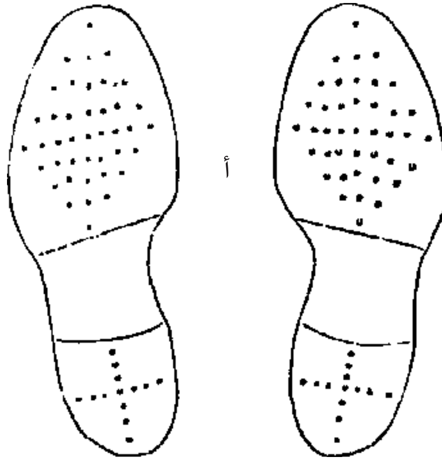
كانت إجابته الحاسمة: «لا يا سيدي، لا أستطيع أن أُقسم على ذلك. إنما أقسم فقط على التشابه بين الحجم والنمط الذي يتَّخذه الحذاء وآثار الأقدام.»

«هل رأيتَ هذا الحذاء من قبل، قبل أن تَرسم تلك الرسمة؟»

أجابه الرقيب: «لا يا سيدي.» ثم أشار بعد ذلك إلى واقعة آثار الأقدام في الأرض الموحلة عند البِركة، والتي تسبَّبت في أن يُلقيَ القبض على المتَّهم.

حدَّق قاضي التحقيق بإمعان في الحذاء الذي أمسكه بيده، ثم انتقل ببصره منه إلى الرسم؛ ثم مررهما إلى رئيس المحلفين وقال:

«إذن أيها السادة، ليس من شأني أن أُخبركم إن كان هذا الحذاء يتطابق مع الوصف الذي قدمه الدكتور باروز والرقيب، أو إن كان يتطابق مع الرسم الذي رسمه الرقيب كما




رسم الرقيب. طول الحذاء: ١١ ٣/٤ بوصة، عرض الحذاء عند أ: ٤ ١/٢ بوصات، طول الكعب: ٣ ١/٤ بوصات، عرض الكعب عند نمط الصليب: ٣ بوصات.

سمعتم في مسرح الجريمة وقبل أن يرى الحذاء؛ فهذا الأمر متروك لكم لتبتوا بشأنه. لكن الآن هناك سؤال آخر ينبغي أن نَنظر فيه.» ثم استدار إلى الرقيب وسأله: «هل أجريتَ أيَّ تحريات عن تحركات المتهم في ليلة وقوع الجريمة؟»

أجابه الرقيب: «لقد فعلتُ، ووجدت أن المتهم ليلة وقوع الجريمة كان وحيدًا في منزله، فقد ذهبت ربة منزله إلى إيستويتش. وقد رآه رجلان في المدينة عند قرابة الساعة العاشرة، وكان فيما يبدو يسير في اتجاه ثاندرسلي.»

كانت هذه هي خاتمة شهادة الرقيب، وحين تم استجواب شاهد أو شاهدين آخرين من دون الإشارة إلى أي وقائع جديدة، قدم قاضي التحقيق موجزًا للشهادات التي تمَّ تقديمها، وطلب من هيئة المحلفين أن يُصدروا حكمهم. هنا حلَّ صمتٌ مطبق على القاعة، لم يُسمع فيه سوى همسات هيئة المحلَّفين إلى بعضهم بينما كانوا يتشاورُون فيما بينهم؛ وراحت أنظار المشاهدين تتنقل في رهبة وترقُّب بين المتهم وأفراد هيئة المحلفين المتهامسَين. ورمقتُ أنا درابر بنظرة، فكان جالسًا مُتقوقعًا في كرسيه، وكان وجهه المرتعب شاحبًا وكأنه وجهُ أحد الأموات الذين يرقدون في المشرحة، وكانت يداه تَرتجفان في حركة عصبية؛

ورغم أنني كنت أرى أنه مُحتال، فإنني لم أستطع سوى أن أُشفقَ عليه من حالة البؤس الشديد التي كانت تَجتاح جميعَ جسمه، من رأسه وحتى قدميه اللتَين لم تتوقَّفَا عن الارتعاش.

لم تستغرق هيئة المحلفين وقتًا طويلًا للنظر في حكمهم. فبعد مرور خمس دقائق، أعلن رئيس المحلفين أنهم اتفقُوا، وفي إجابة على السؤال الرسمي الذي طرحه قاضي التحقيق، وقف وقال:

«نجد أن القتيل لقيَ مصرعَه بفعل طعنة في صدره نفَّذها المتهم، ألفريد درابر.»

قال قاضي التحقيق: «هذا حكم بالقتل العمد.» ومن ثَمَّ دوَّنه في دفتره. انتهت المحاكمة، وخرج الحاضرون على مضض، ووقف أفراد هيئة المحلفين ومدَّدوا أجسادهم، ثم — وبإشارة من الرقيب — أخذ رجلا الشرطة درابر البائس وهو يكاد يُغمى إليه في عربة مغلقة كانت تنتظر بالخارج.

قلت بطريقة ماكرة بينما كنت أسير وثورندايك إلى المنزل: «لم أنبهر كثيرًا بفعالية جهة الدفاع.»

ابتسم ثورندايك وقال: «من المؤكد أنك لم تتوقَّع أنَّني سأُلقي بخلاصة معرفتي بالطب الشرعي أمام هيئة محلِّفي التحقيق في سبب الوفاة.»

أجبتُه: «إنما توقعت أن يكون لديك ما تقوله نيابة عن موكلك؛ فقد تحدث مَن يتهمونه في حقه بكل ما لديهم من تُهَم.»

سألني ثورندايك: «ولمَ لا؟ ما الذي يهمُّنا في حكم هيئة محلفي التحقيق في سبب الوفاة؟»

أجبتُه: «كان من الأفضل أن تترافَع عنه ولو قليلًا.»

ردَّ عليَّ قائلًا: «عزيزي جيرفس، يبدو أنك لا تُقدِّر قوَّة ما كان اللورد بيكنزفيلد موفقًا حين أطلق عليه «سياسة الانتظار اليقظ»؛ رغم أن ذلك هو أحد أهم الدروس التي يتلقاها الطلاب أثناء التدريب الطبي.»

قلت: «ربما هو كذلك، لكن نتائج سياستك تلك حتى الآن تُشير إلى توجيه اتِّهام القتل العمد في حق موكلك، ولا أرى أيَّ حكم آخر كانت هيئة المحلفين ستتوصَّل إليه.»

قال ثورندايك: «ولا أنا كذلك.»

كنت قد أرسلت خطابًا إلى مُديري الدكتور كوبر، أصف له فيه الأحداث المثيرة التي كانت تحدث في القرية، وتلقيتُ ردًّا منه يُوجهني فيه إلى أن أضع المنزل تحت تصرُّف

ثورندايك، وأن أُيَسِّر له كلَّ وسيلة تُمكِّنه من إنجاز عمله. وبموجب هذا الأمر استولى زميلي على عِلِّيَّة مهجورة جيدة الإنارة، وأعلن عن رغبته في نقل أشيائه إليها. والآن وبما أن تلك «الأشياء» كانت تَشتمِل على المُحتويات الغامضة للسبَت الذي رأته خادمتي، فقد كانت تتملَّكني رغبة جامِحة في أن أكون موجودًا أثناء «عملية النقل»، ولا أُمانع في الاعتراف أنني كنتُ أترصدُه على الدرج أملًا في أن أحصل على أيِّ معلومة، ولو صغيرة.

لكن ثورندايك لم يكن من السهل التغلُّب عليه. وقد كان هناك طفل رضيع غير شرعي في القرية انتابته بعضُ التشنجات والاختلاجات في غير الوقت المناسِب لذلك، فوجدت نفسي مضطرًّا — رغمًا عني — أن أُسرع إليه لإنقاذه؛ وقد عدتُ في الوقت الذي كان ثورندايك يُغلق فيه باب العلِّيَّة.

قال ثورندايك بينما كان ينزل الدرج ويضع المفتاح في جيبه: «يا له من مكانٍ لطيف وفسيح وجيد الإنارة للعمل.»

أجبتُه: «أجل.» ثم أضفتُ بعد ذلك بنبرة فيها جرأة: «ما الذي تنوي أن تفعله هناك؟»

أجابني: «سأقوم بإعداد الدفوع، وحيث إنني الآن قد سمعتُ كلَّ ما لدى هيئة الادعاء، فينبغي أن أمضيَ في ذلك قُدُمًا.»

كانت تلك إجابة مبهمة، لكنَّني واسيتُ نفسي بفكرة أنني سأعرف في غضون أيام قليلة للغاية — على غرار بقية العالم — نتائج إجراءاته وتصرفاته الغامِضة؛ ذلك أنه — وفي ضوء اقتراب انعقاد محكمة الجنايات — كان يُجري التحضير للدفع بالقضية أمام محكمة الصلح بأسرع ما يمكن من أجل الحصول على قرار بالإحالة في وقتٍ مُناسب من أجل الجلسات التالية. بالطبع كان قد تمَّ توجيه الاتهام إلى درابر بالفعل أمام قاضي صلح وتمَّ تقديم أدلة القبض عليه، وكان من المتوقَّع أن يتمَّ البدء بجلسة الاستماع المؤجَّلة أمام القضاة المحليِّين في اليوم الخامس بعد يوم جلسة التحقيق.

وقد تسبَّبت أحداثُ الأيام الخمسة هذه في إشعال نار الفضول بداخلي. في البداية، جاء مفتش من قسم التحقيقات الجنائية وفحص المكان بصحبة الرقيب. ثم بعد ذلك جاء السيد باشفيلد الذي سيمثل جهة الادِّعاء ونزل في فندق «كات آند تشيكن». لكن الزائر الذي كان الأكثر إثارة للدهشة كان مساعدَ ثورندايك في المعمل، ويُدعى بولتون، والذي جاء ذات مساء ومعه صندوق كبير وأرجوحة بحارة، وأعلن أنه سيُقيم في العلِّيَّة.

أما عن ثورندايك نفسه، فقد كانت تصرفاته شديدة الغرابة. لقد كان يظهر بصورة غامضة من وقت لآخر عند النافذة في العلِّيَّة، وعادة ما كان يرتدي ما بدا أنه قميص للنوم.

وكنتُ أراه في بعض الأحيان وهو يُمسك بنيجاتيف صور أمام الضوء، وفي بعض الأحيان الأخرى وهو يُمسك بإطار تحميض الصور؛ وذات مرة رأيتُه وفي يده فرشاة رسم وحُنجود كبير؛ حينها انصرفتُ مبتعدًا وأنا يملؤني شعورٌ باليأس، وقد كدت أصطدم بالمُفتش.

قال المفتش وهو يُحدِّق بإمعان في ظهر رفيقي الذي بدا له من النافذة: «سمعتُ أن الدكتور ثورندايك يمكث هنا معك.»

أجبتُه: «أجل. هذا هو سكنه المؤقت.»

قال المفتش: «أعتقد أنه يقوم بأعماله المثيرة للحيرة هنا، أليس كذلك؟»

صحَّحتُ له ما قال باستنكاف: «إنه يقوم بتجاربه هنا.»

قال المفتش: «هذا هو قصدي.» وفي تلك اللحظة استدار ثورندايك وفتح النافذة وعندها بدأ زائرُنا يصعد الدرج.

قال المفتش حين وصل إلى الباب: «لقد أتيتُ لكي أرى إن كنتُ أستطيع أن أتحدث معك قليلًا أيها الدكتور.»

قال ثورندايك بنبرة تنم عن المداهنة: «بكل تأكيد. إذا نزلتَ وانتظرتني مع الدكتور جيرفس، فسأكون معك في غضونِ خمس دقائق.»

هبط المفتش من على الدرج عابسًا، وأعتقد أنني سمعتُه يُغمغِمُ قائلًا: «لقد انتصر عليَّ!» لكن ربما كان ذلك توهمًا منِّي. ولكن سرعان ما ظهر ثورندايك وسار هو والمفتش بعيدًا نحو الشجيرات. لم أعلم قطُّ ما كان يُريده المفتش، أو إن كان هناك ما يريده حقًّا؛ لكن يبدو أن تلك الواقعة سلطت بعض الضوء على وجود بولتون وأرجوحة البحارة. وعلى ذكر بولتون، أذكر أن تغييرًا استثنائيًّا للغاية حدث في نحو ذلك الوقت في عادات ذلك الرجل القصير الرصين والوقود في أغلب الوقت؛ إذ تخلَّى عن نمط ثيابه المهني المعتاد نوعًا ما، وبدأ يرتدي ثيابًا تُشبه ثياب البحارة ويَنطلِق فيها كل صباح باتجاه بورت مارستون. وهناك ولأكثر من مرة، رأيته يتكئ إلى عمود بجوار الميناء، أو يتسكَّع خارج حانة قريبة من الشاطئ وينخرط في محادثات جادة وودية مع عدد من البحَّارة.

وفي عصر اليوم الذي يسبق بدء جلسات المحاكمة، جاءنا زائران آخران. أحدهما كان رجلًا أبيض الشعر يَرتدي نظارة وكان غريبًا بالنسبة لي، ولسببٍ ما لم أستطع أن أتذكر اسمه — وهو كوبلاند — رغم أنَّني واثق من أنني سمعتُه من قبل. أما الآخر فكان اسمه أنستي، وهو المحامي الذي كان عادة ما يعمل مع ثورندايك في القضايا التي تذهب إلى ساحات المحاكم العليا. لكنني لم أشهد منهما الكثير؛ لأنَّهما صعدَا إلى العلِّيَّة تقريبًا حال

وصولهما حيث مكثَا فيها طوال اليوم عدا أنهما كانَا يخرجان لفترات قصيرة من الوقت لتناول الطعام، وأعتقد أنهما مكثَا هناك لساعة متأخِّرة من الليل. وقد طلب مني ثورندايك ألَّا أذكرَ أسماء زائريه لأي شخص كان، واعتذر في نفس الوقت عن سرية ما يقوم به من إجراءات.

اختتم ثورندايك حديثه قائلًا: «إنك طبيب يا جيرفس، وتعرف ماهية الأسرار المهنيَّة؛ وستتفهم كيف هو في صالحنا كثيرًا أننا نعرف ما يُمكن أن تقوم به جهةُ الادعاء على وجه التحديد، في حين أنها تجهل تمامًا ماهية دفوعنا.»

أكدتُ له أنني أتفهم موقفه تمامًا، وحينها عاد إلى قاعة مجلسه وقد بدا عليه علامات الارتياح.

أما عن وقائع الجلسة التي بدأت في اليوم التالي والتي كنتُ حاضِرًا فيها، فليس هناك حاجة لوصفها بالتفصيل. بالطبع كان بيان جهة الادِّعاء في الأساس مجرَّد تكرار لما تمَّ تقديمه أثناء جلسة التحقيق في سبب الوفاة. لكنَّني سأُضمِّن كلمة السيد باشفيلد الافتتاحية بالتفصيل؛ ذلك أنها تلخص بصورة واضحة الاتهام المقدم ضد المتهم.

قال السيد باشفيلد: «إنَّ الدعوى المنظورة أمام المحكمة الآن تنطوي على تهمة القتل العمد في حق المتهم ألفريد درابر، والوقائع المعروفة حتى الآن هي باختصار كالآتي: في ليلة الإثنين، الموافق السابع والعشرين من سبتمبر، تناول القتيل وهو تشارلز هيرن العَشاءَ مع بعض الأصدقاء على متن اليخت المسمَّى أوتر. وبحلول منتصف الليل تقريبًا، وصل إلى الشاطئ وأخذ يسير نحو ثاندرسلي على طول الشاطئ. وحين دخل حدود خليج سانت بريدجيت، قابله رجل، يبدو أنه كان ينتظره وقد جاء من ممر شيبرد، ثم يبدو أن صراعًا مميتًا وقع بينهما. أُصيب القتيل بجرح من نوع من المعروف أنه يتسبَّب في الموت الفوري، ويبدو أن القتيل سقط صريعًا جراء ذلك.

والآن، ماذا كان الدافع وراء تلك الجريمة الشنعاء؟ إنه لم يكن السرقة، لأنه لا يبدو أن هناك شيئًا قد سُرق من القتيل. فبقدر ما هو معلوم، وُجد المال والأشياء الثمينة في مكانها. وكذلك من الواضح أن الدافع لم يكن مشاجرة عارضة بينهما. ومن ثَمَّ فإننا مدفوعون لأن نعتقد أن الدافع كان شخصيًّا، إما الحصول على منفعة أو الثأر، وفي ظل وجهة النظر هذه فإننا نجد أن ظروف الزمان والمكان والتعمُّد الواضح وراء هذه الجريمة هي كلها في حالة توافقٍ تام مع بعضها.

هذا بشأن الدافع. السؤال التالي هو: مَن الذي ارتكب تلك الجريمة المروِّعة؟ وإجابة هذا السؤال تكمن في تفصيلة فريدة ومثيرة للغاية، تفصيلة توضح مرة أخرى الافتقار الكبير

إلى الاحتياط الذي يُظهره أولئك الذين يَرتكبُون مثل هذه الجرائم. لقد كان القاتل يرتدي حذاءً مميزًا للغاية، وقد خلَّف ذلك الحذاء آثار أقدام مميزة جدًّا في الرمال الناعمة، وقد رأى تلك الآثار وفحصها ضابطٌ ذكيٌّ وفطن جدًّا — وهو الرقيب باين — والذي سنستمع إلى شهادته عما قريب. ولم يفحص الرقيب الآثار وحسب، وإنما رسمها رسمًا دقيقًا في مسرح الجريمة — وأُعيدها على مسامعكم، في مسرح الجريمة وليس من ذاكرته — كما أخذ قياساتٍ دقيقةً لها ودوَّنها في حينها. ومن تلك الرسومات والقياسات، تمَّ التعرُّفُ على ذلك الحذاء المميز، وهو هنا الآن ليخضع لفحصكم.

والآن، مَن هو مالك هذا الحذاء المميز جدًّا، والذي يكاد يكون لا نظير له؟ لقد قلت إن الدافع وراء هذه الجريمة لا بد وأنه دافع شخصي، وها هو ذا يصدف أن صاحب هذا الحذاء هو الشخص الوحيد في هذه المنطقة بأسرها الذي يُمكن أن يمتلك دافعًا لقتل المجني عليه. إن هذا الحذاء ملك للمتهم ألفريد درابر، وقد أُخِذ منه بينما كان يرتديه، وهو الشخص الوحيد الذي يعيش في هذه الأرجاء الذي على صلة بالقتيل.

لقد ثبت بشهادة الشهود أثناء جلسة التحقيق في سبب الوفاة أن علاقة الرجلين، المتهم والقتيل، ببعضهما كانت وديةً تمامًا؛ لكنني سأُثبت لكم أنها لم تكن ودية تمامًا كما هو مفترض. سأُثبت لكم، بشهادة ربة منزلِ المتَّهم، أن القتيل كان عادة ضيفًا غير مرحب به في منزله، وأن المتهم كان عادة ما ينفي وجوده في المنزل عندما كان يزوره المتهم بينما هو موجود به بالفعل، وأنه باختصار بدا وكأنه يُحاول باستمرار تجنُّب القتيل وتحاشيه.

هناك سؤال آخر وبعدها أكون قد انتهيت. أين كان المتهم ليلة وقوع الجريمة؟ الإجابة هي أنه كان في منزل يبعد عن مسرح الجريمة بأقل من نصف ميل. ومن كان معه في ذلك المنزل؟ من كان معه ليلاحظ خروجه من المنزل وعودته إليه ويشهد بذلك؟ لا أحد. كان بمفرده في المنزل. في تلك الليلة، من بين كل الليالي، كان بمفردِه. لم يكن هناك ولو شخص واحد فقط لينتبه إلى صوت الباب، أو ليسمع خطوات أقدامه، لم يكن هناك من أحد ليشهد ما إن كان المتهم قد خلَد إلى النوم أم أنه تسلل للخارج في جنح الظلام.

تلك هي وقائع هذه القضية. أعتقد أنها لا جدال عليها، وأؤكد بأن تلك الوقائع مجتمعة لا تؤدي إلا إلى تفسير واحد؛ وهو أن المتهم ألفريد درابر هو الرجل الذي قتل الضحية تشارلز هيرن.»

مباشرةً بعد اختتام هذا الخطاب، جرى استدعاء الشهود، وكانت الشهادات التي تم تقديمها مطابقة لما تمَّ تقديمه أثناء جلسة التحقيق في سبب الوفاة. وكان الشاهد الجديد

الوحيد لدى جهة الادعاء هو ربة منزل درابر، وكانت شهادتُها تؤكد تمامًا ما جاء بخطاب السيد باشفيلد. وقد تمَّ الاستماع باهتمام بالغ إلى شهادة الرقيب عن آثار الأقدام، وفي ختام شهادته، قام رئيس المحكمة — وهو محامٍ مُتقاعدٌ، كان فيما مضى مشهورًا فيما يتعلَّق بالقضايا الجنائية — بطرح سؤال أثار اهتمامي لأنه بيَّن كيف أن ثورندايك توقَّع بوضوح مسار الأحداث؛ إذ يُذكِّرني بملاحظته في تلك الليلة التي وجدنا فيها أنفسنا تحت الأمطار.

سأل رئيس المحكمة قائلًا: «هل أخذتَ الحذاء إلى الشاطئ وقارنته بآثار الأقدام الحقيقية؟»

أجاب الرقيب: «حصلتُ على الحذاء في الليل، وأخذته إلى الشاطئ عند بزوغ فجر الصباح التالي. لكن ولسوء الحظ، هبَّت عاصفة أثناء الليل، وقد طُمست آثار الأقدام كلها تقريبًا بفعل الرياح والأمطار.»

وحين تنحَّى الرقيب، أعلن السيد باشفيلد أنَّ تلك كانت نهاية مرافعة جهة الادعاء. ثم عاد إلى كرسيه، ورمق أنستي وثورندايك بنظرة فضولية.

وقف الأول في الحال وافتتح مرافعة الدفاع ببيان مختصر.

قال أنستي: «لقد أخبرَنا محامي جهة الادعاء المطَّلع أن الوقائع التي بين يدي المحكمة الآن لا تؤدِّي إلا إلى تفسير واحد — وهو أن المتهم مذنب. ربما كان ذلك حقيقيًّا وربما كان عكس ذلك؛ لكنني سأشرع الآن في سرد بعض الوقائع الجديدة أمام المحكمة — وهي وقائع يمكنني القول إنها غريبة ومدهشة بشدة، وأعتقد أنها ستؤدي إلى استنتاج مختلف تمامًا. لن أقول المزيد، لكن استدعوا الشهود، ودعوا الشاهدة تتحدَّث عن نفسها.»

كان الشاهد الأول من جانب جهة الدفاع هو ثورندايك؛ وبينما كان يدخل إلى منصة الشهود، لاحظتُ أن بولتون كان يجلس في مكان قريب منه من خلفه ومعه صندوق كبير من الخوص. وبعد أن أقسم ثورندايك وبعد أن طلب منه أنستي أن يسرد أمام المحكمة ما يعرفه عن القضية، بدأ حديثه من دون مقدمة فقال:

«عند حوالي الرابعة والنصف من بعد ظهر يوم الثامن والعشرين من سبتمبر، مررتُ من فجوة ثاندرسلي مع الدكتور جيرفس. جذب انتباهَنا بعضُ الآثار الموجودة على الرمال، خاصة تلك التي تعود لرجل نزل عن قارب، وصعد باتجاه الفجوة، وعاد بعدها إلى القارب على ما يبدو.

وبينما كنا واقفين هناك، مرَّ الرقيب باين والدكتور باروز عبر الفجوة مع اثنين من رجال الشرطة اللذَين يحملان نقالة. تبعناهم لمسافة كبيرة، وبينما كنَّا نسير على طول

الشاطئ صادفنا آثار أقدام أخرى، وهي تلك التي قال الرقيب بأنها تعود إلى الضحية. تفحَّصنا تلك الآثار باهتمام، وحاولنا أن نصل إلى وصفٍ للشخص صاحب تلك الآثار.»

سأل رئيس المحكمة: «وهل تَوافقَ وصفكم مع صفات الضحية؟»

أجاب ثورندايك: «مطلقًا.» حينها ضحك رئيس المحكمة والمفتش والسيد باشفيلد ضحكًا شديدًا وطويلًا.

«وحين عدنا إلى خليج سانت بريدجيت، رأيتُ جثة الضحية ممدَّدة على الرمال بجوار المنحدر. كانت الرمال حولها تحمل الكثيرَ من آثار الأقدام، كما لو أن صراعًا طويلًا وعنيفًا قد نشب. كانت هناك مجموعتان من آثار الأقدام، كانت إحداهما تعود على ما يبدو إلى الضحية، والأخرى إلى رجل يرتدي حذاءً مسمَّرًا بنمط غريب وبارز للغاية. تسببت الفكرة الخطأ التي نجمت عن ارتداء مثل هذا الحذاء في أنني تفحَّصتُ بإمعان أكثرَ آثار الأقدام، واكتشفتُ اكتشافًا مدهشًا؛ وهو أن أيَّ صراع لم يحدث في الواقع؛ وإنما كانت مجموعتَا آثار الأقدام تلك قد صُنعتَا في وقت مختلف.»

صاح رئيس المحكمة في ذهول: «في وقتٍ مختلف!»

«أجل. إن الفترة الزمنية بينهما قد تكون ساعاتٍ أو ثوانيَ، لكن الحقيقة التي لا تقبل الشك هي أن مجموعتَي الآثار قد صُنعتَا تباعًا وليس في الوقت نفسه.»

سأله رئيس المحكمة: «ولكن كيف توصلتَ إلى تلك الحقيقة؟»

قال ثورندايك: «كان ذلك في غاية الوضوح حين نظرتُ إلى الآثار. كانت آثار الضحية توضح أنه كان يخطو على آثاره هو بصورة مُتكرِّرة؛ لكنه لم يخطُ ولو لمرة واحدة على آثار أقدام الرجل الآخر، رغم أنهما كانَا يغطيان المساحة نفسها. وعلى الجانب الآخر، لم يخطُ الرجل ذو الحذاء المسمَّر على آثاره وحسب، وإنَّما أيضًا كان يخطو على آثار الضحية في تواتُر مُتماثل. وعلاوة على ذلك، حين أُزيلت الجثة، لاحظتُ أن آثار الأقدام على الرمال التي كانت ممددةً عليها تعود للضحية فقط وبصورة حصرية. لم يكن هناك أيُّ آثار لحذاء مسمَّر تحت الجثة، رغم أنه كان هناك الكثير منها حولها. لذا كان من الواضح تمامًا أن آثار أقدام الضحية كانت قد صُنعت أولًا، وأن آثار الحذاء المسمَّر صُنعت بعدها.»

وحين توقف ثورندايك عن الحديث، حكَّ رئيس المحكمة أنفه بينما كان يفكر، وحدَّق المفتِّش بالشاهد في عبوس وحيرة.

أكمل صديقي حديثه قائلًا: «إنَّ غرابة هذه الحقيقة جعلتْني أنظر إلى آثار الأقدام بعين ناقدة أكثر، وحينها اكتشفتُ اكتشافًا آخر. كان هناك مساران لآثار الحذاء المسمَّر، والتي كانت على ما يبدو تتردَّد جيئة وذهابًا إلى ممرٍّ شيبرد. لكن وبفحصِ تلك الآثار بإمعان

أكثر، ذُهلت حين وجدت أن الرجل صاحبها كان يسير بظهره؛ أي إنه في الواقع كان يسير بظهره من الجثة إلى ممرِّ شيبرد، وأنه صعد على الممر لمسافة قصيرة، واستدار وعاد وهو لا يزال يسير بظهره، وذلك حتى وصل إلى قاع المنحدَر بجوار الجثَّة، وهناك اختفَت الآثار تمامًا. وفي تلك البقعة على الرمال، كانت هناك علامات صغيرة غير واضحة والتي يُمكن أن يكون سببها هو طرف حبل، وكان هناك أيضًا فتات صغير وقليل لصُخور كانت قد وقعت من أعلى المنحدَر. وبملاحظة تلك الفتات، تفحَّصتُ سطح المنحدَر، وفي إحدى بقاعه، فوق الشاطئ بمقدار ستِّ أقدام، وجدتُ بقعة محكوكة حديثًا وكان عليها آثارُ خدوش مُماثِلة لتلك التي يُمكن أن يتسبَّب بها حذاء مُسمَّر. ثم صعدتُ على ممر شيبرد، وتفحصتُ المنحدر من الأعلى، وهناك وجدتُ على حافته فجوةً عميقة إلى حدٍّ ما، كالتي يمكن أن يتسبَّب بها حبلٌ مشدود، وحين تمدَّدتُ على الأرض ونظرت من موضعي، وعلى مسافة خمس أقدام من أعلى المنحدَر، كان باستطاعتي رؤية بقعة محكوكة أخرى بها خدوش بارزة ومماثلة للأولى.»

قال رئيس المحكمة: «يبدو أنك ترى أن هذا الرجل قام بهذه التحرُّكات المدهشة ثم سُحب إلى أعلى المنحدَر؟»

أجابه ثورندايك: «هذا ما يُوحي به الأمر.»

ضمَّ رئيس المحكمة شفتيه إلى بعضهما، وارتفع حاجباه، ونظر بارتيابٍ إلى القضاة الآخرين. ثمَّ انحنى جهة الشاهد في شيء من الاستِسلام ليُشيرَ إلى الشاهد بأنه يسمعه.

أكمل ثورندايك حديثه قائلًا: «في تلك الليلة نفسها، ركبتُ دراجتي وذهبت إلى الشاطئ، ونزلت من جهة الفجوة، وكان معي جصٌّ، وشرعت أصنع قوالب من الجص لأهمِّ آثار الأقدام.» (هنا اعتدل كلٌّ من المفتِّش والسيد باشفيلد والقضاة في جلستهم في وقت واحد؛ بينما أطلق الرقيب باين لعنةً تكاد تكون مسموعة؛ أما أنا وبخصوص السبَت وملعقة المطبخ التي كنتُ متحيرًا بشأنهما كثيرًا فقد أدركتُ فجأة ما كان يفعله ثورندايك بهما.) ثم أضاف: «وحيث فكَّرتُ أن ذلك الجصَّ السائل قد يُخرِّب أو حتى يَطمس الآثارَ الموجودة على الرمال، فقمتُ بملء آثار الأقدام المرادة بالجصِّ الجاف، وضغطتُ عليه ضغطًا خفيفًا، ثم صببتُ الماء عليه بحذر. وهذه القوالب — التي تُمثِّل بصمة مُمتازة للآثار — تُظهر بالتأكيد شكل الحذاء الذي تسبَّب بالآثار، ومن تلك القوالب قمتُ بإعداد صبات تعيد إنتاج الآثار نفسها.

وكان أول القوالب التي صنعتُها لآثار المسار الذي يقود من القارب إلى الفجوة، وسأتطرق إلى هذا القالب عما قريب. ثم صنعتُ قالبًا لأحد آثار الأقدام التي قيل عنها إنها خاصة بالضحية.»

صاح رئيس المحكمة: «قيل عنها! من المؤكد أن الضحية كان هناك، ولم يكن هناك آثارُ أقدام أخرى؛ لذا، إذا لم تكن تلك الآثار تعود له، فلا بد وأنه طار إلى حيث وُجِد.»

أجابه ثورندايك بثبات: «سأقول إنها آثار أقدام الضحية. لقد صنعتُ قالبًا لأحد تلك الآثار، ولأحد آثار أقدامي. هذا هو القالب وهذه هي الصبَّة منه.» (ثم استدار وأخذهما من بولتون المبتهج، والذي كان قد رفعهما مسبقًا برفق من الصندوق.) «وبالنظر إلى الصبَّة، يُمكن أن يُرى أنها ليسَت كالمتوقَّع. كان طول الضحية خمس أقدام وتسع بوصات، لكنه كان نَحيلًا للغاية وخفيفَ الوزن، فكان وزنه يَبلغ حوالي ستين كيلوجرامًا، وقد تحققتُ من ذلك من قبلُ بأن وزنتُ الجثة، في حين أن طولي خمس أقدام وإحدى عشرة بوصة، وأزنُ اثنين وثمانين كيلوجرامًا تقريبًا. لكنَّ عمق آثار أقدام الضحية تكاد تكون ضعفَي عمق آثار أقدامي؛ أي إنَّ الرجل الأخف وزنًا غاص في الرمال تقريبًا ضعف ما غاص الرجل ثقيل الوزن.»

كان القضاة في تلك اللحظة مُنتبهين انتباهًا شديدًا. لم يعودُوا مجردَ مُستمِعِين باستخفاف لحديث خبير عِلمي. كانت صبَّةُ أثرَي القدمَين الموجودين جنبًا إلى جنب موضوعة أمامهم؛ وكان الدليل يسترعي انتباههم وكان مقنعًا إلى حدٍّ كبير.

قال رئيس المحكمة: «هذا أمر غريب، لكن أيُمكنك أن تشرح لنا وجه التعارض؟»

أجاب ثورندايك: «أعتقد أنني يُمكنني ذلك، لكنَّني أُفضِّل أن أضع كافة الحقائق أمامكم أولًا.»

وافقه رئيس المحكمة قائلًا: «لا شك أن ذلك سيكون أفضل. أرجوك تفضَّل.»

أكمل ثورندايك حديثه قائلًا: «كان هناك أمر غريب آخر بشأن آثار الأقدام تلك، وهو المسافة بينهما، أو طول الخطوة في واقع الأمر. لقد أخذتُ قياس طول الخطوات بدقة من الكعب إلى الكعب، ووجدتُ أنها تبلغ فقط تسع عشرة بوصة ونصف البوصة. لكنَّ رجلًا في طول هيرن كان سيخطو خطوة عادية تبلغ نحو ستٍّ وثلاثين بوصة، وستبلغ أكثر من ذلك إذا كان يسير مسرعًا. لذا فإن السير بطول خطوة يَبلغ تسع عشرة بوصة ونصف البوصة يوحي بأنه كان يسير وقدماه مربوطتان إلى بعضهما.

ثم ذهبتُ بعد ذلك إلى الخليج، وصنعتُ قالبَين من خطوات أقدام الرجل الذي كان يرتدي الحذاء المسمَّر، قالبًا للقدم اليمنى والآخر لليُسرى. وإليكم صبَّتَين من القالب، وهما توضحان بشكل تام أن الرجل كان يسير بظهره.»

سأله رئيس المحكمة: «كيف توضحان ذلك؟»

«هناك نقاط مُميزة كثيرة. على سبيل المثال، غياب «الرفسة» المعتادة عند منطقة الأصابع، والسحبة البسيطة خلف منطقة الكعب واللذين يُوضِّحان الاتجاه الذي تسلكه القدم، وكذلك البصمة المستوية عند منطقة باطن القدم.»

«لقد تحدثتُ عن قوالب وصبات، فما الفرق بينهما؟»

«القالب هو بصمة صريحة ومن ثَم فهيَ مقلوبة. أما الصبة فهي بصمة القالب، ومن ثَم فهي صورة طبق الأصل من الشيء. إنني إذا ما قمتُ بصبِّ الجص السائل على عملة معدنية، فحين يجفُّ الجص، سيصبح لديَّ قالبٌ أو بصمة منقوشة للعُملة المعدنية. وإذا ما صببتُ الشمع المنصهر على القالب، فسأَحصُل على صبَّة أو صورة طبق الأصل من العملة. إن آثار القدم هي قالب من القدم، والقالب المصنوع من آثر القدم هو صبَّة القدم، وصبَّة القالب تستنسخ أثرَ القدم.»

قال رئيس المحكمة: «شكرًا لك. إذن فقالبَا أثرَي القدمَين هذَين هما في الواقع صورتان طبق الأصل لحذاء القاتل، ويُمكن مقارنتهما بذلك الحذاء الذي تمَّ تقديمه كدليل؟»

«أجل، وحين نقارن بينهما تتضح لنا حقيقة غاية في الأهمية.»

«وما هي؟»

«إن حذاء المتَّهم لم يكن هو الحذاء الذي تسبَّب في تلك الآثار.» سرَى نوعٌ من الذهول بين أرجاء القاعة، لكن ثورندايك أكمل حديثه في لامبالاة: «لم يكن حذاء السجين في حوذتي؛ لذا فقد ذهبتُ إلى بِركة باركر، إلى تلك الأرض الموحلة التي رأيتُ عليها آثار الأقدام التي تسبَّب بها المتهم. صنعتُ قوالب لتلك الآثار، وقارنتُها بقوالب الآثار التي أخذتُها من الرمال. هناك عدة اختلافات ذات أهمية، وسترونها إذا ما قُمتم بالمقارنة بينها بأنفسكم. ولكي أسهل المقارنة عليكم، قمتُ بتصوير مجموعتَي القوالب صورًا شفافة بنفس المقياس. والآن، إننا إذا ما وضعنا صورة قالب أثر قدم المتَّهم اليُمنى على الصورة المقابلة لها لأثر قدم القاتل، ورفعنا الصورتين المتراكبتَين في مقابل الضوء، فلن نتمكَّن من جعلهما تتطابقان. إن الاثنتين تتطابقان تقريبًا من حيث طولُ كلٍّ منهما، لكنَّ شكلَ كلٍّ منهما يختلف عن الآخر. وعلاوة على ذلك، إننا إذا ما وضعنا أحد المسامير في صورة منهما على مقابله في الصورة الأخرى، فلن نتمكَّن من جعل بقية المسامير تَتطابق على بعضها. لكن الحقيقة الفاصلة بعد كل ذلك — والتي لن نجد منها مفرًّا — هي أن عدد المسامير في كلا الحذاءَين مختلف. هناك أربعون مسمارًا في نعل فردة الحذاء اليمنى للمُتهم؛ أما في نعل حذاء القاتل فهناك واحد وأربعون مسمارًا؛ أي إنَّ هناك مسمارًا واحدًا زائدًا.»

ساد صمتٌ مطبق في أرجاء المحكمة فيما انصبَّ القضاة والسيد باشفيلد على القوالب وحذاء المتهم، وفحصوا الصور في مقابل الضوء. ثمَّ سأل رئيس المحكمة: «هل هذه هي الحقائق كلُّها، أم هناك المزيد؟» لا شك أنه كان يتُوق للوُصول لمفتاح هذا اللغز.

قال أنستي: «هناك المزيد من الأدلة سعادة القاضي. لقد فحص الشاهدُ جثَّة الضحية.» ثم استدار نحو ثورندايك وسأله:

«أكنتَ حاضرًا أثناء تشريح الجثة؟»

«أجل.»

«هل كوَّنتَ رأيًا عن سبب الوفاة؟»

«أجل. لقد وصلتُ إلى استنتاج مفادُه أنَّ سبب الوفاة هو جرعة زائدة من المورفين.»

قوبلت تلك الجملة بتأوُّهٍ كبير ينمُّ عن الدهشة. عارض رئيس المحكمة ذلك وقال لاهثًا:

«لكن كان هناك جرح، وقد قيل إنه كفيل بالتسبُّب في وفاة فورية. ألم تكن تلك هي الحال؟»

أجاب ثورندايك: «لا شكَّ في وجود ذلك الجرح. لكن حين أصيب الضحية به كان قد مات بالفعل قبلُ من ربع ساعة إلى نصف ساعة.»

صاح رئيس المحكمة مُتعجبًا: «هذا أمر لا يُصدَّق! لكن، لا شك، أنك تستطيع أن تذكر الأسباب التي دعتْك للوصول إلى ذلك الاستِنتاج، أليس كذلك؟»

قال ثورندايك: «كان رأيي مَبنيًّا على عدة حقائق. في المقام الأول، حين يُصاب جسد الإنسان الحي بجرح فإنه يَنشق شقًّا واسعًا، والسبب في ذلك انفتاح الجلد الحي. أما الجلد في جسد الإنسان الميِّت فإنه لا يَنفتح، ومن ثَم فإن الجرح لا يَنشق. بالنسبة لهذا الجرح فقد انشقَّ الجلد عنه شقًّا بسيطًا للغاية، مما يُوضِّح أن القتيل كان حديثَ الوفاة، والتي يُمكنني القول إنها كانت قبل نصف ساعة من الإصابة به. ثم إنَّ الجرح في الجسد الحي يَمتلئ بالدماء، ثم يُراق الدم على الملابس. لكن الجرح في جسد الضحية كان يَحتوي على تجلُّطٍ دموي صغير. وبالكاد كان هناك دماء على ملابسه، وقد لاحظتُ مسبقًا أنه لم يكن هناك أيُّ أثر للدماء على الرمال حيث كانت ترقُد الجثة.»

سأله رئيس المحكمة بارتياب: «وهل ترى أن هذه حقيقة فاصلة؟»

أجاب ثورندايك: «أجل، أرى ذلك. لكنَّ هناك دليلًا آخر لا يُمكن أن يكون محلَّ شك. كان السلاح الذي أحدث الجرح قد تسبَّب في فصل الشريان الأورطي جزئيًّا عن الشريان الرئوي، وهما الشريانان الرئيسيان في الجسم. وحين يكون المرء على قيد الحياة، يكون

هذان الشريانان الرئيسيان مليئَين بالدماء بضغط داخلي كبير، لكن بعد الوفاة يكونان فارغَين من الدماء تقريبًا. ويستتبع ذلك أنه إذا ما أصيب الضحية بالجرح وهو على قيد الحياة، فإنَّ التجويف الذي يوجد به هذان الشريانان كان سيَمتلئ بالدم. وفي واقع الأمر، فإن ذلك التجويف لم يكن به أيُّ دماء، فقط ترشيح بسيط من بعض الأوردة الصغيرة؛ لذا فمن المؤكَّد أن الجرح جاء بعد الوفاة. وقد تحققتُ من وجود السم وطبيعته وذلك عن طريق تحليل إفرازات معينة للجسم، وقد مكَّنني التحليل من القطع بأن كمية السمِّ كانت كبيرة؛ لكن تمَّ إرسال محتويات المعدة إلى البروفيسور كوبلاند من أجل إجراء فحص أكثر دقة.»

سأل رئيس المحكمة أنستي: «وماذا عن نتيجة تحليل البروفيسور كوبلاند؟»

أجاب أنستي: «البروفيسور موجود هنا سعادة القاضي، وهو على استعداد ليُقسم بأنه استخرج مقدارًا ضئيلًا من المورفين من محتويات المعدة؛ ورغم أن تلك الجرعة التي استخرجها تُعدُّ في حد ذاتها مميتة، فإنها ما هي إلا البقايا غير المتصَّة لما تمَّ ابتلاعه في الواقع، ولا بد أن حجم الجرعة التي تناولها كانت كبيرةً للغاية.»

قال رئيس المحكمة: «شكرًا لك. والآن أيها الدكتور ثورندايك، إذا كنتَ قد ذكرتَ لنا كافة الحقائق، فلعلك ستُخبرنا بما توصلتَ إليه من استنتاجات بشأنها.»

قال ثورندايك: «الحقائق التي عرضتُها يبدو أنها تُشير إلى التسلسل التالي للأحداث. تُوفي الضحية تقريبًا بحلول منتصَف ليل السابع والعشرين من شهر سبتمبر، بأثر جرعة سامة من المورفين، ولا أعرف كيف أخذها ولا مَن أعطاه إياها. وأعتقد أن جثته جاءت في قارب إلى فجوة ثاندرسلي. كان القارب يَحتوي على ثلاثة رجال على الأرجح، ظلَّ واحد منهم بالقارب، بينما سار الثاني وصعد إلى الفجوة وعلى طول المنحدَر باتجاه خليج سانت بريدجيت، وأما الثالث فقد ارتدى حذاء الضحية، وحمل الجثة وسار بها على طول الشاطئ باتجاه الخليج. ومن شأن هذا أن يفسر العمق الكبير والخطوة القصيرة لآثار أقدام ما قيل إنها آثار أقدام الضحية. وبعد أن وصَل الرجل الثالث إلى الخليج، أعتقد أنه وضع الجثَّة على الآثار التي صنعها بنفسه، ثم دهَس الرمال بجوار الجثَّة. ثمَّ بعد ذلك خلع حذاء الضحية ووضعه على الجثة، ثم ارتدى حذاء كان يحمله — وربما كان معلَّقًا حول رقبته — وكان الحذاء مسمَّرًا بحيث يُحاكي حذاء درابر. ثم دهَس الرجل الرمال بالقرب من الجثَّة مرة أخرى وهو يَرتدي هذا الحذاء. ثمَّ سار الرجل بظهره حتى ممرِّ شيبرد، ومنه سار بظهره أيضًا حتى وصَل إلى سفح المنحدَر. هناك كان رفيقه قد ألقى له حبلًا، فتسلق المنحدر إلى

قمته باستخدامه. وبالأعلى خلع الحذاء المسمَّر، وسار الرجلان عائدَين إلى الفجوة، حيث قام الرجل الذي ألقى بالحبل بحمل صديقه على ظهرِه، ونزل به باتجاه القارب ليتجنَّب أن يُخلِّف الأخير آثار جواربِه على الرمال. فقد كانت الآثار التي رأيتُها عند الفجوة تُشير بكل تأكيد إلى أن الرجل كان يَحمل شيئًا ثقيلًا للغاية حين عاد إلى القارب.»

سأل رئيس المحكمة: «ولكن لماذا يتسلَّق الرجل المنحدِر باستخدام الحبل، في حين أنه كان بإمكانه أن يَصعد على ممرِّ شيبرد؟»

أجابه ثورندايك: «لأن حينها ستكون هناك مجموعة من الآثار التي تؤدي إلى خارج الخليج من دون وجود مجموعة مماثلة من الآثار تؤدي إلى داخله؛ ومن شأن هذا أن يُوحي في الحال إلى ضابط شرطة ذكي فَطِن — كالرقيب باين — بأن هناك مَن نزل عن قارب.»

قال رئيس المحكمة: «تفسيرك في غاية البراعة، ويبدو أنه يُغطِّي كلَّ الحقائق اللافتة للنظر. هل لديك المزيد لتُخبرنا به؟»

كانت الإجابة: «لا يا سعادة القاضي، عدا …» (وهنا أخذ من بولتون آخرَ زوج من القوالب ومرَّره إلى رئيس المحكمة) واستأنف حديثه قائلًا: «إنك قد تجد هذَين القالبَين ذَوي أهمية عما قريب.»

وبينما كان ثورندايك يخرج من منصَّة الشهود — حيث لم يكن هناك استجوابٌ له من جهة الادعاء — دقَّق القضاة في القالبَين بشيء من الحيرة؛ لكنهم كانوا مُتحفظين جدًّا لدرجة أنهم لم يُبدُوا أيَّ ملاحظة.

وحين أُخذت شهادة البروفيسور كوبلاند (والتي أوضحت أن الضحية ابتلع جرعة قاتلة من المورفين بلا أدنى شك)، نادى الحاجب على اسم غير مألوف لي وهو جيكوب جامر. هنا نهض فتًى يرتدي معطفًا بُنِّيًّا فضفاضًا للغاية، ومن فتحة المعطف العلوية برزت رأسه وكتفاه، وصعد إلى منصة الشهود.

قال جيكوب في البداية إنه يعمل مساعد ربَّان، وإنه عُيِّن من قِبَل رئيسه لدى السيد جيزارد ليكون عاملًا وخادمًا على متن اليخت أوتر.

قال أنستي: «والآن يا جامر، هل تتذكَّر إن كنتَ قد رأيتَ المتَّهم على متنِ اليخت؟»

«أجل، لقد ركب اليخت مرتين. المرة الأولى كانت قبل شهر تقريبًا. لقد جاء في صحبتنا للإبحار حينَها. والمرة الثانية كانت ليلةَ مقتل السيد هيرن.»

«هل تتذكر نوع الحذاء الذي كان يَرتديه في المرة الأولى؟»

«أجل. كان حذاءً به الكثير من المسامير في نعلَيه. وأتذكَّره لأن السيد جيزارد جعله يخلعه ويرتدي حذاءً آخر من القنب.»

«ما الذي صُنع بالحذاء المسمَّر؟»

«أخذه السيد جيزارد إلى الكابينة بالأسفل.»

«وهل صعد السيد جيزارد إلى السطح بعدها مُباشَرة؟»

«لا، لقد ظلَّ في الكابينة بالأسفل لحوالي عشر دقائق.»

«هل تتذكر طردًا تم توصيلُه لمتن اليخت من أحد صُناع الأحذية في لندن؟»

«أجل، أحضره ساعي البريد بعد أن كان السيد درابر على متن اليخت بأربعة أو خمسة أيام. كان مكتوبًا عليه «ووكر براذرز لصناعة الأحذية، لندن.» وقد أخرج السيد جيزارد حذاءً من الطرد، لأنني رأيتُ ذلك الحذاء في الخزانة الموجودة بالكابينة في اليوم نفسه.»

«أرأيتَه وهو يَرتديه من قبل؟»

«لا، لم أرَ ذلك الحذاء مرة أخرى.»

«هل سمعتَ من قبل أصوات طَرقٍ على اليخت؟»

«أجل، في الليلة التالية لوصول الطرد، كنت على الرصيف بجوار اليخت وسمعت شخصًا يطرق شيئًا في الكابينة.»

«كيف كان صوت الطرق؟»

«بدا كصوت إسكافي يطرق على المسامير.»

«هل رأيتَ من قبل حذاءً مسمَّرًا على متن اليخت؟»

«أجل، حين كنتُ أُنظِّف الكابينة في الصباح التالي، وجدتُ حذاءً مسمَّرًا على الأرض في زاوية بجوار الخزانة.»

«هل كنتَ على متن اليخت ليلة وفاة السيد هيرن؟»

«أجل، كنت على الشاطئ، لكنَّني صعدتُ على متن اليخت بحلول الساعة التاسعة والنصف.»

«هل رأيتَ السيد هيرن يذهب إلى الشاطئ؟»

«رأيتُه وهو يُغادِر اليخت. كنت قد ذهبتُ إلى مهجعي وخلدت إلى النوم حين نادى عليَّ السيد جيزارد وقال: «سنوصل السيد هيرن إلى الشاطئ، ثم سنذهب للصيد لمدة ساعة. ليس هناك حاجة لأن تظل مستيقظًا.» وبتلك الكلمات، أغلق الكوَّة. بعدها قمتُ وفتحت الكوَّة وأخرجت رأسي منها، ورأيت السيد جيزارد والسيد ليتش يُساعِدان السيد هيرن على سطح اليخت. بدا وكأن السيد هيرن كان ثملًا. أدخلاه إلى القارب — وهذا أمر نادرُ

الحُدوث — أما السيد بيتفورد الذي كان على متن القارب بالفعل فقد بدأ بالتجديف. ثم أدخلتُ رأسي داخل الكوَّة مرة أخرى؛ لأنَّني لم أُردْ لهم أن يَروني.»

«وهل جدَّفوا باتجاه الدرج؟»

«لا، لقد أخرجتُ رأسي مرة أخرى حين كانوا قد ذهبوا، وسمعتهم وهم يُجدفون حول اليخت، ثم توجهوا نحو مدخل الميناء. لم أستطع أن أرَ القارب؛ لأنَّ الليل كان حالكَ الظلمة.»

«جيد جدًّا. والآن سأسألك عن أمر آخر. أتَعرف أيَّ شخص يَحمل اسم بولتون؟»

أجاب جامر وقد احمرَّ وجهُه: «أجل، لقد اكتشفتُ اسمه الحقيقي قبل قليل. اعتقدتُ أنه يُدعى سيمونز.»

قال أنستي وهو يَبتسم ابتسامة ماكرة: «أخبرْنا بما تعرفُه عنه.»

قال الفتى وهو ينظر في تجهُّم شديد إلى وجه بولتون الهادئ والمبتسم: «في الواقع، لقد أتى إلى اليخت ذات يوم حين كان السادة قد ذهبوا إلى الشاطئ. أعتقد أنه رآهم وهم يُغادرُون. وقد عرض عليَّ عشرة شلنات لأسمح له بأن يُلقيَ نظرةً على كل الأحذية التي لدينا على اليخت. لم أرَ في ذلك ضيرًا؛ لذا أحضرت له مجموعة الأحذية كلها التي في الكابينة لينظر فيها. وبينما كان ينظر إليها، طلب مني أن أُحضرَ له زوجًا من أحذيتي من مكان إقامتي باليخت، لذا ذهبتُ وأحضرتُه له. وحين عدتُ كان يُعيد الأحذية إلى الخزانة. وبعد برهة غادر اليخت، وحين فعل ألقيتُ نظرة على الأحذية ووجدتُ أن زوجًا كان مفقودًا. كان الحذاء هو حذاءً قديمًا للسيد جيزارد، ولكنَّني لا أعرف ما الذي حملَه على أخذِه.»

«أتستطيع أن تتعرَّف على ذلك الحذاء لو رأيتَه!»

أجاب الفتى: «أجل، أعتقد أنني أستطيع ذلك.»

«هل هذا هو الحذاء؟» أعطى أنستي الفتى حذاءً مهلهًا من القنب، فأمسك الفتى بالحذاء في لهفة.

ثمَّ صاح قائلًا: «أجل، هذا هو الحذاء الذي سرقه!»

أخذ أنستي الحذاء من يدِ الصبي الذي تردَّد في إعطائه إياه، ومرَّره إلى مكتب رئيس المحكمة وقال: «في رأيي سعادة القاضي أنك إذا ما قارنتَ هذا الحذاء بآخِرِ قالبَين من الآثار، فلن يكون لديك أدنى شك أن هذا الحذاء هو ما صنع آثارَ الأقدام من البحر وحتى فجوة ثاندرسلي ومنها إلى البحر مرةً أخرى.»

قارن القضاة الحذاء بالقالبَين وسطَ صمتٍ مُطبق في القاعة. وبعد برهة وضع رئيس المحكمة الحذاء والقالبين على المكتب.

وقال: «من المستحيل أن يكون هناك شكٌّ في ذلك. فالكعب المكسور والقطع في النعل المطاطي، مع بقايا النمط المضلع، تجعل من التماثُل بينهما أكيدًا.»

وبينما كان رئيس المحكمة يُدلي بهذا التصريح، وجدتُ نفسي لا إراديًّا أنظر إلى المكان حيث كان جيزارد جالسًا. لكنه لم يكن في مكانه؛ لا هو ولا بيتفورد ولا ليتش. كانوا قد تسلَّلوا عبر الباب في هدوء مُستغلِّين حالة الانشغال الكامل في قاعة المحكمة. لكنَّني لم أكن الشخص الوحيد الذي لاحَظَ غيابَهم. كان المفتش والرقيب يتحدَّثان أحدهما إلى الآخر بصورة جدية، وفي لحظة كانَا قد غادرَا أيضًا مسرعين.

في تلك اللحظة، كانت إجراءات المقاضاة قد وصلت إلى نهايتها. وبعد نقاش سريع مع القضاة المساعدين، خاطَبَ رئيس المحكمة الحضور قائلًا:

«إنَّ الأدلة المهمَّة، والمذهلة إن جاز التعبير، والتي استمعنا إليها في هذه المحكمة اليوم، وإن لم تكن قد ألقَت بأصابع الاتهام على فردٍ بعينِه، فإنها وعلى أيِّ حالٍ قد أوضحت كما وصلتْ إليه قناعتُنا أن المتَّهم ليس مذنبًا وأنه سيُخلى سبيله بناءً على ذلك. سيد درابر، يسعدني كثيرًا أن أُعلِمك أنك تستطيع أن تغادر المحكمة وأنك بريء تمامًا من كل الشبهات؛ وأهنئك من كل قلبي على مهارة محاميِّيك وبراعتِهما، وأخشى أن لولاهما لكانت قرارات المحكمة مختلفة تمامًا.»

في مساء ذلك اليوم، اجتمع المحاميان والشهود والعميل المبتهج والممتن حول طاولة بهيجة حقًّا ليتناولوا العشاء، ويَتناقشوا حول ما مرُّوا به من أحداث يومها. لكننا لم نكد نُنهي نصف طعامنا حين اندفع الرقيب باين لاهثًا عبر الغرفة، رغم سخط الخدم.

صاح الرقيب باين وهو يتحدث إلى ثورندايك: «لقد ذهبوا يا سيدي! لقد هربوا منا إلى الأبد.»

قال ثورندايك: «ماذا؟ كيف حدث ذلك؟»

«لقد ماتوا يا سيدي! مات ثلاثتُهم!»

صحنا جميعًا في تعجب: «ماتوا!»

«أجل، لقد انطلقوا نحو اليخت حين غادرُوا المحكمة، وصعدوا على متنه وانطلقوا إلى البحر من فورهم، لا شك أنهم كانوا يأمُلُون أن يتمكنوا من الفرار بينما كان ضوء النهار يخفت. لكنهم كانوا في عجلة من أمرهم بحيث لم يُلاحظوا سفينة صيد بخارية كانت تدخل المرفأ، وكان الرصيف يُخبِّئُها. وعند مدخل المرفأ تمامًا، وبينما كان اليخت يَخرج منه، اصطدمت به السفينة في منتصفه، فانقسم اليخت إلى نصفين. وفي لحظة كان الرجال

الثلاثة في الماء، وجرَفَهم التيار العكسي خلفَ الرصيف الشمالي؛ وقبل أن يتمكَّن أيٌّ قارب من الوصول إليهم لإنقاذهم، كانوا قد غرقوا جميعًا. وقد ظهرت جثة جيزارد عند الشاطئ في الوقت الذي كنتُ أُغادرُه فيه.»

كنا جميعًا صامِتِين ومذهولين إلى حدٍّ ما، لكن إن كان هناك أحدٌ يشعر بالأسى تجاه تلك المأساة، فذلك بسبب فكرة أنَّ الهروب يَنبغي أن يكون أسهلَ كثيرًا لدى مثل أولئك الأشرار الوحشيِّين؛ لكن تلك الأخبار كانت تُثلج صدرَ واحد منا على الأقل.

الفصل الثاني

# مفتاح الغريب

إنَّ التضارب في الطبيعة البشرية لهو موضوعٌ شغَل كثيرًا صنَّاعَ الأمثال الشعبية وفلاسفة الأخلاق الذين جعلوا كلَّ همِّهم استكشافَ وتفسيرَ كلِّ ما هو واضح بشكلٍ صارخ، وقد كان هؤلاء معنيِّين خصوصًا بالتعرف على ذلك الشكل من العناد المتعمَّد والذي يُولِّد النفورَ من الأشياء المفروضة، ويُثير الرغبة تجاه تلك الأشياء نفسها بمجرد أن يصبح الحصول عليها من الصعوبة أو الاستحالة بمكان. ويُؤكد لنا هؤلاء أن المرء حين يكون في متناوله شيءٌ ما ويتركه، سيجد في نفسه حاجة ورغبة لذلك الشيء تحديدًا بمجرَّد أن يُصبح بعيدًا عن متناوله؛ فحتى القطة المنزلية التي تركتْ طبقها المفضل وترفَّعتْ عنه، يمكن أن تُرى بعد برهة وقد حشرت وجهها في إبريق الحليب، أو وهي تُطفئ ظمأها خلسةً وباستمتاع رهيب من الحوض المخصَّص لغسل الآنية المتسخة.

ولا شك أن تلك الخصلة الغريبة في العقل البشري قد نجمت عنها حقيقة أنني وبمجرد أن تخليتُ عن ممارسة الجانب الطبي من مهنتي في سبيل ممارسة الجانب القانوني منها وبمجرد أن اتخذتُ من منزل صديقي ثورندايك — خبير الطب الشرعي الشهير — مسكنًا لي كي أعملَ كمساعد أو معاون له، حتى بدأتُ أرى في نمط حياتي السابق — وهو كوني طبيبًا نائبًا أو بديلًا لأشخاص آخرين — الكثيرَ من المميزات المرغوبة، بعد أن كان يبدو مزعجًا بشكل لا يُطاق حين كنتُ متقيدًا به؛ ووجدتُ نفسي أتلهَّف في بعض الأحيان لأن أجلس بجوار السرير وأحاول فهمَ سلسلة الأعراض المرضية المحيِّرة للمرضى وممارسة تلك القوة — التي تُعدُّ رغم كلِّ شيء أعظمَ قوة حازها الإنسان — وهي قوة إنهاء المعاناة وإبعاد شبح الموت نفسه.

ومن هنا وذات صباح في تلك الإجازة الطويلة وجدتُ نفسي في منطقة ذا لارتشس ببيرلنج، وأتولَّى مسئوليات وظيفة صديقي القديم الدكتور هانشو، الذي كان في إجازة

للصيد في النرويج. لكنني لم أكن وحيدًا؛ ذلك أن السيدة هانشو ظلت في المنزل، وكان ذلك المنزل القديم الطراز الكثير الغرف يحتوي على ثلاثة زوار إضافيِّين. كان الزائر الأول هو أخت الدكتور هانشو وتُدعَى السيدة هالدين، وهي أرملة قطب من أقطاب صناعة القطن الأثرياء في مانشستر؛ والزائر الثاني هي ابنة أخيها بالمصاهَرة وتُدعَى الآنسة لوسي هالدين، وهي فتاة في غاية الجمال والجاذبية وتبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا؛ أما الزائر الثالث فلم يكن سوى السيد فريد، وهو الابن الوحيد للسيدة هالدين، وهو صبيٌّ ضخم الجسم ويبلغ من العمر ستة أعوام.

«إن رؤيتك جالسًا على طاولة الإفطار لدينا أيها الدكتور جيرفس تذكرني بالأيام الخوالي، والتي كانت سعيدة للغاية.» بتلك الكلمات اللطيفة وبابتسامة ودِّيَّة، أعطتني السيدة هانشو فنجان الشاي.

فانحنيتُ احترامًا لها، ورددتُ عليها قائلًا: «تكمن أقصى سعادة المؤثر في تأمل حسن حظ الآخرين.»

ضحكت السيدة هالدين. وقالت: «شكرًا لك. أرى أنك لم تتغيَّر كثيرًا. ما زلتَ دمثًا وإن جاز التعبير، متملِّقًا؟»

صحتُ بنبرة تنمُّ عن الجزع: «لا، أرجوكِ لا تفعلي!»

«إذن لن أفعل. ولكن ماذا سيقول الدكتور ثورندايك عما تفعله من تراجع؟ كيف سينظر لهذا الانتكاس من ممارسة الطب الشرعي إلى الممارسة العامة للطب؟»

قلت: «إن ثورندايك لا يتأثر بأي كارثة؛ وهو لا يتعامل مع تراجعي عن ممارسة الطب الشرعي بهدوء فلسفي وحسب، وإنما يؤيد الانتكاس أيضًا، كما تصفين الأمر. هو يعتقد أن دراستي لتطبيق أساليب الطب الشرعي في الممارسة العامة قد يكون في صالحي.»

علَّقت الآنسة هالدين قائلة: «يبدو ذلك بغيضًا، أقصد بالنسبة للمرضى.»

أجابت عمتُها موافقةً: «بالتأكيد. إنه قاسٍ. أي نوع من الرجال هو الدكتور ثورندايك؟ أشعر بفضول كبير تجاهه، أهو إنسان بالأساس؟»

أجبتُها: «إنه إنسان بكل ما تَحمل الكلمة من معنًى؛ فاختبارات البشرية المتفق عليها هي — كما أفهم — التبنِّي الدائم لوضعية الظهر المنتصب أثناء الحركة والموضع النسبي لنهاية إصبع الإبهام ...»

قاطعتني السيدة هالدين قائلة: «أنا لا أقصد ذلك. إنما أقصد إنسانًا بخصوص الأشياء ذات الأهمية.»

رددتُ عليها قائلًا: «أعتقد أن تلك الأشياء مهمة. تخيَّلي أيتها السيدة هالدين فيما يمكن أن يحدث إذا ما شوهد صديقي المبجَّل وهو يرتدي الثوب والشعر المستعار الخاصَّين بالمحاماة، ويسير إلى المحاكم بأي وضعية أخرى غير الوضعية المنتصبة. سيكون الأمر حينها فضيحة عامة.»

قالت السيدة هانشو: «لا تتحدَّثي معه يا مابيل، إنه لا فائدة منه. ماذا ستفعلين هذا الصباح يا لوسي؟»

فكرت الآنسة هالدين (التي كانت قد وضعت فنجانها لتضحك على الصورة التخيلية التي طرحتُها للدكتور ثورندايك وهو يَسير على أربع) للحظة.

وقالت: «أعتقد أنني سأرسم مجموعة أشجار البتولا التي عند حافة غابة برادهام.»

قلت لها: «إذن في تلك الحالة، يُمكنني أن أحمل عنكِ أمتعتكِ؛ ذلك أنني سأذهب لرؤية مريض في برادهام.»

علَّقت السيدة هالدين في خبث قائلة لمضيفتي: «إنه يستغل وقته أفضل استغلال. إنه يعلم أنه سيتقهقر تمامًا حين يصل السيد وينتر.»

كان دوجلاس وينتر هو خطيب الآنسة هالدين وكان وصوله متوقَّعًا في غضون الأسبوع الحالي. وكانت خطبتهما قد طالت بعض الشيء، ومن المحتمَل أنها ستطول أكثر، إلا إذا تحصل أحدهما فجأة على بعض الموارد المالية غير المتوقَّعة؛ ذلك أن دوجلاس كان يحمل رتبة ملازم أول في سلاح المهندسين الملكي، وكان يجد صعوبة كبيرة في العيش براتبه، فيما كانت لوسي هالدين تعيش على راتب صغير للغاية تركه لها عمُّها.

كنتُ على وشك الردِّ على السيدة هالدين حين أعلن عن وجود مريض، وحيث إنني كنت قد أنهيت إفطاري، فقد اعتذرت لهنَّ وغادرتُ الطاولة.

وبعد نصف ساعة، وحين بدأتُ السير على طول الطريق باتجاه قرية برادهام، كان برفقتي شخصان. كان السيد فريدي قد انضمَّ إلينا وتنازع معي على امتياز حمل «الأمتعة» فانتهينا إلى تسويةٍ، حمَل هو بمفادها الكرسيَّ القابل للطي، وتركني أحملُ حاملَ الرسم، والحقيبة ومجموعة كبيرة مجلَّدة من ورق الرسم.

سألتها حين اجتزنا مسافة معقولة: «أين ستعملين هذا الصباح؟»

«بالقرب من الطريق على اليسار هناك، عند حافة الغابة. ليس ببعيد عن منزل الغريب الغامض.» ثم نظرتْ إليَّ نظرةً ماكرة، وهي تُجيبني، وضحكت مسرورة حين ابتلعت الطُّعم.

سألتُها: «أيَّ منزل تقصدين؟»

صاحت: «هه! لقد استيقظ محقق الألغاز. عند نفخ البوق يقول: «هه!» ومن بعيد يستروح القتال صياح القواد والهتاف.»

قلت لها آمرًا: «اشرحي لي الأمر في الحال، وإلا فسأُلقي بورق الرسم في بركة الماء التالية.»

قالت: «أنت تخيفُني. لكنني سأشرح لك، ليس هناك أيُّ لغز سوى ما يتراءى لعقول الريفيين. يُطلق على المنزل اسم كوخ اللافندر، وهو يقع وحيدًا وسط الحقول خلف الغابة. وقد تم تأجيره بالأثاث قبل أسبوعين لرجل غريب يُدعى وايتلوك، وقد استأجَرَه بغرض دراسة الحياة النباتية في المنطقة؛ والشيء الوحيد الغامض بشأنه حقًّا هو أن أحدًا لم يره. لقد تمَّ الخوض في كافة الترتيبات مع السمسار عن طريق البريد، وبقدر ما يُمكنني أن أفهم، فلا أحدَ من التجار في المنطقة يمدُّه بأي شيء؛ لذا فلا بد أنه يُحضر ما يحتاجه من مسافة بعيدة، حتى الخبز الذي يتناوله، وهذا أمر غريب جدًّا حقًّا. والآن قُلْ إنني ريفية حمقاء وفضولية وثرثارة.»

أجبتُها: «كنت سأقول ذلك، ولكن لا جدوى من ذلك الآن.»

لقد أراحتْني من أدوات الرسم الخاصة بها في شيء من سخط مزعوم، وذهبتْ إلى المرج، وتركتني أُكمل طريقي وحدي؛ وحين نظرتُ للخلف بعد برهة، كانت تُجهز حامل الرسم والكرسي القابل للطي، ويساعدها فريدي في ذلك بطريقة جدية.

استغرقتْ «جولتي» وقتًا أطول مما كنتُ أتوقع، رغم أنها لم تكن طويلة، وكان الوقت قد تجاوز ساعة الغداء بالفعل حين مررتُ بالمكان الذي تركت فيه الآنسة هالدين. كانت قد ذهبت، كما توقعت، وأسرعتُ أنا نحو المنزل، وأنا حريص على أن أكون دقيقًا في المواعيد قدر إمكاني. وحين دخلتُ غرفة الطعام، وجدت السيدة هالدين ومضيفتنا تجلسان إلى الطاولة، ونظرتَا لي في ترقُّب.

سألتني الأولى قائلة: «أرأيت لوسي؟»

أجبتُها: «لا، ألم تَعُد؟ توقعتُ أنني سأجدها هنا. كانت قد غادرت الغابة حين مررتُ بها لتوي.»

عقَّدت السيدة هالدين حاجبَيها في قلق. وقالت: «هذا غريب جدًّا من جانبها ويُعدُّ استهتارًا شديدًا منها. سيتضوَّر فريدي من الجوع.»

أسرعتُ في تناول غدائي؛ فقد وصلت رسالتان جديدتان من اثنتين من القرى النائية المحيطة قد بدَّدتَا تصوري لقضاء وقت العصر في هدوء؛ وبينما مرَّت الدقائق من دون أن تظهر أيُّ علامة على عودة المتغيبَين، بدأ القلق والاضطراب يَزدادان لدى السيدة هالدين. وبعد برهة أصبح شعورها بالقلق لا يُحتمَل؛ فهبَّت من مكانها فجأة، وأعلنت عن نيتها في الذهاب بالدراجة على طول الطريق لتبحث عن المتغيبَين، وبينما كانت تتحرَّك نحو الباب، انفتح بقوة، ودخلت لوسي هالدين مترنِّحة إلى داخل الغرفة.

بثَّ مظهرُها الرعبَ في نفوسنا. كان لونُها شاحبًا بشدة، وأنفاسُها منقطعةً، وعيناها هائجتَين؛ وكان ثوبُها مقطعًا ومتسخًا، وجسدها كلُّه يَرتجِف وينتفض.

قالت السيدة هالدين لاهثة: «يا إلهي، لوسي!» ثم أضافت في نبرة أكثر صرامة: «ما الذي حدث؟ وأين فريدي؟»

أجابتْها الآنسة هالدين في صوت واهن وأنفاس متقطعة: «لقد تاه! لقد شرد عنِّي بينما كنت أرسم. وبحثتُ عنه في الغابة كلِّها، وناديت عليه، وبحثت في كل المروج. أوه! أين يُمكن أن يكون قد ذهب؟» ثم وقعت «عدة» الرسم التي كانت تحملها في يدها وتبعثرت على الأرض، ثم دفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي بكاءً حارًّا.

صاحت السيدة هالدين: «وكيف جرأتِ على العودة بدونه؟»

جاءت إجابتُها بصوت واهن: «التعب قد بلغ منِّي مبلغه، وعدتُ من أجل طلب المساعدة.»

قالت السيدة هانشو: «بالطبع كانت منهكَة. اهدئي يا لوسي واهدئي يا مابيل؛ لا تُبالغَا في الأمر كثيرًا. إنَّ الصغير بمأمنٍ. وسنجدُه سريعًا، أو هو سيعود للمنزل من تلقاء نفسه. تعالي يا لوسي وتناولي بعض الطعام.»

هزَّت الآنسة هالدين رأسها رافضة. وقالت: «لا يُمكنني يا سيدة هانشو، لا يُمكنني حقًّا.» وحين رأيتُ أنها كانت منهكة بشدة، صببتُ لها كأسًا من النبيذ وجعلتها تشربه.

اندفعت السيدة هالدين خارج الغرفة، وعادت في الحال وهي تضع قبعتها، ثم قالت: «لا بد وأن تأتيَ معي وتريني أين فقدتِه.»

رددتُ عليها بغلظة قائلًا: «لا يُمكنها أن تفعل ذلك. ينبغي عليها أن تستريحَ في الوقت الحالي. لكنَّني أعلم المكان، وسأذهب معكِ بالدراجة.»

ردَّت السيدة هالدين: «حسنًا إذن، هذا كافٍ.» ثمَّ سألت ابنةَ أخي زوجها بينما التفتت إليها: «كم كانت الساعة حين فقدتِ الطفل؟ وفي أي طريق ...»

ثم توقفتْ عن حديثها فجأةً، فنظرتُ إليها مُتفاجئًا. كان وجهها قد تحوَّل فجأة إلى الشحوب الشديد واعتلته ملامحُ مروِّعة؛ وكأنه تحوَّل إلى قناع حجري، وكانت شفتاها مُتباعدتَين، وعيناها جاحظتَين ونظرُها مثبَّتًا في رعب إلى ابنة أخي زوجها.

ساد صمت مطبق للحظات. ثم سألتها بنبرة فظيعة: «ما هذا الذي على ثوبك يا لوسي؟» وبعد أن سكتت لحظة، ارتفعت حدة نبرة صوتها فقالت صارخة: «ماذا صنعتِ بابني؟»

نظرت مُندهشًا إلى الفتاة المذهولة والمذعورة، ثمَّ رأيت ما رأته عمتُها، كانت هناك بقعةُ دمٍ كبيرة على تنورتها من الأمام، وكان هناك أخرى أصغر من الأولى على كمِّها الأيمن. ثمَّ نظرت الفتاةُ بنفسها إلى تلك البقعة الحمراء المشئومة ثم رفعت نظرها مرة أخرى إلى عمَّتها. وقالت متلعثمة: «يبدو ... يبدو أنه دم. أجل، هو كذلك — أعتقد ذلك — بالطبع هو كذلك. لقد أُصيب في أنفه ونزف دمًا منها ...»

قاطعتها السيدة هالدين قائلة: «هيا، لنذهب.» ثم هرعت خارج الغرفة، على أن ألحق بها.

رفعتُ الآنسة هالدين على الأريكة وهي يكاد يُغمى عليها من التعب والإنهاك، وهمستُ لها ببضع كلمات تشجيعية في أذنها، ثم التفتُّ إلى السيدة هانشو.

وقلت لها: «لا يُمكنني أن أمكث مع السيدة هالدين كثيرًا. هناك زيارتان لي في ريبوورث. هلَّا أرسلتِ العربة مع أحدهم ليتولَّى مكاني معها؟»

أجابتني قائلة: «حسنًا، سأرسل جايلز، أو سأذهب بنفسي إذا كان بالإمكان أن أترك لوسي وحدها.»

ركضتُ نحو الإسطبل لأُحضر دراجتي، وبينما كنت أُبدِّل على الطريق، رأيت السيدة هالدين وقد قطعت شوطًا كبيرًا أمامي بالفعل، فكانت تقود دراجتها بسرعة جنونية. تبعتها بسرعة كبيرة، لكنني لم ألحق بها حتى وصلنا عند مشارف الغابة، حينها هدَّأتْ هي من سرعتها إلى حدٍّ ما، فلحقتُ بها.

وقلت بينما وصلنا إلى البقعة التي تركت فيها الآنسة هالدين: «هذا هو المكان.» ثم ترجلنا عن دراجتَينا وسحبناهما عبر البوابة، ثم وضعناهما بجوار السياج، وعبرنا المرج ودخلنا الغابة.

كانت تجربة فظيعة، لن أنساها أبدًا؛ كانت المرأة الذاهلة ذات الوجه الشاحب تخطو في حذائها المنزلي الرقيق على الأرض القاسية، وكانت تَقتحم الأدغال، غير مبالية بالأغصان

المليئة بالأشواك التي أصابتها في جسدها وشعرها وملابسها الأنيقة الرقيقة، وكانت بين الحين والآخر تُطلق صيحةً مرتعشة، وكانت صيحاتها بائسة ومثيرة للشفقة إلى أقصى حدٍّ؛ وذلك بفعل اختلاط شعورها بالرعب بالرقة الشديدة، حتى شعرتُ بغصَّة في حلقِي وبالكاد كان يُمكنني أن أتمالك نفسي.

«فريدي! يا بُني! أمك هنا يا عزيزي!» كان عويلها يتردَّد بين أرجاء الغابة الخاوية إلا من الأشجار؛ لكن لم يكن هناك أيُّ إجابة سوى صوت رفرفة أجنحة الطيور المذعورة أو زقزقتها. ولكن ما كان صادمًا أكثر من صيحتها المرعبة تلك — أي أكثر إثارةً للذعر والرعب — هو الطريقة التي كانت تنظر بها، فكانت تُفتِّش في ترقُّبٍ ناشئ عن خوف بين جذور الأشجار، أو كانت تقف لتُحدِّق فوق الركام الترابية والأكمة والمنخفَضات والأشكال المختلفة التي تتَّخذها الأرض هناك.

وهكذا رُحنا نسير لبرهة من الوقت، من دون أن نتحدَّث بأيِّ كلمة، حتى وصلنا إلى مسار مطروق أو ممر يعبر الغابة. هنا وقفتُ لأتفحص آثار الأقدام، والتي كان العديد منها واضحًا على التراب الناعم، رغم أن أيًّا منها لم يَبدُ حديثَ العهد جدًّا؛ لكنَّني حين تقدمتُ قليلًا على هذا المسار، رأيتُ بضعة آثار حديثة تقطعه، وأدركت في الحال أن تلك الآثار تعود للآنسة هالدين. كانت ترتدي — حسب ما يَنتهي إليه علمي — حذاء جولف بُنِّيًّا مزودًا بوسادات مطاطية في نعليه الجلديَّين، وكانت آثار ذلك الحذاء جليَّة لا لبس فيها.

قلت وأنا أشير إلى آثار الأقدام: «لقد عبرت الآنسة هالدين هذا المسار هنا.»

صاحت السيدة هالدين: «لا تتحدث عنها أمامي!» لكنها ومع ذلك حدَّقت بحماسة في آثار الأقدام، ودلفت إلى عمق الغابة في الحال لتتبع الآثار.

ثم غامرتُ بمحاولة للاحتجاج عليها قائلًا: «أنتِ غير عادلة تمامًا تجاه ابنة أخي زوجك أيها السيدة هالدين.»

توقفت عن السير وواجهتني بوجه عابس غاضب.

وصاحت قائلة: «أنت لا تفهم! ألا تعرف أن لوسي هالدين ستُصبح امرأةً ثرية لو أن ابني المسكين مات فعلًا، وحينها يمكنها أن تتزوَّج غدًا إذا ما قررت ذلك؟»

أجبتُها: «لم أكن أعلم ذلك، لكن حتى ولو كنتُ أعلم، فما كنتُ سأغير رأيي.»

ردَّت بنبرة فيها مرارة: «لا، كنت ستفعل. يمكن دومًا لجمال الوجه أن يخدع أيَّ إنسان.»

ثم استدارت فجأة لتُكمل بحثها، وتبعتُها في صمت. كان المسار الذي نتبعُه مُتعرجًا ويمتدُّ عبر أكثر أجزاء الغابة كثافة، إلا أن التواءاتِه أفضت بنا في النهاية إلى مساحة مفتوحة عند الجهة الأقصى للغابة. وهنا لاحظنا في الحال آثارًا من نوع آخر. وكانت تلك الآثار هي عبارة عن خِرَق بالية متناثرة، وقِطَع من الورق، وكسرات من خبز يابس قديم، وعظام وريش، وآثار لحوافر، وآثار عجلات ورماد خشب محترق، وكانت كلُّ تلك الآثار تُشير بوضوح إلى مخيم للغجر قد انفضَّ حديثًا. وضعتُ يدي على كومة الرماد ووجدتُ أنها كانت لا تزال دافئة، وحين بعثرتها بقدمي ظهرت من تحتها طبقة من الجمر المتوهِّج.

قلت: «لقد غادر هؤلاء قبل ساعة أو اثنتين فقط. وسيكون من الأفضل لو تبعناهم دون تأخير.»

لمع بريق الأمل على الوجه الشاحب المرهَق للأم الثكلى، فيما بدأتْ تُنفِّذ اقتراحي بلهفة.

وصاحت بأنفاس متقطِّعة: «أجل، ربما قدَّمت لهم رشوة لكي يأخذوه بعيدًا. لنرَ أيَّ طريق سلكوا.»

تبعنا آثار العجلات حتى وصلنا إلى الطريق، ووجدنا أنهم استداروا باتجاه لندن. في نفس اللحظة لاحظتُ قدوم عربة من بعيد، وكانت السيدة هانشو تقف بجوارها؛ وحين رآني سائق العربة، هوى بسوطه على حصانه واقترب.

قلت: «سيتعيَّن عليَّ أن أذهب، لكن السيدة هانشو ستساعدك في استكمال البحث.»

قالت: «وستُحقق أنت في أمر الغجر، أليس كذلك؟»

قطعتُ وعدًا بأن أفعل، وحيث إن العربة كانت قد وصلت الآن، قفزتُ إلى المقعد الأمامي، وقدتُها بسرعة على الطريق المؤدي إلى لندن.

لا يمكن أبدًا أن نتنبأ بالمدة التي تستغرقها جولة الطبيب في الريف. وفي هذه المناسبة الراهنة، قمتُ بزيارة ثلاثة مرضى إضافيين، وحيث إن حالة أحدهم كانت التهابًا خفيفًا في الغشاء المحيط بالرئة — الأمر الذي تطلَّب ربطَ صدرِه بحزام — وكانت حالة آخر هي انخلاع في الكتف تم إهماله، فقد استغرقت جولتي وقتًا طويلًا. وعلاوة على ذلك، تأخَّرتُ كثيرًا بفعل مطاردتي للغجر والتي امتدت حتى وصلت إلى ريبوورث كومون، رغم أنه كان عليَّ أن أترك للشرطي الريفي إجراء عملية التفتيش الفعلي، ونتيجة لذلك، كانت ساعة كنيسة بيرلنج تدق السادسة حين كنتُ أقود العربة خلال القرية في طريقي إلى المنزل.

نزلتُ من العربة عند البوابة الأمامية، وتركت سائق العربة ليأخذها، وسرتُ على الطريق المؤدي إلى باب المنزل؛ ويمكن أن تتخيل دهشتي حين استدرتُ عند زاوية المنزل ووجدت على نحوٍ مفاجئ أن مفتش الشرطة المحلية يتحدث على نحوٍ جديٍّ مع شخص عرفتُ أنه جون ثورندايك.

صحتُ متعجبًا وقد نال اندهاشي من التهذيب في حديثي: «ما الذي أتى بك إلى هنا بحق السماء؟»

أجابني: «الدافع الأول والرئيسي هو سيدة مندفعة تُدعى السيدة هالدين. لقد أرسلت لي برقية باسمك.»

قلت: «لم يكن ينبغي لها أن تفعل ذلك.»

«ربما. إلا أن مناقشة سلوكيات امرأة قلقة ومرتبكة هو أمر لا جدوى منه، وقد فعلت شيئًا أسوأ بكثير؛ لقد تواصلت مع قاضي الصلح المحلي (وهو لواء متقاعد)، وقد أصدر صديقُنا النبيل الغِرُّ مذكرةَ توقيفٍ للوسي هالدين بتهمة القتل.»

صحتُ متعجبًا: «لكن ليست هناك أيُّ جريمة قتل!»

قال ثورندايك: «وتلك مهارة قانونية لا يتمتع بها الرجل. لقد تعلَّم القانون في الوحدة العسكرية حيث تعتبر مؤهلات المهنة هي سرعة الانفعال والصوت العالي. لكن نقطة الضعف العملية في هذا أيها المفتش هي أن المذكرة تُعدُّ مخالفة للقواعد؛ حيث لا يمكنك أن تُلقيَ القبض على الأشخاص لارتكابهم جرائم افتراضية.»

أخذ الضابط نفَسًا عميقًا تعبيرًا عن الارتياح. كان يعلم أن مذكِّرة التوقيف مخالفة للقواعد، وهو الآن كان يحتمي بسعادة بسمعة ثورندايك الطيبة.

وحين غادر الضابط — ومعه رسالة قصيرة من صديقي إلى اللواء — شبك ثورندايك ذراعه في ذراعي وسرنا نحو المنزل.

وقال: «هذه القضية صعبة يا جيرفس. لا بد وأن نجد ذلك الصبي من أجل صالح الجميع. أيمكنك أن تأتيَ بصحبتي بعد أن تتناول بعض الطعام؟»

«بالطبع يمكنني ذلك. كنت أوفر طاقتي طيلة فترة ما بعد الظهيرة حتى أُكمل البحث.»

قال ثورندايك: «رائع، إذن فلتدخل وتتناول الطعام.»

تم إعداد وجبة لا معالم لها، نصفُها طعام ونصفها الآخر شاي، وكانت السيدة هانشو تجلس متجهمة على رأس الطاولة لكنها كانت محافظة على رباطة جأشها.

قالت: «ما زالت مابيل في الخارج تبحث مع جايلز عن الصبي. أعتقد أنك عرفتَ بما فعلتْ!»

أومأتُ برأسي.

أكملتِ السيدة هانشو حديثها قائلة: «كان هذا تصرُّفًا كريهًا من جانبها، لكنها تكاد تُجنُّ، يا لها من مسكينة. ربما بإمكانك أن تصعدَ للأعلى وتقولَ بعض الكلمات اللطيفة إلى لوسي المسكينة بينما أقوم بإعداد الشاي.»

صعدتُ للأعلى في الحال، وطرقتُ باب الآنسة هالدين، وبعد أن سمحت لي بالدخول، وجدتُها ترقد على الأريكة، وكانت عيناها حمراوَين ووجهُها شاحبًا، فكانت وكأنها شبحُ تلك الفتاة المرحة الضاحكة التي خرجت معي في الصباح. سحبتُ كرسيًّا وجلستُ إلى جوارها، وبينما أخذتُ بيدها التي مدَّتها في يدي قالت:

«من اللطف منك أن تأتيَ لرؤية فتاة بائسة وحزينة مثلي. كانت جين لطيفةً للغاية معي يا دكتور جيرفس؛ لكن العمة مابيل تعتقد أنني قتلتُ فريدي — وأنت تعلم ذلك تمامًا — وكان فقدانه هو خطئي حقًّا. لن أُسامح نفسي أبدًا!»

ثم راحت تبكي بحرقة، فقلتُ لها موبخًا إياها برفق:

«أيتها الفتاة الغبية، لا تأخذي ما حدث على عاتقك. إن عمَّتَكِ غير مسئولة عن تصرفاتها الآن، وينبغي أن تكوني على علمٍ بذلك؛ لكن حين نُعيد الصبي إلى المنزل، فستعتذر هي لك اعتذارًا لطيفًا. سأحرص على أن تفعل ذلك.»

ضغطت الفتاة على يدي تعبيرًا عن امتنانها، وحيث رنَّ الجرس معلنًا عن أن الشاي قد أصبح جاهزًا، طلبتُ منها أن تتحلى بالشجاعة، ثم نزلت إلى الطابق السفلي.

قالت السيدة هانشو بينما كنت أُنهي وجبتي السريعة وكان ثورندايك قد ذهب ليُحضر دراجتَينا: «لستَ في حاجة لأن تقلق بشأن عملك. لقد سمع الدكتور سايمونز بالضرَّاء التي ألَّت بنا، وقد تواصل معي ليقول إنه سيتولى أمر أيِّ مريض يطرأ؛ لذا نتوقَّع أن تكون موجودًا حين نحتاجك.»

سألتُها: «ما رأيك في ثورندايك؟»

ردَّت بحماسة قائلة: «إنه لطيف إلى حدٍّ كبير، وهو لبق وودود، كما أنه وسيم جدًّا أيضًا. أنت لم تُخبرنا بذلك. لكن ها هو. وداعًا وأتمنى لكما حظًّا طيبًا.»

وضغطَت على يدي وخرجت إلى الطريق خارج المنزل، حيث كان ثورندايك وسائق العربة يقفان ومعهما ثلاثُ دراجات.

قلت بينما كنا نستهلُّ الطريق: «أرى أنك أحضرتَ عدتك.» لقد كانت دراجة ثورندايك تحمل حقيبة كبيرة مغطاة بالقماش ومربوطة إلى حامل قوي.

«أجل؛ هناك الكثير من الأشياء التي قد نحتاج إليها في مسعانا هذا. كيف وجدتَ الآنسة هالدين؟»

«حالُها بائس جدًّا، تلك الفتاة المسكينة. بالمناسبة، هل سمعتَ أيَّ شيء عن الفوائد المادية التي ستحصل عليها بموت الطفل؟»

قال ثورندايك: «أجل. يبدو أن السيد هالدين الراحل قد استنفد عقلَه كلَّه في عمله، ولم يتبقَّ شيءٌ منه عند كتابة وصيته، كما يحدث في الغالب. لقد ترك كلَّ ما يملك تقريبًا — أي نحو ثمانين ألف جنيه — إلى ابنه، وتحصل أرملتُه من ذلك على انتفاع مدى الحياة. كما ترك للوسي ابنة أخيه الراحل خمسين جنيهًا في العام، وترك لأخيه بيرسي الذي لا يزال على قيد الحياة والذي يبدو أنه عديمُ الفائدة مائة جنيه تُصرَف له كلَّ عام طوال حياته. لكن — وهنا تكمن الحماقة كلُّها في هذا الشأن — إذا مات ابنه، فسيتم تقسيمُ ممتلكاته بالتساوي بين أخيه وابنة أخيه، مع استثناء خمسمائة جنيه تُصرف كلَّ عام إلى أرملته مدى الحياة. وهذه تسوية مختلَّة.»

أجبتُه موافقًا: «أجل، وهذا يُعدُّ أمرًا خطيرًا جدًّا بالنسبة للوسي هالدين، كما هو الحال في الظروف الحالية.»

«في غاية الخطورة، خاصة إذا حدث أيُّ مكروه للطفل.»

سألته حين رأيت أن ثورندايك يقود دراجته من أجل غرض محدد: «ماذا ستفعل الآن؟»

أجابني: «هناك ممرٌّ في الغابة أريد أن أفحصه. وهناك منزل يقع خلف الغابة أريد أن أُلقيَ نظرة عليه.»

قلت: «منزل الغريب الغامض.»

«بالضبط؛ فالغرباء الغامضون المنعزلون يجتذبون التحقيقَ في أمرهم.»

توقفنا عند بداية الممر تاركين ويليت سائق العربة مع الدراجات الثلاث، وتقدَّمنا سيرًا على الممر الضيِّق. وأثناء سيرنا، التفت ثورندايك ونظر إلى آثار أقدامنا وأومأ باستحسان.

وقال ثورندايك: «يُسفر هذا المسار الرملي الطيني الناعم عن آثار واضحة للغاية، وقد جعلتْه أمطارُ الأمس مثاليًّا.»

لم نكن قد قطعنا مسافة طويلة حين رأينا مجموعة من آثار الأقدام التي تعرَّفتُ عليها، كما فعل ثورندايك أيضًا؛ وذلك لأنه قال: «تلك آثار أقدام الآنسة هالدين وهي

تجري بمفردها.» وسرعان ما رأينا تلك الآثار مرة أخرى وهي تقطع الطريق في الاتجاه المعاكس وتصحبها آثارُ أقدام لحذاء صغير ذي كعب طويل للغاية. وكان تعليق ثورندايك على ذلك: «تلك آثار السيدة هالدين وهي تتبع مسار ابنة أخي زوجها.» وبعد ذلك بدقيقة صادفنا الأثرَين نفسَهما مرة أخرى، ويصحبهما هذه المرة آثارُ أقدامي.

قلت بينما كنا نُكمل مسيرنا ونحاول أن نظلَّ بعيدًا عن الممر لنتجنب تخريب الآثار: «لا يبدو أن الصبي قد عبر هذا الممر على الإطلاق.»

أجاب ثورندايك وهو يُعمِل عينيه على الأرض: «سنعرف حين نفحص الممر كلَّه.» ثم أضاف بعد أن توقف بسرعة وانحنى للأسفل في حماسة كبيرة: «هه! هاك شيء جديد. آثارُ رجل ومعه عصًا غليظة؛ رجل صغير الحجم، وبه شيء من عرج. لاحظ الفرق بين القدمين، والطريقة الغريبة التي يستخدم بها عصاه. أجل يا جيرفس، هناك الكثير الذي يُثير انتباهنا بشأن هذه الآثار. هل تلاحظ بها أيَّ شيء يمكن أن يوحي لك بشيء؟»

أجبتُه: «لا شيء سوى ما ذكرتَ. ماذا تقصد؟»

«في الواقع، أولًا، هناك الطابع الغريب للغاية للآثار نفسها، وهذا أمر سننظر فيه عما قريب. أنت تلاحظ أن هذا الرجل جاء سيرًا على الممر، وعند هذه النقطة انعطف ليدخل إلى الغابة؛ ثم عاد من الغابة وسار على الممر مرة أخرى. وشكلُ الآثار يجعل هذا في غاية الوضوح. لكن انظر الآن إلى مجموعتَي الآثار، وقارن بينهما. هل تلاحظ أيَّ اختلاف؟»

«الآثار العائدة تبدو أكثر بروزًا، بصماتهما أكثر وضوحًا.»

«بالفعل؛ إنها أعمق بصورة ملحوظة. لكن هناك شيء آخر.» أخرج من جيبه شريط قياس وأخذ ستة قياسات، ثم قال: «أترى؟ للمجموعة الأولى من الآثار طول خطوة بين الكعبين يصل إلى إحدى وعشرين بوصة، وهي خطوة قصيرة؛ لكنه رجل صغير الحجم، وبه عرج، أما الخطوات العائدة فطول الخطوة يصل إلى تسع عشرة بوصة ونصف البوصة؛ ومن ثَمَّ فإن الآثار العائدة أعمق من الأخرى، والخطوات أقصر. ماذا تستنتج من هذا؟»

أجبتُه قائلًا: «قد يوحي ذلك بأنه كان يحمل شيئًا حين عاد.»

«أجل، بل وشيء ثقيل ليتسبب في هذا الاختلاف في عمق الآثار. أعتقد أنني سأطلب منك أن تذهب وتُحضر ويليت والدراجات.»

ذهبتُ عائدًا على الممر نحو بدايته، وبعد أن أخذتُ دراجة ثورندايك وعليها حقيبة الأدوات المهمة، طلبتُ من ويليت أن يتبعني بالدراجتين الأخريين.

وحين عدتُ كان زميلي يقف ويداه خلف ظهره، ويحدق بتركيز شديد في الآثار. ثم رفع عينيه في حدة حين اقتربنا، وصاح طالبًا منا أن نبتعد عن الممر إذا أمكننا.

قال ثورندايك: «ابقَ هنا بصحبة الدراجات يا ويليت. أما أنت وأنا يا جيرفس فينبغي أن نذهب ونرى أين توجَّه صديقنا حين غادر الممر، وما هو الشيء الذي كان يحمله.»

دلفنا إلى الغابة، حيث تسببت أوراق الأشجار الساقطة منذ العام الماضي في جعل الآثار مجهولة ومن العسير تمييزها، وتبعنا آثارَ الأقدام المزدوجة غير الواضحة لمسافة طويلة بين كُتَل الشجيرات الكثيفة. وفجأة وقعت عيني على صفٍّ ثالث من آثار الأقدام بجوار الآثار المزدوجة، وكانت الآثار فيه أصغر من حيث الحجم وأكثر تقاربًا من بعضها. كان ثورندايك قد لاحظه أيضًا وأخرج شريط قياسه بالفعل.

قال ثورندايك: «طول الخطوة إحدى عشرة بوصة ونصف البوصة. هذه هي آثار الطفل يا جيرفس. لكن ضوء النهار يخفت، فينبغي أن نستمر في البحث سريعًا، وإلا فسنفقدها.»

وبعد حوالي خمسين ياردة، توقفت آثار أقدام الرجل فجأة، لكن الآثار الصغيرة استمرت وحدها؛ وتبعناها بأسرع ما يمكننا في ظل الضوء المتلاشي.

قال ثورندايك: «لا يوجد شكٌّ منطقي أو مقبول يقول بأن هذه الآثار ليست للطفل، لكنني أريد أن أجد أثرًا واضحًا من أجل أن تكون عملية التحديد صحيحة تمامًا.»

وبعد ثواني قليلة، توقف ثورندايك وهو يهتف متعجِّبًا، ثم جثَا على ركبته. كانت هناك كتلة صغيرة من التراب تغطي الأوراق الجافة وقد تسبب بها حيوان الخلد وهو يحفر مسكنًا له؛ وعلى تلك الكتلة الترابية الحديثة العهد، كانت هناك بصمة واضحة وقاطعة لقدم صغيرة، وكان على الكعب المطاطي نجمة في منتصفه. أخرج ثورندايك من جيبه حذاءً صغيرًا، وضغط به على التراب الناعم بجوار أثر القدم؛ وحين رفعه كانت البصمة الثانية مطابقة للأولى.

قال ثورندايك: «كان الفتى يمتلك حذاءين متماثلين؛ لذا فقد استعرت الآخر.»

ثم استدار ثورندايك وبدأ يتتبع خطواتِه بسرعة، متبعين في ذلك خطواتِنا الحديثة العهد، ولم نتوقف سوى لنحدد المكان الذي حمل فيه الرجل المجهول الطفل. وحين عدنا إلى الممر تقدمنا فيه سيرًا على الفور، حتى خرجنا من الغابة على بعد مائة ياردة من الكوخ.

علَّق ثورندايك قائلًا بينما دفع بوابة الحديقة وفتحها: «أرى أن السيدة هالدين كانت هنا مع جايلز. أتساءل إن كانَا قد رأيَا أيَّ أحد.»

تقدم ثورندايك نحو الباب، وبعد أن طرقه بشدة بأصابعه ثم ركله بقوَّة، حاول أن يفتحه باستخدام المقبض.

قال: «إنه موصد، لكنني أرى أن المفتاح في القفل؛ لذا يمكننا أن ندخل إذا ما أردنا. لنحاول من الخلف.»

كان الباب الخلفي موصدًا أيضًا، لكن المفتاح كان غيرَ موجود.

قال ثورندايك: «لا شك أنه خرج من الخلف، رغم أنه دخل من الباب الأمامي، كما أعتقد أنك تلاحظ. لنرَ إلى أين ذهب.»

كانت الحديقة الخلفية عبارة عن قطعة أرض صغيرة محاطة بسور، وبها ممرٌّ ترابيٌّ يؤدي إلى البوابة الخلفية. وبعد البوابة بمسافة صغيرة كانت توجد حظيرة أو مبنًى خارجيٌّ صغير ملحق بالمنزل.

علَّق ثورندايك وهو ينظر إلى الممر: «إننا محظوظان. لقد محت أمطارُ الأمس كلَّ الآثار القديمة ومهَّدت سطحَ الممر لتلقِّي الآثار الجديدة. ترى أن هناك ثلاثَ مجموعات من الآثار ذات بصمات ممتازة، اثنتان تقودان إلى خارج المنزل، وواحدة تؤدي نحوه. والآن، أنت تلاحظ أن مجموعتَي الآثار اللتين تقودان خارج المنزل تتسمان بعمق البصمة وقِصَر طول الخطوة، فيما تتسم المجموعة المؤدية إلى المنزل ببصمة أقل عمقًا وخطوة أطول. والاستنتاج البديهي هنا هو أنه خرج من المنزل إلى الممر بحمل ثقيل، ثم عاد خاوي الوفاض، ثم خرج أخيرًا ولمرة أخرى بحمل ثقيل آخر. وتلاحظ أيضًا أنه كان يسير وبيده عصاه في كل مرة منها.»

في تلك اللحظة كنا قد وصلنا إلى آخر الحديقة. وبعد أن فتحنا البوابة، تبعنا الآثار التي تؤدي نحو المبنى الخارجي، والذي يوجد بالقرب من طريق للعربات؛ لكن وحين اجتزنا زاوية الحديقة، توقف كلانا فجأة ورحنا ننظر إلى بعضنا. كان هناك على التراب الناعم آثارٌ واضحة لإطارات سيارة تمتد من الباب الكبير للمبنى الخارجي. وحين وجدنا أن الباب لم يكن موصدًا، فتحه ثورندايك، ونظر بداخله فقط لكي يتأكد من أن المكان كان خاليًا. ثم انحنى لينظر في الآثار.

ثم قال معلِّقًا: «إن مسار الأحداث واضح إلى حدٍّ كبير. أولًا، أنزلَ صاحبُنا أمتعتَه، ثم أدار المحرك، وأخرج السيارة — يمكنك أن ترى أين توقفت السيارة، بفعل كلٍّ من بقعة الزيت الصغيرة وكذلك اتساع وعدم وضوح آثار الإطارات وذلك ناتج عن اهتزاز المحرك؛ ثم عاد وأحضر الصبي — وأقول إنه كان حاملًا إياه على ظهره بسبب عمق آثار أصابع

القدم في المجموعة الأخيرة من آثار الأقدام. كان ذلك خطأً فنيًّا؛ حيث كان ينبغي عليه أن يأخذ الصبي مباشرة إلى المبنى الخارجي.»

وأشار بينما كان يتحدث إلى أحد الآثار المجاورة لآثار الإطارات، وكانت أصابع القدم تعكس قطاعًا صغيرًا من رسمة على نعل مطاطي صغير.

عُدنا الآن إلى المنزل، حيث وجدنا ويليت يقرع على الباب الأمامي باستخدام مفتاح الربط الخاص بالدراجات. وبينما كانت يده في جيبه، ألقى ثورندايك نظرة أخيرة على نافذة مفتوحة في الطابق العلوي، ثم أخرج ما بدا وكأنه سلسلة صغيرة من المفاتيح الهيكلية التي تفتح كلَّ الأقفال، وهو ما أثار دهشة السائق كثيرًا. وأدخل أحد هذه المفاتيح في ثقب المفتاح وأداره، فأصدر القفل صوت طقطقة، وانفتح الباب.

دخلنا الآن حجرة الجلوس الصغيرة، وكانت مفروشة بأقل الضروريات. كان منتصف الحجرة يحتوي على طاولةٍ مفروش عليها مشمع، وقد دُهِشتُ حين رأيتُ عليها منبهًا مفكَّكًا (وكان قد استُخدم في تفكيكه فتاحةُ علبٍ كانت موضوعةً بجانب أجزائه)، ورأيتُ كذلك صندوقًا خشبيًّا صغيرًا لمحاكاة أصوات الطيور. نظر ثورندايك إلى هذين الشيئين وأومأ وكأنها تتوافق ونظرية كان قد شكَّلها في عقله؛ ثم فحص بدقة المشمع من حول العجلات والتروس المبعثرة، ثم راح في جولة تفقدية في الغرفة، وكان يُمعن النظر بفضول في المطبخ وخزانة المؤن.

وعلَّق قائلًا: «لا شيءَ مميزٌ أو شخصيٌّ جدًّا هنا. لنصعد إلى الأعلى.»

في الطابق العلوي كان هناك ثلاث غرف للنوم، وكان من الواضح أن اثنتين منهما غيرُ مستخدمتين، رغم أن نافذتَيهما كانتَا مفتوحتين على مصراعَيهما. أما الغرفة الثالثة فأظهرت آثارًا واضحة تدل على أنها مشغولة، رغم أنها كانت فارغةً كالأخريات؛ ذلك أن الماء كان لا يزال في حوض غسيل الوجه واليدين، وكان السرير غير مرتَّب. وقد تقدَّم ثورندايك نحو السرير، وبعد أن أزال مفرش السرير، قام بفحص الجهة الداخلية منه باهتمام، خاصة عند موضع القدمين والوسادة. كان موضع الوسادة ملطَّخًا — وليس معنى ذلك أنه كان متَّسخًا — رغم أن بقية مفرش السرير كان نظيفًا إلى حدٍّ كبير.

علَّق ثورندايك قائلًا: «آثار صبغة شعر»، وذلك حين لاحظ أنني أنظر إلى الوسادة؛ ثم استدار ونظر من النافذة المفتوحة. وسألني: «أيمكنك أن ترى المكان الذي كانت الآنسة هالدين تجلس فيه وهي ترسم؟»

أجبتُه: «أجل، هذا هو المكان، إنه واضح تمامًا، ويمكنك أن تنظر أيضًا على طول الطريق. لم يكن لديَّ أدنى فكرة أن هذا المنزل بهذا الارتفاع. يمكنك أن ترى الريف كلَّه من النوافذ العلوية الثلاث، عدا أنك لا تستطيع أن تنظر في الغابة.»

قال ثورندايك: «أجل، وعلى الأرجح أنه كان يراقب المكان من هنا بمنظار أو نظارة ميدانية. في الواقع، ليس هناك الكثيرُ من الأشياء المثيرة للاهتمام في هذه الحجرة. لقد كان يضع متاعه في صندوق كبير كان موضوعًا تحت النافذة. وقد حلق ذقنه هذا الصباح. إن له ذقنًا بيضاء، وذلك طبقًا لما تبقَّى منها على منديل الحلاقة، وهذا كل شيء. ولكن انتظر، هناك مفتاح معلَّق على ذلك المسمار. لا بد وأنه نسيَ أمره؛ ذلك أنه لا ينتمي تمامًا إلى هذا المنزل. إنه مفتاح قفل باب عادي في المدينة.»

أخذ المفتاح، وبعد أن أخرج من جيبه ورقة من دفتر ملحوظاته ووضعها على طاولة الزينة، أخرج مسمارًا وبدأ يستقصي به بدقة الجزء الداخلي من المفتاح. ثم أخرج بعد ذلك بكل حذر كرةً كبيرة من زغب رمادية وقام بلفِّها في الورقة بدقة بالغة.

وقال: «أعتقد أننا لا ينبغي أن نأخذ المفتاح، لكنني أرى أن نأخذ نسخة شمعية منه.»

ثم أسرع إلى الأسفل، وبعد أن فكَّ حقيبته من الدراجة، جلبها إلى داخل المنزل ووضعها على الطاولة. وحيث كان الظلام قد انسدل كثيرًا في الأرجاء، فصل ثورندايك مصباح الأسيتيلين القوي من دراجته وأضاءه وشرع في فتح حقيبته الغامضة. وقد أخرج منها أولًا منفاخًا صغيرًا، أو نافثَ مسحوق، ثم نفخ بها على الطاولة حول ما تبقَّى من المنبه سحابةً من مسحوق لونه أصفر فاتح. استقرَّ المسحوق على الطاولة في انتشارٍ متساوٍ، لكنه حين نفخ فيه بفمه برفق، تطاير المسحوقُ تاركًا عددًا من الآثار الملطَّخة بالمسحوق والتي برزت بلون أصفر واضح على المشمع الأسود. وأشار ثورندايك إلى أحد هذه الآثار، فقد كانت أثرًا لِيدِ طفلٍ.

ثم أخرج مجهرًا صغيرًا محمولًا وبضعَ شرائح زجاجية وأغطية لها، وبعد أن فتح الورقة وأزاح كرة الزغب التي أخرجها من الجزء الداخلي للمفتاح إلى إحدى الشرائح الزجاجية، شرع في العمل باستخدام زوج من الإبر الداعمة لكي يستنبط منها أجزاءها المكونة لها. ثم وجَّه ضوء المصباح إلى مرآة المجهر وبدأ في فحص العينة.

ثم قال وعينُه مثبتةٌ على المجهر: «تلك مجموعة متنوعة وحافلة بالمعلومات يا جيرفس، فهي تتكون من ألياف صوفية، وليس هناك ألياف من القطن أو الكتان؛ أن تكون جيوبه

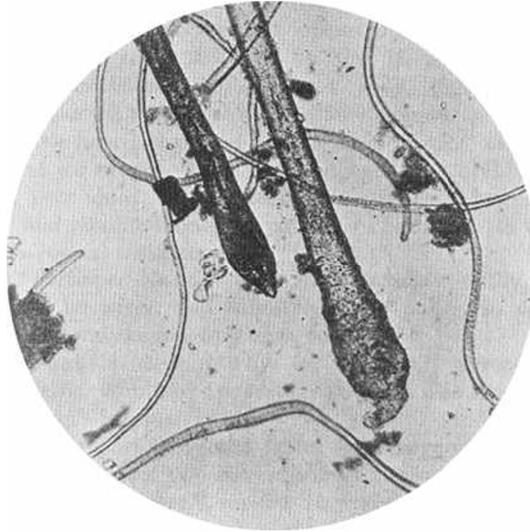
من الصوف فإن هذا يعني أنه يعتني بصحته، وهناك شعرتان؛ وهما مثيرتان للفضول كثيرًا أيضًا. انظر إليهما فقط، ولاحظْ بُصيلة الجذر فيهما.»

وضعتُ عيني على المجهر ورأيتُ شعرتين من بين أشياء أخرى، كانتَا باللون الأبيض، لكنهما كانتَا مغطتين بصبغة سوداء لامعة غير شفافة. ولاحظتُ أن بُصيلة الجذر في كلٍّ منهما كانت ذابلةً وضامرة.

قلت متعجبًا: «لكن كيف وصلت الشعرتان إلى جيبه بحق السماء؟»

أجابني: «أعتقد أن الشعرتين تُجيبان على هذا السؤال؛ وذلك حين ننظر إليهما إلى جانب الأشياء الغريبة الأخرى. من الواضح أن الصبغة هي كبريتيد الرصاص؛ لكن ماذا ترى أيضًا؟»

«أرى بعض الجسيمات المعدنية — من الواضح أنه معدنٌ ذو لون أبيض — وفتات ألياف خشبية وحبيبات نشا، لكنني لا أعرف نوع النشا. إنه ليس بنشا القمح، ولا بنشا الأرز، ولا بنشا البطاطا. أتعرف ما نوعه؟»



زغبة من الجزء الداخلي للمفتاح، مكبرة بنسبة ٧٧ ضعفًا.

ضحك ثورندايك وقال: «الخبرة هي ما ستُخبرك بنوعه. سينبغي عليك يا جيرفس أن تدرس المكونات والخصائص الدقيقة للغبار والتراب. إن قيمتهما كدليل كبيرة للغاية. لنُلقِ نظرة أخرى على تلك الحبيبات النشوية؛ أعتقد أنها متشابهة جميعًا.»

كانت جميعها كذلك، وكان ثورندايك قد تأكد لتوِّه من تلك الحقيقة حين انفتح الباب ودخلت السيدة هالدين الحجرة وتبعتها السيدة هانشو ومفتش الشرطة. نظرت المرأة الأولى إلى صديقي نظرةً تنمُّ عن ازدراء شديد.

وقالت: «سمعنا أنك أتيتَ إلى هنا يا سيدي، وكنا نعتقد أنك تشارك في البحث عن طفلي المسكين. لكن يبدو لي أننا كنا مخطئين؛ حيث إنكما هنا تُسلِّيان أنفسكما من خلال العبث بتلك الأدوات التافهة.»

قالت السيدة هانشو بنبرة جادة: «ربما كان من الحكمة أكثر يا مابيل — والأكثر تهذيبًا — لو سألتِ الدكتور ثورندايك إن كان لديه أيُّ أخبار لنا.»

وافق المفتش على كلام السيدة هانشو قائلًا: «كلامك صحيح، يا سيدتي.» ويبدو أنه تضايق أيضًا من اندفاع السيدة هالدين.

قالت السيدة الأخيرة: «إذن ربما ستُخبرنا لو أنك اكتشفتَ أيَّ جديد.»

أجاب ثورندايك: «سأقول لكم كلَّ ما نعرف. لقد اختُطِف الطفل على يد الرجل الذي كان يسكن هذا المنزل، ويبدو أنه كان يراقبه من نافذة علوية، باستخدام نظارة مكبرة على الأرجح. لقد استدرج هذا الرجل الصبيَّ إلى الغابة عن طريق النفخ في أداة محاكاة أصوات الطيور هذه؛ وقابله في الغابة، وأغراه — ببعض الوعود دون شك — حتى ذهب معه. ثم رفع الطفل وحمله — أعتقد على ظهره — حتى وصل إلى المنزل، ودخل به من الباب الأمامي ثم أوصده خلفه. وقد أعطى الطفل ذلك المنبه وأداة محاكاة صوت الطيور ليتسلَّى بهما بينما صعد هو إلى الطابق الأعلى وجمع أشياءه في حقيبة كبيرة. ثم أخذ الحقيبة إلى خارج المنزل من الباب الخلفي وعبر بها الحديقة حتى وصل إلى المبنى الخارجي هناك، والذي كان يحتوي على سيارة. ثم أخرج السيارة وعاد لأخذ الطفل فحمله إلى السيارة وأغلق الباب الخلفي خلفه. ثم انطلق بعيدًا.»

صاحت السيدة هالدين: «تعرف أن الرجل قد ذهب وما زلت هنا تلهو بتلك الأشياء السخيفة. لماذا لم تتبعه؟»

أجاب ثورندايك في هدوء: «كنا قد انتهينا من التأكد من الحقائق للتوِّ، ولولا أنكم أتيتم لكنَّا في إثرهما على الطريق الآن.»

هنا تدخَّل المفتش بنبرة تنمُّ عن القلق: «أنت بالطبع يا سيدي لا تستطيع أن تُقدِّم لنا أيَّ وصف للرجل. أعتقد أنك لا تمتلك أيَّ دليل على هويته، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك: «لدينا فقط آثارُ أقدامه، وتلك الزغبة التي استخرجتها من الجزء الداخلي لمفتاح القفل الخاص به، والتي كنتُ أفحصها لتوِّي. ومن تلك البيانات أخلُصُ إلى أن الرجل قصيرٌ ونحيلٌ إلى حدٍّ ما، وبه شيءٌ من عرج. وهو يسير بمساعدة عصًا غليظة لها مقبضٌ — وليس انعقافًا — في أعلاها ويحملها الرجل في يده اليُسرى. وأعتقد أن ساقه اليُسرى مبتورة من فوق الركبة، وأنه يرتدي طرفًا صناعيًّا. وهو كبير في السن، وحليق، وله شعر أبيض مصبوغ بصبغة سوداء مائلة للرمادي، وهو أصلع بصورة جزئية، وعلى الأرجح أنه يمشِّط خصلة شعر على الجزء الأصلع من رأسه؛ وهو يستخدم النشوق ويحمل في جيبه مشطًا رصاصيًّا.»

وبينما كان ثورندايك يُقدِّم وصف الرجل، كان فم المفتش ينفتح بالتدريج حتى بدت على وجهه في النهاية أماراتُ الاندهاش الشديد. لكنَّ أثرَ ذلك الوصف الذي قدَّمه كان لافتًا للنظر أكثر على السيدة هالدين. فبعد أن انتصبت من الكرسي الذي كانت تجلس عليه، اتكأت على الطاولة وحدَّقت بثورندايك في تعبير عن الإجلال — بل وحتى عن الرهبة — وحين أنهى ثورندايك وصفه، غاصت مرة أخرى في كرسيها، ويداها مقبوضتان ثم استدارت إلى السيدة هانشو.

وقالت لاهثة: «جين! إنه بيرسي، أخو زوجي! لقد وصفه بدقة، لقد ذكر حتى عصاه ومشط الجيب الخاص به. لكنني كنتُ أعتقد أنه في شيكاجو.»

قال ثورندايك وهو يُعيد جمْعَ محتويات حقيبته بسرعة: «إذا كانت هذه هي الحال، فمن الأفضل أن نذهب في الحال.»

قالت السيدة هانشو: «لدينا العربة على الطريق.»

أجابها ثورندايك: «شكرًا لك، ولكننا سنركب دراجتَينا، ويمكن للمفتش أن يستعير دراجة ويليت. سنخرج من الخلف عبر مسار السيارة، والذي سيلتحم بالطريق فيما بعد.»

قالت السيدة هالدين: «إذن سنتبعكم في العربة. هيا بنا يا جين.»

وانصرفت السيدتان فيما أعددنا دراجاتنا وأضأنا مصابيحنا.

قال ثورندايك: «اسمح لي أيها المفتش أن نأخذ المفتاح معنا.»

قال الضابط معترضًا: «هذا غير قانوني. ليس لدينا سلطة تخوِّلنا فعل ذلك.»

قال ثورندايك: «هذا غير قانوني إلى حدٍّ كبير، لكن من الضروري فعل ذلك؛ والضرورة لا تعرف القانون، مثلما يعرف قاضي الصلح العسكري الخاص بكم.»

ابتسم المفتش وخرج بعد أن رمقني بنظرات مرتعشة فيما كان ثورندايك يوصد الباب بمفتاحه الهيكلي. وحين كنا على وشك أن نتحول إلى الطريق، رأيتُ نور العربة خلفنا، ورحنا نقود الدراجات بوتيرة سريعة، متبعين الآثار بسهولة على الطريق الممهد المبلل.

قال لي المفتش على انفراد بينما كنا نقود: «ما يشغل تفكيري حقًّا هو كيف عرف أن الرجل أصلع. أكان ذلك من آثار أقدامه أم من مفتاح القفل؟ وأمرُ ذلك المشط أيضًا، كان استنتاجًا احترافيًّا مذهلًا.»

كان أمر تلك النقطتين واضحًا جدًّا لي في ذلك الوقت؛ فقد رأيتُ الشعرتين وبُصَيلَتَيه الضامرتين، كتلك التي يجدها المرء على هامش رقعة صلعاء؛ ولا شك أن المشط كان قد استُخدِم لغرضين هما تغطية الرقعة الصلعاء بالشعر وكذلك صبغ الشعر بصبغة كبريتيد الرصاص. لكن أمر العصا ذات القبضة والطرف الاصطناعي قد تسبَّبَا في حيرتي كثيرًا حتى إنني سرعان ما لحقتُ بثورندايك مطالبًا إياه بتفسير.

قال ثورندايك: «أمر العصا في غاية البساطة. النهاية المعدنية للعصا ذات المقبض تبلَى بالتساوي من جميع جهاتها؛ أما تلك المستخدمة في العصا المعقوفة فتبلى عند جانب واحد، وهو الجانب المقابل لجهة الانعقاف. وقد أوضحت آثارُ نهاية العصا أنها كانت محدَّبة بالتساوي؛ ومن ثَم فلم تكن العصا معقوفة. وعن الأمر الآخر فهو أكثر تعقيدًا. في البداية، القدم الاصطناعية تتسبب في آثار مميزة للغاية، وذلك بسبب الغياب التام للمرونة فيها، كما سأريك غدًا. لكن الساق الاصطناعية المثبتة من عند أسفل الركبة تكون مثبَّتة بصورة كبيرة، في حين أن الساق الاصطناعية المثبَّتة فوق الركبة — أي المربوطة بمفصل ركبة اصطناعي بزنبرك — تكون أقل موثوقية. والآن، هذا الرجل كان يرتدي قدمًا اصطناعية، ولا شك أنه كان لا يثق بمفصل الركبة، كما يتضح من خلال تثبيته إياه عن طريق الاتكاء على العصا في نفس الجانب. فلو أنه كان يمتلك ساقًا ضعيفة فقط، كان سيتكئ على العصا بيده اليُمنى — مع الاعتماد على التأرجح الطبيعي للذراع — إلا لو كان الرجل أعرج جدًّا، ومن الجليِّ أنه لم يكن كذلك. ومع ذلك، كانت تلك مسألة احتمالات، رغم أن الاحتمال كبير جدًّا. وأنت تفهم بالطبع أن جزيئات الألياف الخشبية وحبيبات النشا كانت حبيبات نشوق فاسدة.»

كان هذا التفسير، كالتفسيرات الأخرى، بسيطًا جدًّا حين يسمعه المرء، رغم أنني استغرقتُ وقتًا كثيرًا في التفكير فيه بينما كنا نقود على الطريق المظلم ومصباح ثورندايك يومض في الأمام والعربة تهدر على الطريق في أعقابنا. لكن كان هناك الكثير من الوقت للتفكير؛ ذلك أن وتيرتنا جعلت المحادثة مستحيلة، واستمررنا في قيادة الدراجات، قاطعين الميل تلو الآخر، حتى آلمتْني ساقاي من التعب. ورحنا نقطع الطريق مارين بالقرية تلو الأخرى، وكنا نفقد الأثر في الشوارع المكتظة، لكننا كنا نجده مرة أخرى وبكل سهولة حين نعود إلى الطريق الريفي، حتى فقدناه تمامًا في الشارع الرئيسي المرصوف لمدينة هورسفيلد الصغيرة. وقد قُدْنا دراجاتنا عبر طرقات المدينة وحتى الطريق الريفي؛ لكن وعلى الرغم من وجود عدة آثار لسيارات كانت قد عبرت به، فإن ثورندايك نفى أن يكون أيٌّ منها هو مبتغانا، حيث قال: «لقد فحصتُ آثار تلك الإطارات حتى كدتُ أحفظها عن ظهر قلب. لا، إنه إما يكون في المدينة، أو أنه غادرها من طريق جانبي.»

لم يكن أمامنا سوى أن نضع الدراجات والجواد في الفندق، فيما رحنا نسير في الأرجاء للاستطلاع؛ وبينما كنا نسير في الشوارع الواحد تلو الآخر، كانت أعيننا مثبتة على الأرض باحثين بلا جدوى عن أثر للسيارة المفقودة.

وفجأة وعند باب متجر أحد الحدادين، توقف ثورندايك. كان المتجر مفتوحًا حتى ساعة متأخرة لأجل وضع حدوة لحصان يجرُّ عربة، وكان صاحب الحصان قد ابتعد به للتوِّ وخرج صاحب المتجر ليتنفس بعض الهواء العليل. اقترب منه ثورندايك في لطف.

وقال له: «مساء الخير. أنت الرجل الذي أردتُ أن أقابله. لقد تهتُ عن عنوان صديق لي، والذي أعتقد أنه زارك ظهر اليوم؛ إنه رجل أعرج ويسير بمساعدة عصا. أعتقد أنه أراد منك أن تفتح له قفلًا أو أن تصنع له مفتاحًا.»

قال الرجل: «أوه، أنا أتذكره! أجل، كان قد فقد مفتاح قفله، وأراد أن أفتح له القفل حتى يتمكن من الدخول لمنزله. كان عليه أن يترك سيارته في الخارج حين يأتي إلى هنا. لكنني أخذتُ بعض المفاتيح معي، وأعددتُ له واحدًا.»

ثم أرشدَنا إلى منزل في نهاية أحد الشوارع القريبة، وبعد أن شكرناه انطلقنا بروح معنوية عالية.

سألت ثورندايك قائلًا: «كيف عرفتَ أنه زار الحداد؟»

«لم أعرف؛ لكن كانت هناك علامة عصًا وعلامة جزء من قدم يسرى على التراب الناعم بداخل المدخل، وكان أمر زيارته للحداد طبيعيًّا؛ لذا فقد غامرت بتلك المحاولة.»

كان المنزل يقف منعزلًا عند النهاية القصوى لشارع به منازل متناثرة، وكان يحيط بالمنزل جدارٌ عالٍ، وفي ذلك الجدار ومن الجهة المواجهة للشارع، كان هناك بابٌ وبوابة كبيرة لمرور العربات. تقدمنا نحو الباب وأخرج ثورندايك من جيبه المفتاح المختَلَس، وجرَّبه في القفل، فدخل على نحو جيد، وحين أداره وفتح الباب، دخلنا إلى فناء صغير. وبعد أن عبرناه، وصلنا إلى الباب الأمامي للمنزل، ولحُسنِ الحظ أن المفتاح معنا يتناسب مع قفله؛ وبعد أن فتح ثورندايك هذا الباب، دخلنا مجتمعين إلى الردهة. سمعنا في الحال صوتَ بابٍ يُفتح بالأعلى، وجاء صوت رفيع حاد يقول:

«مرحبًا! مَن بالأسفل؟»

تَبِع الصوتَ ظهورُ رأس عبر الدرابزين ذي الأعمدة التزيينية.

قال المفتش: «أنت السيد بيرسي هالدين حسبما أعتقد.»

وحين نطق المفتش بذلك الاسم، انسحبت الرأس، وسمعنا صوتَ خطوات سريعة، تَبِعها صوتُ طقطقة عصا على الأرض. بدأنا نصعد السلم، وكان المفتش يتقدمنا، حيث إنه هو المسئول المخوَّل؛ لكننا لم نكد نصعد بضع درجات، حين قفز أمامنا على بسطة السلم رجلٌ قصير بغيض وشرس، وكان يُمسك في إحدى يديه بعصًا غليظة، وفي الأخرى بمسدس كبير للغاية.

وصاح وهو يوجِّه المسدس نحو المفتش: «إن تحرَّك أيٌّ منكم خطوةً أخرى، فسأُطلق النار، وحين أُطلق فإنني أصيب.»

بدا الرجل كما لو كان يعني تمامًا ما يقوله، ومن ثَم فقد توقفنا فجأة، فيما شرع المفتش في التفاوض.

قال المفتش: «والآن ما جدوى هذا يا سيد هالدين؟ لقد انتهت اللعبة، وأنت تعرف ذلك.»

ردَّ الآخر الشرس: «اخرجوا من منزلي، وابتعدوا عنه، وإلا فسيكون عليَّ دفنكم في حديقتي.»

نظرتُ حولي لأتشاور مع ثورندايك، وقد انتابتني الدهشةُ حين وجدتُ أنه اختفى عبر باب الردهة المفتوح على ما يبدو. وكنتُ أفكر في الاتجاه الذي سلكه حين حاول المفتش أن يعيد التفاوض، لكن سرعان ما قاطعه الآخر.

قال السيد هالدين: «سأعدُّ حتى خمسين، وإذا لم تذهبوا، فسأُطلق النار.»

بدأ يعدُّ بتروٍّ، ونظر إليَّ المفتش في حيرة تامة. كانت السلالم طويلة، وكانت جيدة الإضاءة بالغاز؛ لذا فكانت مباغتة الرجل أمرًا مستحيلًا. وفجأة، خفق قلبي بقوة وانقطعت



تم بنجاح الإمساك بالغريب.

أنفاسي؛ ذلك أن رجلًا ظهر من باب مفتوح خلف طريدنا بهدوء وبطءٍ واتجه نحو بسطة السلم. كان الرجل هو ثورندايك قد خلع حذاءه وسترته.

تسلل ثورندايك ببطء وخفة كالقطة حتى صار على بعد ياردة واحدة من الرجل الهارب غير الواعي له، وكان لا يزال صوتُه الحادُّ يدوي بنبرة رتيبة وهو يعدُّ الثواني التي حددها.

«واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون ...»

ثم بعد ذلك وقعت حركةٌ سريعة خاطفة، وصيحة، وطلقة رصاص، وجصٌّ متساقط بكثافة، ثم سقط المسدس يتدحرج على السلم. هرعتُ والمفتش إلى الأعلى، وفي غضون لحظة، أعلن صوت غلق الأصفاد على يد السيد هالدين أن اللعبة قد انتهت فعلًا.

بعد خمس دقائق كان الصبي فريدي يدخل على كتفَي ثورندايك إلى حجرة الجلوس الخاصة بفندق بلاك هورس، وهو نصف ناعس لكنه كان مبتهجًا بشدة. صاحب دخوله صيحات الفرح، وكاد الصبي يختنق من شلال القبلات الذي صبته عليه والدته. وفي النهاية، استدارت السيدة هالدين المندفعة فجأة نحو ثورندايك وأمسكت بكلتا يديه، وللحظة كنتُ آمل أن تُقبِّلَه هو أيضًا. لكنها خلت سبيله، ولم أتعافَ أنا من خيبة الأمل حتى الآن.

الفصل الثالث

# علم الأنثروبولوجيا والجريمة

لم يكن ثورندايك قارئًا للجرائد، فقد كان ينظر بازدراء شديد إلى كل أشكال الكتابة المتنوعة والمختلفة التي تنزع — في رأيه — لأن تُخرب عليه عادةَ التتابع في الجهد العقلي وذلك من خلال تقديم سلسلة غير منظمة من المعلومات غير المرتبطة.

وقد قال لي ذات مرة: «من المهم للغاية أن تعتاد على اتباع تسلسلٍ محدد من الأفكار والاستمرار في ذلك حتى النهاية، بدلًا من أن تنتقل بتراخٍ من موضوع غير منتهٍ إلى آخر مثله؛ كما ينزع قارئ الجرائد. ولكن لا ضرر من أن تحصل على الجريدة يوميًّا، طالما أنك لا تقرؤها.»

ومن ثَمَّ فكان مناصرًا للحصول على الجريدة الصباحية، وكانت طريقتُه في التعامل معها مميزة. كانت الجريدة تُوضع على الطاولة بعد الإفطار وبجوارها قلمٌ رصاص أزرق ومقصٌّ مكتبي. كان ينظر عبر أوراق الجريدة نظرةً تمهيدية تُمكِّنه من أن يضع علامة باستخدام القلم على الفقرات التي سيقرؤها، وبعد ذلك كان يقصُّ تلك الفقرات وينظر فيها، وبعدها كان إما يتخلَّص منها أو يُلصقها في دفتر مفهرس.

كانت تلك العملية بأكملها تستغرق في المتوسط ربع ساعة.

وفي صباح اليوم الذي أتحدث عنه الآن، كان مشغولًا بفعل ما أتيتُ على ذكره. كان قد انتهى من وضع العلامات باستخدام القلم، وصوت المقص يُعلن عن المرحلة الأخيرة من مراحل عمله. بعد ذلك توقف عند فقرة كان قد قصَّها لتوِّه، وبعد أن نظر فيها للحظة ناولني إياها.

وقال معلِّقًا: «جريمة سرقة أخرى لقطعة فنية. إن جرائم السرقة تلك لهي أمور غامضة، أقصدُ بالنسبة للدافع وراءَها. لا يمكن للمرء أن يُصهر لوحة أو منحوتة عاجية،

ولا يمكن للمرء كذلك أن يعرضها للبيع في السوق بحالتها الأصلية. إن الصفاتِ التي تُعطيها قيمتها هي نفسها التي تجعلها غيرَ قابلة للبيع على الإطلاق.»

قلت: «لكنني أعتقد أن جامع التُّحف الفنية العنيد بحق — كالمهووس بجمع التُّحف الفخارية أو الطوابع — هو من سيشتري تلك البضاعة المسروقة على الرغم من أنه لن يجرؤَ على عرضها للبيع.»

«ربما. لا شك أن حبَّ التملك، أو الرغبة في امتلاك الأشياء، هو الدافع والمحرك الحقيقي وليس أيَّ غرض عقلاني ...»

في تلك اللحظة قاطع الحديثَ نقرٌ على الباب، وبعد لحظة سمح صديقي لرجلين بالدخول. كنت أعرف أحدهما وهو السيد مارشمونت، وهو محامٍ وقد عملنا معه أحيانًا؛ وكان الثاني غريبًا — كان يهوديًّا من النوع الأشقر — وكان حسنَ المظهر ويرتدي ثيابًا أنيقة ويحمل في يده صندوقًا صغيرًا، ويبدو عليه أنه في حالة من الانفعال الشديد.

قال السيد مارشمونت وهو يصافحنا بحرارة: «صباح الخير أيها السيدان. لقد أحضرتُ لكما أحدَ عملائي، وحين أذكر لكم أن اسمه سولمون لوف، فلن يكون من الضروري أن أذكر غرضنا من هذه الزيارة.»

أجاب ثورندايك: «من الغريب أننا كنا نناقش أمر قضيته في اللحظة التي طرقتما فيها الباب.»

قال السيد لوف باندفاع: «إنه أمر مريع! إنني مذهول! إنني محطَّم! إنني يائس!»

ثم وضع الصندوق الصغير على الطاولة بعنف، وقذف بنفسه في كرسي، ودفن وجهه بين يديه.

عارضه مارشمونت قائلًا: «حسبك، حسبك. ينبغي أن نكون شجعانًا، وينبغي أن نكون هادئين رابطي الجأش. أخبرِ الدكتور ثورندايك بقصتك، ولننظر ما رأيه فيها.»

ثم أسند ظهره إلى كرسيه، ونظر إلى موكله في شجاعة وصبر كاللذَين يعترياننا جميعًا بسهولة حين نتفكر في أمر مصائب الآخرين وبلاياهم.

صاح لوف بينما هبَّ واقفًا مرة أخرى: «لا بد وأن تساعدنا يا سيدي.» ثم أضاف محذِّرًا بلكنته الأصلية: «لا بد من ذلك حقًّا، وإلا فسيجنُّ جنوني. لكنني سأقص عليك ما حدث، ثم عليك أن تتصرف في الحال. يجب ألَّا تدخرَ جهدًا، ولا يهمك أيُّ تكلفة. المال لا يهمُّ، خاصةً إذا كان إنفاقه في محله.» ثم جلس مرة أخرى واستطرد في لغة إنجليزية ممتازة تتخللها لكنةٌ ألمانية خفيفة: «ربما تسمع عن أخي آيزاك.»

أومأ ثورندايك موافقًا.

«إنه جامع تُحَفٍ عريق وإلى حدٍّ ما تاجر، أي إنه يجني المال من هوايته.»

سأله ثورندايك: «ماذا يجمع؟»

أجابه زائرنا وهو يُشير بيده في لفتة تدل على الشمول: «كل شيء. كل شيء جميل وذو قيمة؛ اللوحات، والمنحوتات العاجية والمجوهرات والساعات والأعمال الفنية والأشياء المميزة، كلُّ شيء. إنه يهودي وهو يهوى الأشياء الثمينة والنفيسة التي ميزت عِرقنا منذ عهد الملك سولمون الذي سُميتُ على اسمه وحتى الآن. ومنزله الكائن في شارع هوارد بحي بيكاديلي هو متحف ومعرض فني في آنٍ واحد. إن غُرَفه تعجُّ بصناديق الأحجار الكريمة والمجوهرات الأثرية والعملات المعدنية والآثار التاريخية — وبعض هذه الأشياء لا تُقدَّر بثمن — والجدران مغطاة باللوحات وكلُّ لوحة منها هي تحفة فنية وعمل مميز. وهناك مجموعة رائعة من الأسلحة والدروع القديمة من الأصول الأوروبية والشرقية؛ وهناك كتب نادرة ومخطوطات، وأوراق بردي وآثار قيِّمة من مصر وبلاد آشور وقبرص وأماكن أخرى كثيرة. وهو متنوع الأذواق، ومعرفتُه بالأشياء النادرة والقَيِّمة تفوق معرفةَ أيِّ شخص على وجه الأرض. وهو لا يُخطئ أبدًا، فلا تنطلي عليه أيُّ خدعة تزوير، ومن ثَمَّ فإنه يحصل على مبالغ ضخمة ثمنًا لمقتنياته؛ ذلك أن الأعمال الفنية التي تُشترى من آيزاك لوف تُعدُّ أصلية وموثوقة بما يتخطَّى أيَّ مجال للشك.»

هنا توقَّف عن الكلام ليمسح وجهه بمنديل حريري ثم استطرد بنفس النبرة الفصيحة قائلًا:

«أخي غير متزوج. إنه يعيش لأجل مجموعاته الفنية ويعيش معها. والمنزل ليس بالكبير جدًّا، وتحتلُّ المجموعات الفنية معظمَ مساحته؛ لكن هناك مجموعة من الغرف المخصصة لسكنه، ولديه خادمان — رجل وزوجته — ليعتنيَا به. الرجل هو رقيب شرطة متقاعد وهو يتولَّى أمر الحراسة والرعاية؛ والمرأة هي مديرة المنزل والطاهية، إذا ما تطلَّب الأمر، لكنَّ أخي يعيش معظم وقته في النادي الخاص به. والآن سأُحدثك بأمر الكارثة التي حلَّت بنا.»

ثم مرَّر أصابعه خلال شعره، وتنفس بعمق، وأكمل حديثه قائلًا:

«ذهب آيزاك صباح الأمس إلى فلورنسا من خلال باريس، لكن الطريق الذي سيسلكه لم يكن محدَّدًا، وكان ينوي أن يُقسم رحلته إلى عدة مراحل كما تقتضي الظروف. وقبل

أن يغادر، جعلني مسئولًا عن مجموعاته الفنية، وتم الترتيب على أن أقطن مكانه في منزله أثناء غيابه، ومن ثَمَّ أرسلتُ أشيائي وتوليتُ زمام الأمور.

أنا رجل مرتبط كثيرًا بعالم الفن، أيها الدكتور ثورندايك، ومن عادتي أنني أقضي أمسياتي في النادي الخاص بي، الذين معظم أعضائه من الممثلين. وتبعًا لذلك فإنني كثيرًا ما أعود للمنزل متأخرًا؛ لكن في الليلة الماضية غادرت النادي في وقت مبكرًا عن المعتاد؛ ذلك أنني غادرت إلى منزل أخي قبل أن تدقَّ الساعة الثانية عشرة والنصف. لقد شعرت، كما قد تظن، بالمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقي؛ ويمكنك بالتالي أن تتخيَّل مدى الرعب والذعر واليأس الذي شعرتُ به حين فتحتُ باب المنزل بالمفتاح ووجدتُ مفتشَ شرطة ورقيب ورجلَ شرطة في الردهة. لقد وقعتْ حادثةٌ سرقة يا سيدي أثناء فترة غيابي القصيرة؛ وكانت القصة التي رواها عليَّ المفتش هي باختصار كالآتي:

لاحظَ المفتش حين كان يقوم بجولته في الحي عربةَ أجرة هنسومية فارغة يقودها سائقها برويَّة في شارع هوارد. لم يكن هناك شيءٌ لافت للنظر في هذا، لكنه وحين كان عائدًا بعد عشر دقائق تقريبًا، قابل العربةَ نفسها وهي تسير في الشارع نفسه والاتجاه نفسه وبالهدوء نفسه، وهنا شعر بأن ما يحدث هو أمر غريب، فدوَّن رقم العربة في دفتره الذي يحتفظ به في جيبه، وكان ٧٢٨٦٣، وكانت الساعة الحادية عشرة وخمسًا وثلاثين دقيقة.

وفي تمام الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، لاحظ رجلُ شرطة يسير في شارع هوارد عربةَ أجرة هنسومية وهي تقف قبالة باب منزل أخي، وبينما كان ينظر إليها، خرج رجل من المنزل وهو يحمل شيئًا ثم وضعه في العربة. هنا أسرع رجل الشرطة في سيره، وحين عاد الرجل إلى المنزل وخرج وهو يحمل ما بدا أنه حقيبة جلدية كبيرة وأغلق الباب خلفه في هدوء، ثارت شكوكُ رجل الشرطة وهرع يتقدم نحو العربة وهو ينادي على السائق كي يتوقف.

وضع الرجل ما كان يحمله في العربة وقفز إلى داخلها. ضرب السائق حصانَه بالسوط فبدأ يعدو، وهنا بدأ رجل الشرطة يجري نحو العربة وأخذ يُصفِّر بصفارته ويومض بمصباحه نحوها. وتبع الشرطي العربة وانعطف خلفها مرتين حتى وصل إلى شارع ألبيمارل، وتبعها حتى رآها وهي تنعطف نحو بيكاديلي حتى اختفت بالطبع. لكن الشرطي تمكن من تدوين رقم العربة والذي كان ٧٢٨٦٣ وهو يصفُ الرجل الذي رآه بأنه قصيرٌ وبدين ويظن بأنه لم يكن يرتدي أيَّ قبعة.

وحين كان في طريق عودته، قابل المفتش والرقيب حيث سمعوا صفيره، وبعد أن قصَّ عليهم ما حدث، هرع رجال الشرطة الثلاثة إلى المنزل حيث وقفوا يطرقون الباب ويضربون الجرس لبضع دقائق من دون أن يحصلوا على أي إجابة. والآن وقد تأججت شكوكهم، ذهبوا إلى الجزء الخلفي من المنزل، وعبروا الإسطبلات ثم تمكنوا بصعوبة بالغة من فتح نافذة والدخول منها إلى المنزل.

هنا سرعان ما تحولت شكوكهم إلى يقين؛ ذلك أنهم حين وصلوا إلى الطابق الأول سمعوا تأوهات غريبة مكتومة مصدرها إحدى الغرف والتي كان بابُها مغلقًا، رغم أن المفتاح كان في الباب. فتح الرجال الثلاثة البابَ ووجدوا حارس المنزل وزوجته على الأرض وظهرهما مواجه للجدار. وكان كلٌّ منهما مقيدَ اليدين والقدمين ورأس كلٍّ منهما مغطًّى بغطاء أخضر من الجوخ؛ وحين أزالوا هذين الغطاءين، وجدوا أن كلًّا منهما كان مكممًا بكمامة خفيفة لكنها فعالة.

وقد قصَّ كلٌّ منهما القصة نفسها. قال الحارس بأنه سمع ضوضاء، فتسلَّح بعصًا غليظة، ونزل السلم إلى الطابق الأول، حيث وجد بابَ إحدى الغرف مفتوحًا وبداخلها مصباح مشتعل. تقدَّم الحارس على أطراف أصابعه نحو الباب المفتوح، وأخذ ينظر بداخل الغرفة لكن أمسك به أحدُهم من خلفه وكاد يخنقه بضمادة وضعها على فمه، ثم أُوثق وكُمِّم وعُصبت عيناه بالغطاء الأخضر.

كان الشخصُ الذي هاجمه — والذي لم يرَهُ أبدًا — قويًّا وماهرًا للغاية، وتعامل معه بسهولة شديدة، رغم أن الحارس يتمتع بالقوة ويُجيد الملاكمة والمصارعة. حدث الأمر نفسه مع زوجته التي نزلت إلى الطابق الأول لتبحث عن زوجها. دخلت الفخ نفسه، فكُمِّمت وأُحكم وثاقها وعُصبت عيناها من دون أن ترى السارق أبدًا. لذا فإن الوصف الوحيد لدينا لهذا الشرير هو ما قدَّمه رجل الشرطة.»

قال ثورندايك: «ألم تسنح للحارس أبدًا فرصة لكي يستخدم عصاه؟»

«في الواقع، لقد سدَّد ضربة بظهر يده من فوق كتفه الأيمن والتي يعتقد أنها أصابت السارق في وجهه؛ لكن الأخير أمسكه من مرفقه ولوى ذراعه بقوة مما جعله يُسقط العصا من يده على الأرض.»

«هل شملت السرقة الكثير من الأشياء؟»

صاح السيد لوف: «آه! هذا هو ما لا يمكننا تحديده. لكنني أخشى أن الأمر كذلك. يبدو أن أخي قد سحب من البنك مؤخرًا مبلغ أربعة آلاف جنيه في صورة أوراق نقدية

وذهب. وغالبًا ما تحدث تلك العمليات الصغيرة نقدًا وليس بشيكات.» وهنا لمحتُ وميضًا في عين ثورندايك. ثم أكمل: «ويقول الحارس إن آيزاك كان قد أحضر عدة طرود قبل بضعة أيام، والتي تم وضعها مؤقتًا في خزانة محكمة الغلق. وقد بدا آيزاك مسرورًا للغاية بمقتنياته الجديدة وقد أخبر الحارس بأنها نادرة للغاية وذات قيمة كبيرة.

والآن تمت سرقة هذه الخزانة عن بكرة أبيها. لم يبقَ فيها أيُّ أثر سوى أغلفة الطرود؛ لذا وعلى الرغم من أن شيئًا آخر لم يمسَسْه أحد، يبدو واضحًا أن أشياء قيمتها أربعة آلاف جنيه قد سُرِقت؛ لكن حين ننظر إلى ما يتمتع به أخي من مهارة في الشراء، يُصبح من المحتمل جدًّا أن قيمة تلك الأشياء تعادل ذلك مرتين أو ثلاث وربما أكثر. إن ما حدث أمرٌ مريع للغاية، وسيُحمِّلني آيزاك المسئولية كاملة.»

قال ثورندايك: «أليس هناك أيُّ دليل آخر؟ ماذا عن العربة مثلًا؟»

تأوَّه لوف قائلًا: «أوه، العربة، لقد سقط هذا الدليل. لا بد وأن الشرطة أخطأت بالرقم فقد اتصلوا في الحال بكل أقسام الشرطة وبدأت المراقبة وكانت النتيجة أن تمَّ توقيفُ العربة التي تحمل الرقم ٧٢٨٦٣ ليلًا في طريق عودة قائدها للمنزل. لكن اتضح بعد ذلك أن العربة لم تغادر موقفَها منذ الساعة الحادية عشرة، وكان سائقها في الاستراحة طوال الوقت مع عدة رجال آخرين. لكنَّ هناك دليلًا؛ وهو لديَّ هنا.»

هنا أضاء وجه السيد لوف وهو يمدُّ يدَه نحو الصندوق الصغير.

وقال وهو يفك الرباط: «المنازل في شارع هوارد لها شرفات صغيرة من جهة النوافذ الخلفية للطابق الأول. والآن، لقد دخل السارق من إحدى هذه النوافذ، بعد أن تسلق ماسورة خاصة بتصريف ماء المطر وصولًا إلى الشرفة. وكانت تلك الليلة عاصفة كما تتذكر، وهذا الصباح وبينما كنت أغادر المنزل نادى عليَّ كبيرُ الخدم في المنزل المقابل لي وأعطاني هذه؛ لقد وجدها ملقاةً في شرفة منزله.»

ثم فتح الصندوق في زهو وأخرج منه قبعة ديربي رثَّة بعض الشيء.

وقال: «أظن أن من الممكن من خلال فحص القبعة أن نتعرف ليس على مجرد الصفات الجسدية لمرتديها، وإنما أيضًا صفاته الذهنية والأخلاقية، وحالته الصحية ووضعه المادي، وتاريخه وحتى علاقاته المنزلية والسمات المميزة للمكان الذي يسكن به. هل أنا محقٌّ في هذا الظن؟»

لاحت ابتسامة خافتة على وجه ثورندايك وهو يضع القبعة على ما تبقَّى من الجريدة. وعلَّق قائلًا: «ينبغي ألا نرفعَ سقف آمالنا، فمالكوا القبعات يتغيرون كما تعلم. قبعتك على سبيل المثال (وهي قبعة من اللباد صلبة في غاية الأناقة) أظنُّ أنها جديدة.»

قال السيد لوف: «لقد حصلت عليها الأسبوع الماضي.»

«هذا صحيح. إنها قبعة باهظة الثمن، من صناعة لينكولن آند بينيت، وأرى أنك كتبتَ اسمك بطريقة أنيقة باستخدام حبر التحديد الذي لا يُمحى على بطانتها. والآن، هل يعني وجود قبعة جديدة أن هناك سابقة لها قد جرى التخلص منها؟ ماذا تفعل بقبعاتك القديمة؟»

«مساعدي يحصل عليها، لكنها لا تناسب قياسه. أعتقد أنه يبيعها أو يتبرع بها.»

«رائع جدًّا. القبعة جيدة الصنع كقبعتك تعيش طويلًا، وتظل تُستخدم لفترة طويلة بعد أن تُصبح رثة؛ والاحتمالية تقول بأن الكثير من قبعاتك تنتقل من مالك إلى آخر؛ منك إلى مَن يسعون لأن يبدون مثل النبلاء، ومنهم إلى من لا يسعون لذلك. ويكون من المنطقي إذا ما افترضنا في هذه اللحظة وجود عدد كبير من المتشردين والعمَّال المؤقتين ممن يرتدون قبعات من صناعة لينكولن آند بينيت وعلى هذه القبعات علامة تحمل اسم إس لوف؛ وأي شخص سيفحص هذه القبعات — كما تقترح أنت — قد يذهب إلى استنتاجات خاطئة جدًّا فيما يتعلق بالعادات الشخصية للسيد إس لوف.»

ضحك السيد مارشمونت بصوت مسموع، ثم صمت فجأة في الحال بعد أن تذكَّر جديَّة الموقف.

قال السيد لوف بنبرة تنمُّ عن خيبة أمل كبيرة: «إذن في النهاية أنت تظن أن القبعة ليست ذات فائدة؟»

أجابه ثورندايك: «لم أَقُل ذلك. فقد نستنتج منها شيئًا. اتركها معي على أيِّ حال؛ لكن لا بد وأن تُعلمَ الشرطة أن القبعة معي؛ فهم سيرغبون في إلقاء نظرة عليها بالطبع.»

قال لوف متوسِّلًا: «إنك ستحاول استرجاع تلك الأشياء المسروقة، أليس كذلك؟»

«سأفكر مليًّا في القضية، لكنك تفهم — أو ربما يفهم السيد مارشمونت — أن هذه القضية ليست في مجال عملي. إنني خبير في مجال الطب الشرعي، وهذه القضية خارج هذا المجال.»

قال مارشمونت: «هذا هو ما قلتُه له تحديدًا، لكنك ستُسدي إليَّ صنيعًا كبيرًا لو أنك نظرتَ في الأمر.» ثم أضاف محاولًا إقناعه: «اجعلها قضية ذات بُعد ينتمي للطب الشرعي.»

كرر ثورندايك وعْدَه وغادر الرجلان.

ظل صديقي صامتًا لبعض الوقت بعد أن رحلَا وأخذ ينظر إلى القبعة بابتسامة ساخرة. ثم قال بعد برهة: «وكأننا خسرنا في لعبة وعلينا تنفيذ هذا العقاب، فينبغي علينا

أن نجد مالك «هذا الشيء الجميل للغاية».» ثم رفع القبعة بملقط ليراها تحت إضاءة أفضل، وبدأ ينظر إليها عن كثب أكثر.

ثم قال: «إننا ربما أخطأنا في حق السيد لوف في النهاية. لا شك أن هذه القبعة مميَّزة للغاية.»

قلت متفاجئًا: «إنها مستديرة وكأنها حوض. لا بد وأن رأس مالكها قد صُنع في ورشة خراطة.»

ضحك ثورندايك. وقال: «الأمر كالآتي. هذه قبعة صلبة، ومن ثَم فلا بد وأنها كانت تناسب قياسه تمامًا، وإلا فلن يكون بإمكانه ارتداؤها؛ كما أنها قبعة رخيصة، ومن ثَم فإنها ليست مصنوعة بمقاس محدد. لكن الرجل الذي لديه رأس بهذا الشكل لا بد وأنه كان متوافقًا تمامًا مع قبعته. لم تكن قبعة عادية لتناسبه مطلقًا.

والآن انظر لما فعله، لا شك أنه فعل ذلك بناءً على نصيحة من صديق له يعمل في مجال القبعات. لقد اشترى قبعة ذات مقاس مناسب، ثم قام بتسخينها، باستخدام البخار على الأرجح. ثم ضغطها على رأسه بينما كانت لا تزال ساخنة ولينة، وتركها تبرد وتأخذ حجمها الجديد قبل أن ينزعها. كل هذا واضح من التشوه في حافتها. والنتيجة المباشرة المهمة لهذا هي أن هذه القبعة تناسب مقاسَ رأسه تمامًا، أو هي في الواقع قالب مثالي لرأسه؛ وبإضافة هذه الحقيقة إلى أن نوعية هذه القبعة رديئة أو رخيصة، فإننا نجد أنها تعزز النتيجة المباشرة التالية وهي أن لهذه القبعة مالك واحد فقط على الأرجح.

والآن لنقلبها وننظر إلى الجانب الخارجي منها. ستلاحظ على الفور غياب الغبار القديم. وبالنظر إلى أن تلك القبعة كانت في الخارج طوال الليل، إذن فهي نظيفة قطعًا. كان مالكها معتادًا على مسحها بالفرشاة، ومن ثَمَّ فمن المحتمل أنه رجل نظيف ويحب النظام. ولكن إذا نظرت من خلال هذه العدسة فسترى جسيمات من مسحوق أبيض ناعم منثور على سطحها.»

ثم أعطاني عدسته، والتي من خلالها قد تمكنت وبكل وضوح من رؤية الجسيمات التي أشار إليها.

ثم أكمل حديثه قائلًا: «وتحت طية الحافة وفي ثنايا الرباط حيث لم تَصِل الفرشاة، ستجد أن المسحوق قد تجمَّع بكثافة، ويمكننا أن نرى أنه مسحوق ناعم للغاية، كما أنه شديد البياض كالدقيق. ماذا تستنتج من هذا؟»

«أقول إن الرجل له علاقة بصناعة ما. ربما كان يعمل في مصنع أو ما شابه أو يعيش على أيٍّ حال بالقرب منه، وعليه أن يمرَّ به باستمرار.»

«أجل، وأعتقد أن بإمكاننا أن نُفرِّق بين الاحتمالين. لو كان يمرُّ بالمصنع فحسب، لكان غبار المسحوق سيكون موجودًا على الجانب الخارجي للقبعة فقط؛ حيث سيكون الداخل محميًّا برأسه. لكن إذا كان الرجل يعمل بالمصنع، فسيكون غبار المسحوق بداخل القبعة أيضًا، حيث ستكون القبعة معلقة على حامل قبعات في جو مليء بالغبار، كما أن رأسه سيلتقط المسحوق أيضًا، ومن ثَم سيصل غبار المسحوق إلى داخل القبعة.»

ثم قلب القبعة مرة أخرى، وبينما أخذتُ العدسة المكبرة لأنظر إلى داخل القبعة الداكن، تمكنتُ بكل وضوح من تمييز عددٍ من الجسيمات البيضاء التي تتداخل مع النسيج.

قلت: «المسحوق بالداخل أيضًا.»

أخذ مني العدسة، وبعد أن تحقق من صحة قولي، استطرد في فحصه. وقال: «تلاحظ أن بطانة الرأس الجلدية متسخة بفعل بمادة دهنية، وهذا الاتساخ واضح أكثر في الجوانب والخلف. ومن ثَم فإن شعرَه دهنيٌّ بطبيعته، أو أنه يضع عليه مادة دهنية؛ ذلك أن هذا الاتساخ لو كان بفعل التعرُّق، لكان ظاهرًا أكثر عند الجبهة.»

ثم نظر بتلهف في الجزء الداخلي للقبعة، وفي النهاية أزال بطانة الرأس، فظهر على وجهه في الحال بعضُ الارتياح.

وصاح قائلًا: «هه! هذه ضربة حظ. كنت أخشى أن يتغلب علينا صديقُنا الأنيق والمحب للنظام بفرشاته. ناولني ملقط التشريح الصغير يا جيرفس.»

ناولتُه الأداة، وشرع يلتقط برقة كبيرة من المسافة خلف بطانة الرأس عدة شعيرات قصيرة ثم وضعها بحرص بالغ على ورقة بيضاء.

قلت وأنا أبرزها إليه: «هناك المزيد على الجانب الآخر.»

أجابني بابتسامة: «أجل، لكن ينبغي أن نترك بعضها إلى الشرطة. كما تعرف، لا بد وأن يحصلوا على نفس الفرصة التي حصلنا عليها.»

قلتُ وأنا أنحني على الورقة: «لكن بكل تأكيد هذه الشعيرات هي أجزاء من شعر جواد!»

ردَّ عليَّ: «لا أعتقد ذلك، لكن المجهر سيوضح ذلك. على أي حال، هذا هو نوع الشعر الذي يجب أن أتوقع أن أحصل عليه من رأسٍ بذلك الشكل.»

قلت: «حسنًا، إنه خشنٌ بشكل غريب، وهناك اثنتان من الشعيرات بلون أبيض تقريبًا.»

«أجل، شعر أسود بدأ يتحول نحو الأبيض. والآن، وبعد أن حصلنا على مثل هذه النتائج المشجِّعة من فحصنا المبدئي، فسنُكمل بأساليب دقيقة ومتقنة أكثر؛ ولا ينبغي علينا أن نُضيع وقتًا لأن الشرطة سرعان ما ستأتينا لتأخذ منا هذا الكنز.»

ثم طوى الورقة التي تحتوي على الشعيرات بحرص، وحمل القبعة بكلتا يديه وكأنها شيءٌ مقدَّس، وصعد معي إلى المعمل في الطابق التالي.

وقال لمساعده في المعمل: «والآن يا بولتون، لدينا هنا عينةٌ للفحص، والوقت من ذهب. أولًا، نريد جهاز استخراج الغبار الذي اخترعتَه.»

هرع الرجل الضئيل الحجم نحو خزانة وأخرج منها جهازًا من صنعه هو، وهو أشبه بنموذج مصغَّر للمكنسة الكهربائية. كان الجهاز مصنوعًا من مضخة دراجة تعمل بالضغط عليها بالقدم وذلك عن طريق عكس الصمام الكباس، ومثبتًا به فوهة زجاجية ومستقبل زجاجي صغير قابل للفصل لتجميع الغبار، وفي نهايته أنبوب معدني مرن.

قال ثورندايك وهو يضع القبعة على طاولة العمل: «سنجمع الغبار من الجانب الخارجي أولًا. هل أنت مستعدٌّ يا بولتون؟»

حرَّك المساعد قدمه نحو دواسة المضخة وأعمل المقبض بقوة، فيما قام ثورندايك بتحريك الفوهة الزجاجية ببطء على حافة القبعة وتحت حافتها الملوية. وبمرور الفوهة، اختفى الغبار الأبيض وكأنه بفعل سحر، وأصبح النسيج نظيفًا وشديد السواد، وفي نفس اللحظة أصبح المستقبِل الزجاجي مغبرًّا بالرواسب البيضاء.

قال ثورندايك: «سنترك الجانب الآخر للشرطة.» وعندما توقف بولتون عن الضغط، فصل المستقبِل، ووضعه على ورقة كتب عليها بالقلم الرصاص: «الجانب الخارجي» وغطاها بناقوس زجاجي صغير. وبعد أن تمَّ تركيبُ مستقبِل جديد، تم سحب الفوهة الآن على البطانة الحريرية للقبعة، ثم خلال المسافة خلف بطانة الرأس الجلدية من أحد الجوانب؛ فكان الغبار الذي تجمَّع في المستقبِل رماديَّ اللون ذا قوام زغبي، وكان يحتوي على شُعيرتين إضافيتين.

قال ثورندايك بعد فصل المستقبِل الثاني ووضعه جانبًا: «والآن، نريد قالبًا للجزء الداخلي للقبعة، وينبغي أن نفعل ذلك بأسرع الطرق؛ لا يوجد وقت لصُنْع قالب ورقي.» ثم أضاف وهو يمدُّ يدَه ليُمسك بأطراف أصابعه قدمةً كبيرة والتي وضعها في الجزء الداخلي من القبعة: «إنه رأسٌ مثير للدهشة كثيرًا؛ ستُّ بوصات وتسعة أعشار البوصة طولًا وستُّ بوصات وستة أعشار البوصة عرضًا، ما يعطينا ...» ثم قام بعملية حسابية سريعة على قصاصة ورقية وقال: «قياس رأس كبير بشكل استثنائي طولها ٩٥,٦.»

أخذ بولتون القبعة الآن وبعد أن لصق بها من الداخل قطعة من المناديل الورقية المبللة، خلط وعاءً صغيرًا من الجصِّ وببراعة فائقة صبَّ السائل السميك في المنديل المبلل، والذي سرعان ما تصلَّب في موضعه. وبتكرار هذا مرة ثانية وثالثة نتجت حلقةٌ واسعة من الجص الصلب بسمك بوصة واحدة مما شكَّل قالبًا مماثلًا تمامًا للجزء الداخلي من القبعة، وفي دقائق قليلة وبفعل الانكماش الطفيف في الجصِّ صار القالب مفكوكًا بما يكفي ليسمح بإخراجِه ووضْعِه على لوحٍ ليجفَّ.

انتهينا في الوقت المناسب، ذلك أنه وبينما كان بولتون يُزيل القالب، رن الجرس الكهربائي — والذي كنتُ قد شغلتُه ليرنَّ في المعمل — وأعلن عن وجود زائر وحين هبطتُ إلى الطابق السفلي وجدتُ رقيبَ شرطة ينتظر ومعه مذكرة من مفوِّض الشرطة ميلر يطلب فيها تسليمَ القبعة في الحال.

قال ثورندايك حين غادر رقيب الشرطة ومعه الصندوق الصغير: «ما سنفعله بعد ذلك هو أن نقيس سمكَ الشعيرات ونصنع مقطعًا عرضيًّا لإحداها ونفحص الغبار. سنترك أمر المقطع العرضي لبولتون ليقوم به، وبما أن عامل الوقت مهمٌّ هنا يا بولتون، فمن الأفضل أن تُسجِّيَ الشعيرة في صمغ كثيف وتُجمدها وتضعها على جهاز الميكروتوم، وأن تكون حذرًا للغاية وأنت تقطع المقطع بزوايا مناسبة لطول الشعيرة، وفي تلك الأثناء، سنذهب نحن للعمل على المجهر.»

وقد ثبت بالقياس أن الشعيرات لها قُطرٌ كبير على نحو مذهل يصل إلى ١ / ١٣٥ من البوصة، أي ضعف قُطر الشعيرات العادية، رغم أنها لا شك بأنها شعيرات آدمية. وأما عن الغبار الأبيض، فقد مثَّل لنا مشكلة لم يتمكن حتى ثورندايك من حلِّها. لقد اتضح من خلال استخدام الكواشف أن الغبار هو كربونات الكالسيوم، لكنَّ مصدرَه ظل لغزًا لبعض الوقت.

قال ثورندايك وعينه مثبتة على المجهر: «يبدو أن الجسيمات الأكبر شفافة، وبلورية وطبقية بصورة واضحة في تركيبها. إنه ليس طبشورًا، ولا مسحوقًا مبيضًا، وليس بأي نوع من أنواع الإسمنت. فماذا يمكن أن يكون؟»

قلت مقترحًا: «أيمكن أن يكون نوعًا من الصدف؟ على سبيل المثال …»

صاح ثورندايك وهو يهبُّ من مكانه: «بالطبع! لقد أصبتَ كبد الحقيقة يا جيرفس، كما تفعل دومًا. لا بد أنه صدف اللؤلؤ. يا بولتون، أعطني زرَّ قميص مصنوعًا من اللؤلؤ من صندوق البواقي.»

جاء بولتون الحذر بالزر، والذي وُضع في وعاء حجري، وسرعان ما تحول بعد طحنه إلى مسحوق، فأخذ ثورندايك حفنة صغيرة منه ووضعها تحت المجهر.

وقال: «هذا المسحوق أكثر خشونة بطبيعته من العينة التي لدينا، لكن التشابه بينهما في الطابع لا يمكن أن يكون محلَّ شك. يا جيرفس، أنت ذكيٌّ للغاية. انظر إلى العينة فحسب.»

رمقتُ العينة تحت المجهر ثم أخرجتُ ساعتي وقلت: «أجل، في رأيي أنه لا شك في ذلك؛ لكن ينبغي أن أذهب الآن. لقد حثَّني أنستي على أن أكون في المحكمة بحلول الحادية عشرة والنصف على الأكثر.»

وفي ممانعة تامة، جمعتُ ملحوظاتي وأوراقي وغادرتُ تاركًا ثورندايك ينسخ بكل دأب عناوينَ من دليل مكتب البريد.

حبسني عملي في المحكمة عنه لبقية اليوم، وكان الوقت قد قارب على موعد العشاء حين وصلتُ إلى منزلنا. لم يكن ثورندايك قد وصل بعد، لكنه أتى بعد نصف ساعة، وكان متعبًا وجائعًا، ولم يكن كثيرَ التحدث.

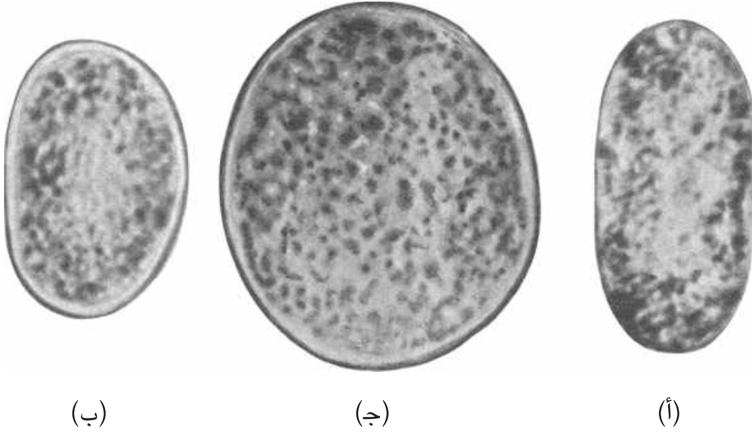
قال مكررًا سؤالي حين طرحتُه عليه: «ماذا فعلت؟ لقد سرتُ لأميال على الأرصفة المتسخة، وزرتُ كل قاطع لصدف اللؤلؤ في لندن، باستثناء واحد، ولم أجد ما كنت أبحث عنه. لكن المصنع الوحيد المتبقي لصدف اللؤلؤ هو الأكثر أرجحية وأعتزم أن أبحث فيه غدًا صباحًا. وفي غضون ذلك، أكملنا البيانات التي نجمعها وذلك بمساعدة بولتون. هاك نسخة لجمجمة صاحبنا وقد استقيناها من القالب؛ أنت تلاحظ أنها مثالٌ صارخٌ على الجمجمة القصيرة، وهي غير متماثلة بصورة ملحوظة. وهذا مقطع عرضي لشَعره، وهو دائريٌّ إلى حد كبير — على عكس شعرك أو شعري والذي سيكون بيضاويًّا. ولدينا كذلك مسحوق صدف اللؤلؤ المأخوذ من الجزء الخارجي من القبعة، ومن الجزء الداخلي منها لدينا مسحوقٌ مشابه مختلط بأنسجة مختلفة وبعض حبيبات نشا الأرز. تلك هي البيانات التي لدينا.»

قلت مقترحًا: «أتفترض في النهاية أن القبعة ليست للسارق؟»

«سيكون هذا مثيرًا للضجر، لكنني أعتقد أنها ملك للسارق، وأعتقد أنني أستطيع أن أخمن طبيعة الكنوز الفنية التي سُرقت.»

«ألا تنوي كشف الأمر لي؟»

أجابني: «يا صديقي العزيز. أنت لديك كافة البيانات. اكتشف الأمر بنفسك عن طريق استخدام قدراتك العقلية الألمعية. لا تستسلم للخمول العقلي.»




مقطع عرضي لشعر آدمي: (أ) لرجل زنجي؛ (ب) لرجل إنجليزي؛ (جـ) للسارق. كل المقاطع مكبَّرة ٦٠٠ مرة.

لقد حاولتُ باستخدام الحقائق التي بحوزتي أن أُشكِّل شخصية السارق الغامض، وفشلتُ في ذلك فشلًا ذريعًا؛ ولم أكن ناجحًا كذلك في مسعاي لتخمين طبيعة الأشياء المسروقة؛ ولم يكن حتى الصباح التالي حين انطلقنا في مسعانا وكنا نقترب من منطقة لايمهاوس أن عاد ثورندايك للحديث عن الموضوع.

قال ثورندايك: «سنذهب الآن إلى مصنع بادكوم ومارتن، وهما من مستوردي الصدف وقاطعيه، في طريق ويست إنديا دوكس. وإن لم أجد رجلي هناك، فسأسلِّم تلك الحقائق إلى الشرطة، ولن أُضيع المزيد من الوقت على هذه القضية.»

سألته: «كيف يبدو رجلك؟»

«إنني أبحث عن ياباني متقدم في العمر ويرتدي قبعة جديدة أو بالأحرى قلنسوة، ولديه كدمة على خدِّه أو صدغه الأيمن. وأبحث أيضًا عن ساحة لعربات الأجرة؛ لكننا هنا الآن في مكان المصنع، وبما أنه مغلق الآن لأنها ساعة الطعام، فسننتظر ونرى العمال وهم يخرجون قبل أن نقوم بأيِّ تحريات.»

سِرْنا ببطء أمام المبنى الطويل ذي الواجهة البيضاء، وكنا على وشك أن نستدير لنمرَّ بها مرة أخرى حين دوَّت صافرة بخارية وفُتحت بوابة صغيرة في البوابة الرئيسية

الكبيرة، وخرج منها دفق من العمال — كلٌّ منهم مغطًّى بمسحوق أبيض وكأنه طحَّان — نحو الشارع. سارعنا لنشاهد الرجال وهم يخرجون، واحدًا تلو الآخر من خلال البوابة الصغيرة، وكانوا يستديرون نحو اليمين أو اليسار باتجاه منازلهم أو مقهًى مجاور؛ ولكن لم يكن أيٌّ منهم يطابق المواصفات التي أمدَّني بها صديقي.

هدأ دفق العمال، وتوقف بعد فترة. وأُغلقت البوابة الصغيرة بصوت مدوٍّ، وبدا أن ثورندايك فشل في مسعاه مرة أخرى.

قال ثورندايك وقد بدت عليه ملامحُ الإحباط في نبرة صوته: «هل هؤلاء هم العمال جميعهم؟» لكن وبينما كان يتحدث، فُتحت البوابة الصغيرة مرة أخرى، وبرزت منها ساقُ أحدهم. تَبِع الساقَ ظهرٌ ورأسٌ كروي مثير للفضول يُغطيه شعرٌ رمادي ويعلوه قلنسوة من القماش وكلُّ هذا لرجل قصير كنز الجسم، وظل الرجل على هذه الحال فكان من الواضح أنه يتحدث مع شخص ما بالداخل.

أدار الرجل رأسه فجأة لينظر عبر الشارع؛ وأدركتُ في الحال من خلال بشرته الصفراء الشاحبة وعينَيه الضيقتين أن ملامح وجهه تدل على أنه ياباني. ظل الرجل يتحدث مدة دقيقة أخرى تقريبًا؛ ثم وبعد أن أخرج ساقه الأخرى من البوابة، استدار نحونا ورأيتُ حينها أن الجانب الأيمن من وجهه وفوق عظمة الوجنة البارزة كان متغيرَ اللون وكأنه بفعل كدمة شديدة.

قال ثورندايك وهو يستدير بحدة بينما كان الرجل يقترب: «هه! إما أن هذا الرجل هو المنشود أو أنها مصادفة غير معقولة.» ثم سار مبتعدًا بخطوات معتدلة، فسمح للرجل الياباني أن يتخطانا ببطء، وبعد أن تخطانا الرجل بمسافة كبيرة، أسرع ثورندايك في خطوته بعض الشيء، حتى يحافظ على مسافة معقولة بيننا وبين الرجل.

كان صديقنا يسير بخفَّة وسرعان ما استدار إلى شارع جانبي، وتبعناه بمسافة معقولة، وكان ثورندايك يُمسك بدفتره الصغير مفتوحًا، وبدا وكأنه يحاول أن يشاركني في حديث جادٍّ، إلا أنه كان يُثبت نظره على طريدته.

قال صديقي بعد أن اختفى الرجل فجأة: «إنه دخل إلى هناك! هذا المنزل ذو النوافذ التي إطارات ألواحها باللون الأخضر. سيكون هذا المنزل رقم ثلاثة عشر.»

وقد كان كذلك، وبعد أن تأكدنا من ذلك، أكملنا سيرنا، وأخذنا المنعطف التالي الذي سيؤدي بنا ثانيةً إلى الطريق الرئيسي.

وبعد عشرين دقيقة، وحيث كنا نسير أمام باب أحد المقاهي، خرج رجل وبدأ يملأُ رئتيه بالهواء في إشارة عن الارتياح والرضا. وكانت قبعته وملابسه مغطاةً بمسحوق أبيض كالعمال الذين رأيناهم وهم يخرجون من المصنع. فبادره ثورندايك بالحديث.

«أهذه مطحنة دقيق أعلى الطريق هناك؟»

«لا يا سيدي، إنها مطحنة صدف اللؤلؤ. وأنا أعمل بها.»

قال ثورندايك: «صدف اللؤلؤ؟ أعتقد أن هذه صناعة تستهوي الأجانب فقط. ألا تشاركني الرأي في ذلك؟»

«نعم، يا سيدي. إن العمل شاقٌّ للغاية. وليس لدينا سوى أجنبي واحد في المكان وهو ياباني الجنسية.»

صاح ثورندايك مندهشًا: «ياباني! حقًّا. أتساءل إن كان ذلك الرجل هو صديقنا العجوز كوتاي ...» ثم أضاف وهو يلتفت إليَّ: «أتذكر كوتاي؟»

«لا يا سيدي. اسم هذا الرجل هو فوتاشيما. كان هناك ياباني آخر بين العمال وهو شاب يُدعى إيتو، وكان رفيقًا لفوتاشيما، لكنه ترك العمل.»

«آه! لا أعرف أيًّا منهما. بالمناسبة، أليست هناك ساحة لعربات الأجرة هنا في الأرجاء؟»

«هناك ساحة في شارع رانكن حيث يُبقون الشاحنات الصغيرة وعربة أجرة أو اثنتين. ذلك الشاب الذي يدعى إيتو يعمل هناك الآن. وهو يعتني بالخيول ويقود شاحنة في بعض الأحيان. وتُعدُّ هذه بداية غريبة لشاب ياباني.»

«غريبة جدًّا.» ثم شكر ثورندايك الرجل على المعلومات واستكملنا سيرنا نحو شارع رانكن. كانت الساحة في تلك الساعة شبه مهجورة، ولم يكن بها سوى عربة قديمة بأربع عجلات وعربة هنسومية أخرى رثَّة.

قال ثورندايك وهو يدخل إلى الساحة: «يا لها من منازل قديمة وغريبة، تلك التي توجد خلف الساحة مباشرةً.» ثم قال وهو يُشير إلى أحد المنازل التي كان في إحدى نوافذها رجلٌ يراقبنا بصورة مريبة: «انظر إلى ذلك الجملون الخشبي. إنه من الأشياء المثيرة للاهتمام.»

سأل الرجل في نبرة فظة: «ماذا تريد أيها السيد؟»

أجاب ثورندايك: «إننا نشاهد فقط تلك المنازل القديمة الغريبة.» واتجه نحو مؤخرة العربة الهنسومية وفتح دفتره الصغير وكأنه سيرسم رسمة.




استراتيجية ثورندايك.

قال الرجل: «حسنًا، يمكنك أن تشاهدها من الخارج.»

قال ثورندايك بلطف: «أجل، يمكننا ذلك، لكننا لن نستطيع مشاهدتها بشكل جيد.»

في تلك اللحظة سقط الدفتر الصغير من يده ووقع على الأرض وتناثرت مجموعة من الأوراق على الأرض تحت العربة، وراح صديقنا في النافذة يضحك بشدة على ذلك.

غمغم ثورندايك: «لا تعجَل»، بينما هرعتُ لمساعدته في جمع الأوراق، وقد راح ثورندايك يجمعها بشكل بطيء وأخرق للغاية. ثم قال بينما وقف وفي يده الأوراق التي

أنقذها: «من حسن حظِّنا أن الأرض جافة.» وبعد أن دوَّن ملحوظة قصيرة، أدخل الدفتر في جيبه.

قال الرجل في النافذة معلِّقًا: «والآن من الأفضل أن تغادرَا.»

ردَّ عليه ثورندايك: «شكرًا لك. أعتقد ذلك.» ثم أومأ إلى الحارس بابتسامة وأخذ يُنفِّذ المقترح الكريم.

قال بولتون بينما كنا ندخل المنزل: «كان السيد مارشمونت هنا يا سيدي، مع المفتش بادجر ورجل نبيل آخر وقد قالوا بأنهم سيأتون مرة أخرى بحلول الخامسة.»

قال ثورندايك: «إذن وبما أن الساعة الآن هي الخامسة إلا الربع، فلا يزال أمامنا متسعٌ من الوقت لنغتسل بينما تُعدُّ لنا الشاي. إن جسيمات الغبار التي تُغلف الجو في لايمهاوس ليست على الإطلاق من صدف اللؤلؤ.»

وصل زائرونا في موعدهم بالتحديد، وكان الرجل الثالث هو السيد سولمون لوف كما افترضنا. لم أكن قد رأيتُ المفتش بادجر من قبل، وقد أثار إعجابي الآن لأنه أظهر نزعة لقلب معنى اسمه بمحاولة «اجتذاب» ثورندايك وهو أمر لم ينجح فيه بشكل كبير.

استهل المفتش حديثه بطريقة فكاهية قائلًا: «آمل أنك لن تُخيِّبَ ظنَّ السيد لوف. لقد فحصتَ تلك القبعة فحصًا جيدًا — لقد رأينا علاماتك عليها — وهو يتوقع أنك ستكون قادرًا على إرشادنا للرجل واسمه وعنوانه.» ثم ابتسم ابتسامة سلطوية إلى عميلنا المكلوم، والذي بدا أكثر شحوبًا وإنهاكًا مما كان عليه في صباح اليوم السابق.

سأل السيد لوف في لهفة مثيرة للشفقة: «هل … هل قمتم بأيِّ اكتشاف؟»

«لقد فحصنا القبعة بحرص بالغ، وأعتقد أننا توصلنا لبعض الحقائق ذات الأهمية.»

سأل المفتش الفكاهي: «هل أدى فحصكم للقبعة إلى أي معلومات عن طبيعة الأشياء المسروقة يا سيدي؟»

التفت ثورندايك نحو المفتش بوجه جامد لا تعلوه أيُّ تعبيرات وكأنه قناع خشبي.

ثم قال: «نعتقد أنه من الممكن أن المسروقات تشتمل على أعمال من الفنون اليابانية، مثل منحوتات النيتسوكي واللوحات وما إلى ذلك.»

تفوَّه السيد لوف بهتاف ينمُّ عن الدهشة والابتهاج، فيما تلاشت روحُ الفكاهة والدعابة فجأة من على محيَّا المفتش.

وقال: «لا أعرف كيف أمكنكم أن تكتشفوا ذلك، فنحن لم نعرف بذلك إلا منذ نصف ساعة، وقد أتت البرقيةُ من فلورنسا مباشرة إلى سكوتلاند يارد.»

قال السيد لوف في نفس النبرة التي تنمُّ عن التلهُّف: «ربما يمكنك أن تصفَ اللص لنا.»

قال ثورندايك: «يمكنني القول إن بإمكان المفتش إخبارنا بذلك.»

قال المفتش: «أجل، أعتقد ذلك. إنه رجل قصيرٌ قويُّ البنية ذو بشرة داكنة وشعره يتحول من الأسود إلى الرمادي. وله رأسٌ دائري للغاية وعلى الأرجح أنه عامل في أحد مصانع مساحيق التبييض أو الإسمنت. هذا هو كل ما نعرفه؛ سيدي، إن كان بإمكانك أن تُخبرنا بالمزيد، فسنكون مسرورين كثيرًا لذلك.»

قال ثورندايك: «يمكنني أن أقدِّم بعض المقترحات فقط، لكن ربما تجدونها مفيدة. على سبيل المثال، في البناية رقم ١٣ من شارع بيركت بمنطقة لايمهاوس، يعيش رجل ياباني يُدعى فوتاشيما وهو يعمل في مصنع بادكوم ومارتن لطحن صدف اللؤلؤ. وأرى أنكم إن أردتم زيارته، وطلبتم منه ارتداء القبعة التي تمتلكونها فعلى الأرجح أنها ستكون ملائمةً له.»

راح المفتش يُدوِّن بسرعة ما قاله في دفتره، بينما اتكأ السيد مارشمونت — وهو معجب قديم بثورندايك — في كرسيه وهو يضحك بصوت خافت ويفرك يديه.

واستطرد زميلي قائلًا: «ثم وفي شارع رانكن بمنطقة لايمهاوس، هناك ساحة لعربات الأجرة يعمل بها رجلٌ ياباني آخر يُدعى إيتو. ربما تودون أن تعرفوا أين كان إيتو في الليلة قبل السابقة؛ وإن صدف ورأيتم عربةَ أجرة هنسومية هناك — رقمها ٢٢٤٨١ — فافحصوها جيدًا. ففي إطار لوحة الأرقام ستجدون ستةَ ثقوب صغيرة، ربما كانت تلك الثقوب بها مسامير وتلك المسامير تحمل لوحةَ أرقام مزيفة. على أيِّ حال، ربما تودون التأكد من المكان الذي كانت فيه تلك العربة في تمام الحادية عشرة والنصف في الليلة قبل السابقة. هذا هو كلُّ ما لديَّ من مقترحات.»

قفز السيد لوف من كرسيه. وقال: «لنذهب، الآن — فورًا — ليس هناك وقتٌ لنُضيعه. أشكرك شكرًا جزيلًا أيها الدكتور، ألف مليون شكر لك. هيا بنا!»

وأمسك المفتش من ذراعه وجرَّه بالقوة نحو الباب، وبعد بضع لحظات سمعنا صوت أقدام زوارنا وهم يهبطون السلم.

قال ثورندايك بينما خفت صوت الأقدام: «لم يكن من المجدي تقديمُ أيِّ تفسيرات لهم، وربما ليس من المجدي معك أنت أيضًا، أليس كذلك؟»

أجبتُه: «على العكس، بل أنا منتظر لكي تُخبرَني وتُطلعَني على الأمر بوضوح.»

«في الواقع، استنتاجاتي في هذه القضية كانت بسيطةً للغاية، وهي مستقاة من حقائق أنثروبولوجية معروفة. أنت تعرف أن الجنس البشري مقسمٌ إلى أجناس ثلاثة؛ الأسود والأبيض والأصفر. ولكن بعيدًا عن اختلاف اللون، لكلٍّ من هذه الأعراق سماتٌ محددة فيما يتعلق بشكل الجمجمة وشكل محجرَي العينين والشعر.

وهكذا في الأعراق السوداء تكون الجمجمة طويلة ورفيعة وكذلك محجرَا العينين، ويكون الشعر مسطحًا وأشبه بالشريط، وعادة ما يكون ملفوفًا وكأنه زنبرك في ساعة. وفي الأعراق البيضاء تكون الجمجمة بيضاوية وكذلك محجرَا العينين، ويكون الشعر مسطحًا أو بيضاويًّا بعض الشيء ويميل لأن يكون مموجًا. وفي الأعراق الصفراء أو المنغولية تكون الجمجمة قصيرة ومستديرة ومحجرَا العينين كذلك، والشعر مفرودًا ودائريًّا. ومن ثَم، فللأعراق السوداء جمجمةٌ طويلة ومحجرَا عينين طويلين وشعر مسطح؛ وللأعراق البيضاء جمجمةٌ بيضاوية ومحجرَا عينين بيضاويين وشعر بيضاوي؛ وللأعراق الصفراء جمجمةٌ مستديرة ومحجرَا عينين مستديرين وشعر مستدير.

والآن في هذه القضية كنا نتعامل مع جمجمة قصيرة ومستديرة للغاية. ولكننا لا يمكن لنا أن ننتقل في الجدال من الأعراق إلى الأفراد؛ فهناك الكثير من الرجال الإنجليز الذين يتمتعون بجمجمة قصيرة. ولكنني حين وجدتُ شعرًا مستديرًا مرتبطًا بتلك الجمجمة، أصبح من الأكيد بالنسبة لي أن الشخص كان منغوليًّا. وقد عزَّز وجهةَ النظر هذه غبارُ صدفِ اللؤلؤ وحبيبات نشا الأرز المأخوذة من الجزء الداخلي من القبعة، ذلك أن صناعة صدف اللؤلؤ مرتبطةٌ خصيصًا بالصين واليابان، بينما تكون حبيبات النشا في قبعة الرجل الإنجليزي مرتبطةً على الأرجح بنشا القمح.

أما عن الشعر، فقد كان كما ذكرتُ لك مستديرًا، وكان قطرُ الشعرة كبيرًا جدًّا. والآن، لقد فحصتُ عدة آلاف من الشعرات من قبل، وكان أكثرها سمكًا ليابانيين؛ وكان الشعر المأخوذ من هذه القبعة في مثل سُمْك شعر اليابانيين. لكن فرضية أن السارق كان يابانيًّا قد تأكدت بالعديد من الطرق. لقد كان الرجل قصيرًا، رغم أنه كان قويًّا ونشيطًا، وكان اليابانيون هم الأقصر من بين الأعراق المنغولية وكذلك كانوا هم الأقوى والأكثر نشاطًا.

ثم تأتي مهارته المميزة في التعامل مع الحارس القوي — وهو رقيبُ شرطة متقاعد — والتي تُشير إلى فن المصارعة اليابانية الجوجيتسو، بينما كانت طبيعة السرقة متسقة مع القيمة التي يعطيها اليابانيون للأعمال الفنية. وفي النهاية، حقيقة أن مجموعة فنية واحدة هي التي قد وقعت عليها السرقة تُشير إلى طابع خاص — وربما كان قوميًّا — في

الشيء المسروق، فيما كانت قابليتُها للحمل والنقل — تذكر أن الأشياء ذات القيمة التي يبدأ سعرُها من ثمانية آلاف وحتى اثني عشر ألف جنيه أُخذت في اثنتين من حقائب اليد — فقد كانت متسقةً مع الأعمال اليابانية أكثر من الصينية، والتي تميل الأخيرة إلى أن تكون ضخمةً وثقيلة. ومع ذلك لم يكن ذلك سوى مجرد فرضية حتى رأينا فوتاشيما، وربما لا تكون تلك الفرضية صحيحة الآن. وربما أكون في النهاية مخطئًا بشأن كلِّ شيء.»

لكنه لم يكن مخطئًا؛ وفي هذه اللحظة تستقر في غرفة الاستقبال الخاصة بي قطعةُ نيتسوكي أثرية والتي أتت كنوعٍ من الشكر من السيد آيزاك لوف بشأن استعادة المسروقات من حجرة خلفية في البناية رقم ١٣ من شارع بيركت بمنطقة لايمهاوس. كانت القطعةُ بالطبع قد أُعطيت في المقام الأول إلى ثورندايك، لكنه أعطاها لزوجتي بدعوى أنه لولا إشارتي إلى غبار الصدف، لم يكن السارق ليُعرَف قط، الأمر الذي يبدو منافيًا للعقل ظاهريًّا.

الفصل الرابع

# الترتر الأزرق

وقف ثورندايك على الرصيف ينظر يمنة ويسرة في قلق متزايد بينما كانت لحظة مغادرة القطار تقترب.

وبينما كان يخطو بخطوات مترددة إلى داخل مقصورة تدخين فارغة بعد أن أشار الحارس برايته الخضراء، قال: «يا له من سوء حظ! أخشى أننا قد فوَّتنا صديقنا.» ثم أغلق الباب وبينما بدأ القطار يتحرك، أخرج رأسه من النافذة.

ثم أكمل قائلًا: «أتساءل إن كان هو هذا الرجل. إذا كان هو فعلًا، فقد لحق بالقطار بشقِّ الأنفس، وهو الآن في إحدى العربات الأخيرة في القطار.»

كان محلُّ تخمينات ثورندايك هو السيد إدوارد ستوبفورد من شركة ستوبفورد ومايرز، من شارع بورتشجل، وهي شركة لأعمال المحاماة، وكانت صلتُه بنا الآن سببها برقية وصلت إلى منزلنا في مساء اليوم السابق. كانت البرقية خالصة مقابل الرد، وتقول:

«هل يُمكنك أن تأتيَ إلى هنا غدًا لكي تتولَّى أمر الدفاع؟ القضية مهمة وكل التكاليف علينا. ستوبفورد ومايرز.»

وكان ردُّ ثورندايك بالإيجاب، وفي ساعة مبكِّرة من صباح اليوم وصلت برقيةٌ أخرى — لا شك أنها بُعثت ليلًا — وكانت تقول:

«سنُغادر إلى وولدهيرست بحلول الثامنة وخمس وعشرين دقيقة. من تشارينج كروس. سأُعرِّج عليك إن أمكن. إدوارد ستوبفورد.»

لكنه لم يُعرِّج علينا، وبما أنه لم يكن معلومًا لأيٍّ منَّا، فلم يكن بإمكاننا أن نعرف ما إن كان من بين الركاب على الرصيف.

كرَّر ثورندايك حديثه قائلًا: «يا لَه من سوء حظ شديد؛ لأن ذلك يمنعنا من التدقيق الأوَّلي في القضية وهو أمر غاية في الأهمية!» ثم راح يملأ غليونه وهو غارقٌ في التفكير،

وبعد أن نظر على الرصيف عند جسر لندن من دون أيِّ جدوى، أخرج الجريدة التي اشتراها من كشك الكتب، وبدأ يُقلِّب صفحاتِها، وكان يُعرِّج بعينَيه بسرعة على الأعمدة فيها، غيرَ عابئ بالإغراءات الصحفية في الفقرات أو المقالات.

ثم قال وهو لا يزال ينظر عبر الجريدة: «يا لَها من خسارة كبيرة أن نذهب إلى خضمِّ التحقيق من دون استعداد، أن نواجه التفاصيل من دون فرصة للتفكير في القضية بصفة عامة! على سبيل المثال …»

توقَّف عن الكلام ولم يُكمل جملتَه، وبينما رفعتُ نظري متسائلًا، رأيتُ أنه كان قد قلب الصفحة وكان يقرؤها بعناية.

ثم سرعان ما قال وهو يُعطيني الجريدة ويشير إلى فقرة في أعلى الصفحة: «يبدو أن هذه هي قضيتنا يا جيرفس.» وكانت الفقرة مقتضبة وعنوانها: «جريمة قتل فظيعة في كينت»، وكان نصُّها كالآتي:

> اكتُشفَتْ جريمة فظيعة صباح أمس في مدينة وولدهيرست الصغيرة، التي تقع على الخط الفرعي من تقاطع هالبيري. وقد اكتُشفت الجريمة على يدِ حمَّال كان ينظر في عربات القطار الذي كان قد وصل لتوِّه. وحين فتح باب مقصورة تابعة للدرجة الأولى، راعه أن وجد جثة امرأة تَرتدي ثيابًا عصرية وأنيقة ممدَّدة على الأرض. استُدعيتِ المساعدة الطبية في الحال، وحين وصل الطبيب المسئول الدكتور مورتون، تأكد من أن الوفاة لم تحدث إلا قبل عدة دقائق.
>
> وحالةُ الجثة لا تدَعُ مجالًا للشك أن جريمة قتل شنعاء قد ارتُكبت، وأن سبب الوفاة هو جرح غائر في الرأس، سببُه أداةٌ مدبَّبة استُخدمَت بعنف شديد، حيث أحدثت ثقبًا في الجمجمة ووصلت إلى المخ. والسرقة لم تكن هي الدافعَ وراء الجريمة، حيث تأكد ذلك من خلال حقيقة وجود حقيبة أدوات زينة باهظة الثمن على رفِّ الحقائب، كما أن مجوهرات السيدة القتيلة التي تشتمل على عدة خواتم ماسية ثمينة لم يمسَسْها أحد. وقد ذاعت إشاعةٌ مفادها أن الشرطة المحلية ألقت القبض على أحد الأشخاص.

علَّقتُ قائلًا بينما أعدتُ إليه الجريدة: «يا لَه من أمر شنيع، لكن الخبر لا يُقدِّم لنا الكثير من المعلومات.»

ردَّ ثورندايك موافقًا: «أجل، لكنه يُقدِّم لنا شيئًا لنفكر فيه. هناك جرح غائر في الجمجمة، وسببُه أداةٌ مدبَّبة، أي بفرض أنه لم يكن جرحًا ناتجًا عن رصاصة. والآن ما




اكتشاف الجريمة.

نوع الأداة التي يُمكن أن تتسبَّب في مثل هذه الإصابة؟ كيف يُمكن استخدام مثل تلك الأداة في مساحة ضيقة ومحدودة مثل عربة قطار، ومَن هو الشخص الذي يُمكن أن يحوز على مثل تلك الأداة؟ هذه أسئلة أولية من الجدير أن نفكر فيها، وأوصيك أن تفكر في إجابتها مع إضافة مشكلة الدافع المحتمل أيضًا — باستثناء السرقة — وأي ملابسات غير القتل يمكن أن تكون سببًا في تلك الإصابة؟»

علَّقتُ قائلًا: «إن مجموعة الخيارات فيما يتعلق بنوعية هذه الأداة ليست بالكبيرة.»

«إنها محدودة للغاية، ومعظمها — مثل مِعوَلِ عامل الجصِّ أو المطرقة المستخدمة في أعمال الجيولوجيا — مرتبطٌ بوظائفَ ومِهَنٍ معينة. ألديك مفكِّرة؟»

كانت لديَّ مفكِّرة وبعد أن قبلتُ بتلك الملحوظة، أخرجتُها وبدأتُ أدوِّنُ أفكاري في صمت، بينما شريكي جالسًا ومفكرتُه على ركبته أيضًا وكان يُحدِّق بنظرات ثابتة إلى خارج النافذة. وظل هكذا غارقًا في أفكاره ويدوِّن شيئًا في مفكرته بين الحين والآخر حتى هدَّأ القطارُ من سرعته عند تقاطع هالبيري، حيث كان علينا أن نَنتقل لخطٍّ فرعي.

وبينما كنا نخرج من القطار، رأيتُ رجلًا يرتدي ملابس أنيقة ويُسرع على الرصيف من ناحية نهايته ويتفحَّص في لهفة وجوهَ الركاب القلائل الذين نزلوا. وسرعان ما لمحَنا من بعيد، فأتى إلينا مسرعًا وسألنا وهو يَنتقِل بنظره بيننا:

«الدكتور ثورندايك؟»

أجابه صديقي قائلًا: «أجل. وأفترض أنك السيد إدوارد ستوبفورد، أليس كذلك؟»

انحنى المحامي محيِّيًا صديقي، وقال في انزعاج كبير: «إنه أمر مريع. أرى أنك تُمسك بالجريدة. إنه أمر في غاية الفظاعة. وأنا في غاية الارتياح أن وجدتُك هنا. كدتُ أفوِّت القطار، وخشيتُ أن أفوِّت لقاءك.»

قال ثورندايك: «يبدو أن أحدهم قد أُلقيَ القبض عليه.»

«أجل، إنه أخي. إنه لأمر مريع. لنَسِرْ على الرصيف. لن يُغادرَ قطارُنا إلا بعد ربع ساعة.»

أودعْنا حقيبة جلادستون المشتركة بيننا وحقيبة السفر الخاصة بثورندايك في إحدى مقصورات الدرجة الأولى الفارغة، ثم سِرْنا — والمحامي يسير بيننا — نحو نهاية الرصيف غير الموجود بها أحد.

قال السيد ستوبفورد: «وضْعُ أخي يَملؤني بالفزع، ولكن دعْني أخبرْك بالحقائق بالترتيب، ولتحكم أنت بنفسك. تلك المخلوقة المسكينة التي قُتلت بوحشية شديدة كانت الآنسة إيديث جرانت. وكانت فيما مضى عارضةً، وهكذا كان أخي كثيرًا ما يستعين بها لأنه يعمل رسَّامًا؛ اسمه هارولد ستوبفورد وحروفه الأولية المستخدمة في أعماله هي إيه آر إيه. والآن ...»

«أعرف أعماله جيدًا، ويا لها من أعمال ساحرة!»

«هذا رأيي فيها أيضًا. في الواقع، في تلك الأيام كان شابًّا صغيرًا، في حوالي العشرين من عمره، وأصبح مقرَّبًا للغاية من الآنسة جرانت — بطريقة بريئة إلى حدٍّ كبير — رغم

أن علاقتهما لم تكن متحفظةً كثيرًا؛ لكنها كانت فتاةً لطيفة ومحترمة — كما هو الحال مع معظم العارضات الإنجليزيات — ولم يفكر أحد في وقوع أيٍّ مكروه. ولكنهما تبادلَا الكثيرَ من الخطابات وبعض الهدايا الصغيرة ومن بين تلك الهدايا سلسلة مطرَّزة بالخرز بها مدلاة، وفي تلك المدلاة كان غبيًّا بما يكفي ليضع فيها صورته ويكتب عليها: «إلى إيديث من هارولد».

بعد ذلك، عملت الآنسة جرانت في المسرح في مجال الأوبرا الكوميدية، لما تتمتَّع به من صوت جميل؛ ومن ثَمَّ تغيَّرت عاداتُها ومعارفها بعض الشيء؛ وفي تلك الأثناء وبينما خطب هارولد امرأة أخرى، كان حريصًا وبصورة طبيعية على استعادة خطاباته، وحريصًا بصورة خاصة على استبدال هدية أقل إثارة للشبهات بالمدلاة التي في السلسلة. وقد أرسلتْ إليه خطاباتِه في النهاية، لكنها رفضت تمامًا أن تتخلَّى عن المدلاة.

طوال الشهر المنصرم كان هارولد يَمكث في هالبيري ويقوم بنزهات للرسم في الريف المحيط بالمدينة، وقد أخذ القطار صباح أمس المتجه إلى شينجلهيرست، وهي المحطة الثالثة بعد هذه المحطة التي نقف فيها، وهي المحطة السابقة لمحطة وولدهيرست.

وقد قابل الآنسة جرانت على الرصيف هنا، وكانت آتيةً من لندن وفي طريقها إلى وورذنج. دخلَا القطار الفرعي معًا، وأخذَا مقصورة درجة أولى. ويبدو أنها كانت ترتدي المدلاة في ذلك الوقت، فقدَّم عرضًا آخر لها لتُبادله المدلاة، وقد رفضتْ ذلك العرض كالذي سبقه من العروض. ويبدو أن الحديث بينهما أصبح محتدمًا وغضبَا كلاهما؛ ذلك أن الحارس وأحد الحمالين في محطة مونسدين لاحظَا أنهما كانَا يتشاجران؛ لكن ما انتهى إليه الأمر هو أن السيدة انتزعت السلسلة ومعها المدلاة وألقتْها إلى أخي وافترقَا وديًّا في محطة شينجلهيرست، حيث نزل هارولد من القطار. حينها كان يَحمل كاملَ عدة الرسم الخاصة به، وكانت تشتمل على مظلة كبيرة من القماش الكتاني الخشن في أسفلها قضيبٌ ذو طرف مدبَّب مصنوع من الصلب للاتكاء به على الأرض.

وكانت الساعة العاشرة والنصف تقريبًا حين نزل في محطة شينجلهيرست، وبحلول الحادية عشرة كان قد وصل إلى مكان عمله وشرع في العمل، وظل يرسم مدة ثلاث ساعات. ثم جمع أشياءه وكان قد بدأ للتوِّ طريقَ عودته إلى المحطة حين استوقفته الشرطة وألقت القبض عليه.

والآن لاحظْ تراكمَ الأدلة الظرفية ضدَّه. لقد كان هو آخرَ شخص شوهد بصحبة الضحية؛ لأنه يبدو أن أحدًا لم يرَها منذ أن غادرَا مونسدين؛ وبدا أنه كان يَتشاجر معها

حين شوهدتْ لآخر مرة على قيد الحياة، وكان لديه سببٌ لأن يرغب في موتها، وكانت لديه الأداة — وهي قضيب مدبَّب — القادرة على التسبب في الإصابة التي أودت بحياتها، وحين تمَّ تفتيشه، وُجدت معه المدلاة والسلسلة المكسورة، والتي كان من الواضِح أنها انتُزِعت منها بعنف.

وتقف شخصيتُه المعروفة ضدَّ كلِّ هذه الأدلة بالطبع، فهو الأكثر نبلًا ووداعة من بين الجميع، وكان في تصرُّفِه اللاحق معتوهًا إلى أقصى درجة إذا ما كان مذنبًا؛ ولكنني كمحامٍ لا يسعُني سوى أن أرى أن الشواهد تقف ضدَّه في هذه القضية بصورة ميئوس منها.»

ردَّ ثورندايك بينما كنا نأخذ أماكننا في العربة: «لن نقول «بصورة ميئوس منها»، رغم أنني أتوقع أن الشرطة مُتغطرسةٌ للغاية. متى سيُفتح التحقيق؟»

«اليوم في الساعة الرابعة. لقد حصلتُ على إذنٍ من قاضي التحقيق لتفحصَ الجثة وتكون حاضرًا في التشريح لمعرفة أسباب الوفاة.»

«أتعرفُ مكان الجرح بالتحديد؟»

«أجل، إنه يقع خلف الأذن اليُسرى وفوق حافتها؛ إنه ثقبٌ مستدير فظيع، وبه قطعٌ أو تمزُّقٌ وعرٌ يبدأ عنده وينتهي عند جانب الجبهة.»

«وكيف كانت الجثة ممددة؟»

«بطول الأرض، وكانت قدماها قريبتَين من الباب الجانبي.»

«أكان الجرحُ في رأسها هو الجرح الوحيد الذي أُصيبت به؟»

«لا، بل كان هناك قطعٌ طويل أو كدمة على وجنتها اليمنى؛ قال الطبيب الشرعي التابع للشرطة إنه جرحٌ رَضِّي، يعتقد أن سببه سلاحٌ ثقيلٌ وثَلِمٌ. ولم أسمع بوجود جروح أو كدمات أخرى.»

سأله ثورندايك: «هل دخل أيُّ شخص القطار أمس في محطة شينجلهيرست؟»

«لم يدخل القطار أحدٌ بعد أن غادر هالبيري.»

فكَّر ثورندايك في تلك الردود في صمت، ثم سرعان ما استغرق في تفكير عميق لم يستفق منه إلا حين غادر القطار محطَّة شينجلهيرست.

قال السيد ستوبفورد: «هنا تقريبًا وقعت جريمة القتل، أو على الأقل بين هنا ومحطة وولدهيرست.»

أومأ ثورندايك وهو شارد الذهن، وكان في تلك اللحظة مشغولًا وفي اهتمامٍ بالغ بملاحظة الأشياء البادية من النافذة.

ثم بعد برهة علَّق قائلًا: «أُلاحظ عددًا من الشرائح المبعثَرة هنا وهناك بين القضبان الحديدية، وبعض أجزاء الكراسي التي تبدو جديدة. أكان هناك بعضُ العمال يَعملون مؤخرًا؟»

أجاب ستوبفورد: «أجل، إنهم على خط السكة الحديدية الآن، أعتقد ذلك، على الأقل رأيتُ مجموعة من العمال يعملون بالقرب من وولدهيرست بالأمس، ويُقال إنهم أشعلوا النار في كومة قش؛ لقد رأيتُها وهي تنفث الدخان حين كنت في طريقي.»

«بالفعل؛ أعتقد أن الخط الحديدي الأوسط هو نوع من أنواع المسارات الجانبية؟»

«أجل، إنهم يُحولون قطارات البضائع والعربات الفارغة إلى هذه السكة. تلك هي آثار ما تبقَّى من الكومة المحروقة، ترى أنها لا تزال تحترق ببطء.»

حدَّق ثورندايك شاردًا في الكومة السوداء حتى توارت عن الأنظار خلف عربة فارغة لتحميل الماشية على السكة الوسطى. تَبِع تلك العربةَ صفٌّ من عربات البضائع، وتبعت تلك العربات عربةُ ركاب، إحدى مقصوراتها كانت تتبع الدرجة الأولى وكانت مغلقةً وممنوع الاقتراب منها. بدأ القطار يُهدِّئ من سرعته الآن فجأة، وبعد دقائق وصلنا إلى محطة وولدهيرست.

كان مما لا شكَّ فيه أن إشاعات قدوم ثورندايك قد سبقتنا؛ ذلك أن طاقم الموظفين بالكامل — وهو يتكوَّن من اثنين من الحمَّالين ومفتِّشٍ ورئيس المحطة — كان ينتظر في ترقُّبٍ على الرصيف وقد تقدَّم رئيس المحطة ليُساعدنا في حمل حقائبنا وذلك بصرف النظر عن مكانتِه أو وقارِه.

سأل ثورندايك المحامي قائلًا: «أتعتقد أن بإمكاني أن أرى العربة؟»

قال رئيس المحطة بعد أن سُئل عن ذلك: «لا يُمكنك أن ترى ما بداخلها يا سيدي. لقد أغلقتْها الشرطة، ويَنبغي عليك أن تطلب ذلك من المفتش.»

قال ثورندايك: «إذن أفترض أن بإمكاني أن أُلقيَ نظرةً على الجزء الخارجي منها، أليس كذلك؟» وقد وافق رئيس المحطة على ذلك وعرض أن يَصحبنا.

سأل ثورندايك: «مَن هم الركاب الآخرون الذين كانوا موجودين في الدرجة الأولى؟»

«لم يكن هناك أحدٌ يا سيدي. كانت هناك عربة واحدة فقط في الدرجة الأولى وكانت الضحيةُ هي الوحيدة فيها. لقد تسبَّب ما حدث في أن آلت الأمور إلى منعطف مريع.» ثم استطرد حيث بدأنا السير على طول السكة الحديدية: «كنتُ على الرصيف حين أتى القطار. وكنا نُشاهد كومة كانت تحترق على السكة، وكان وهجُها استثنائيًّا للغاية أيضًا؛

وكنت أقول حينها إننا يَنبغي أن نُحرِّك عربة الماشية التي كانت على السكة الوسطى؛ لأن الدخان والشرر كانَا — كما ترى يا سيدي — يَتطايران في الأرجاء، وظننتُ أن ذلك كان يُخيف الحيوانات المسكينة. ولا يحب السيد فيلتون أن تتمَّ معاملة حيواناته معاملة سيئة. فهو يقول إن ذلك يُفسد لحمها.»

قال ثورندايك: «لا شك أنه محقٌّ، لكن الآن، أخبرني؛ أتعتقد أنه من الممكن لأي شخص أن يصعد على متن القطار أو يُغادرُه من الجانب من دون أن يُلاحظه أحدٌ؟ هل يمكن لرجل على سبيل المثال أن يدخل إلى مقصورة من الجانب في إحدى المحطات وينزل منها حين يُهدِّئ القطار من سرعته عند المحطة التالية من دون أن يراه أحد؟»

أجاب رئيس المحطة: «أشك في ذلك. ومع ذلك، لن أقول إنه من المستحيل.»

«شكرًا لك. أوه، هناك سؤال آخر. أرى أن لديك مجموعةً من الرجال يَعملون على السكة الحديدية. والآن، هل يَنتمي هؤلاء الرجال إلى المنطقة؟»

«لا يا سيدي؛ إنهم غرباء، كلهم، وبعضهم فظٌّ ولكنه طيب القلب، لكنَّني لا أقول إن أحدًا منهم قد يتسبَّب بالأذى. هذا إن كنت تشكُّ أن أحدًا منهم متورِّط في هذا …»

قاطعه ثورندايك فجأة قائلًا: «أنا لا أفعل ذلك. أنا لا أشك في أحد؛ لكنني أريد أن أحصل على كافة الحقائق المرتبطة بالقضية منذ البداية.»

ردَّ المسئول خجلًا: «هذا أمر طبيعي يا سيدي.» ثم رُحْنا نُكمل مسيرنا في صمت.

قال ثورندايك بينما كنا نقترب من العربة الفارغة: «بالمناسبة، أتتذكَّر إن كان الباب الجانبي للمقصورة مغلقًا وموصدًا حين تمَّ اكتشاف الجثة؟»

«كان مغلقًا يا سيدي لكنَّه لم يكن موصدًا. أتعتقد يا سيدي …»

«لا شيء، لا شيء. المقصورة المغلقة بختم الشرطة هي هذه بالطبع؟»

ومن دون أن ينتظر ردًّا، بدأ ثورندايك فحْصَه للعربة فيما منعتُ وبطريقة مهذبة رفيقَينا من تتبُّعِه؛ حيث كانَا قد انتويَا ذلك. كان مُنتبهًا بصورة خاصة إلى الحافة الجانبية، وحين تفحَّص الجزء المقابل للمقصورة المشئومة بدقَّة، جال بنظره ببطء من الطرف إلى الطرف الآخر لمسافة بضع بوصات على سطحه، كما لو كان يبحث عن شيء بعينه.

وبالقرب من الطرف الخلفي، توقَّف وأخرج من جيبه قطعة ورق؛ ثمَّ وبطرف إصبعه الذي كان قد بلَّله، التقط من على الحافة الجانبية شيئًا صغيرًا للغاية، فوضعه بعناية على الورقة التي قام بطَيِّها ووضعها في دفتره الذي يحتفظ به في جيبه.

ثمَّ صعد بعد ذلك إلى الحافة، وبعد أن نظر في داخل المقصورة المغلقة من خلال نافذتها، أخرج من جيبه منفاخًا صغيرًا أو نافث مسحوق، ونفخ به تيارًا من مسحوق دقيق جدًّا يشبه الدخان على حوافِّ النافذة الوسطى، وكان يصبُّ كلَّ انتباهه على البقع المغبرة غير المعتادة التي استقر عليها هذا المسحوق، بل وحتى أخذ يقيس إحداها على دعامة النافذة باستخدام مسطرة صغيرة في جيبه. وبعد ذلك نزل عن الحافة الجانبية وبعد أن فحص الحافة الأخرى بإمعان، قال بأنه قد انتهى للوقت الحالي.

وبينما كنا نعود سيرًا على السكة الحديدية، مررنا بعامل، وبدا أنه يتفحص الكراسي والأسرَّة باهتمام بالغ.

سأل ثورندايك رئيس المحطة: «أعتقد أن هذا الرجل هو أحد العُمال، أليس كذلك؟»

كانت إجابته: «بلى، إنه رئيس العُمال.»

«سأعود وأتحدث معه للحظة. يُمكنكم أن تسبقوني بخطوات بطيئة.» ثم استدار صديقي بسرعة وراح يتحدث مع الرجل لبضع دقائق.

ثم قال ثورندايك بينما كنا نقترب من المحطة: «أعتقد أنني أرى مفتش الشرطة على الرصيف.»

قال مرشدنا: «أجل، ها هو. تعالَ يا سيدي لتنظرْ فيما تتعقَّبه.» وكانت لا شك هذه هي الحال، رغم أنه زعم أنه كان هناك بمحض الصدفة.

ثمَّ قال بعد أن قدَّم نفسه: «أعتقد أنك تودُّ أن ترى السلاح يا سيدي، أليس كذلك؟»

قال ثورندايك مصحِّحًا كلامه: «بل قضيب المظلة المدبَّب. أجل، إذا ما سمحتَ لي. سنذهب إلى المشرحة غدًا.»

«إذن ستمرُّون بالقسم في طريقكم، وإن كنتم تهتمُّون بإلقاء نظرة، فيمكنني أن أصحبكم.»

وبعد أن وافقنا على ذلك الاقتراح، سِرْنا جميعًا إلى قسم الشرطة، وكان معنا رئيسُ المحطة، والذي كان فضوليًّا إلى أقصى درجة.

قال المفتش وهو يفتح باب مكتبه ويستقبلنا فيه: «ها هم يا سيدي. لا تقولوا بأننا لم نوفر للدفاع كافة التسهيلات. هذه هي كلُّها أشياء المتهم، بما في ذلك السلاح الذي استخدم في الجريمة.»

احتج ثورندايك قائلًا: «انتظر؛ لا ينبغي أن نكون متعجلين في الحكم.» ثم أخذ من المفتش القضيب المدبَّب، وبعد أن تفحَّص طرفه الغريب بعدسته، أخرج من جيبه مقياسًا

من الصلب يستخدم في قياس السُّمك، وراح يقيس به قطرَ الطرف المدبب بحرص بالغ، وكذلك القضيب الذي كان مثبَّتًا به. ثم قال بعد أن دوَّن ملحوظة بالقياسات في دفتره: «والآن سننظر في علبة الألوان وفي رسمته. هه! إن أخاك لَرجلٌ يحب النظام يا سيد ستوبفورد. إن أنابيب الألوان كلٌّ في مكانه، وسكاكين الألوان نظيفة، وكذا لوحة الألوان نظيفة ولامعة، والفُرَش ممسوحة ونظيفة — حيث ينبغي أن تُغسَل الفرش قبل أن تتصلب — كلُّ هذا يُعدُّ ذا مغزًى.» ثم فكَّ الرسمة من لوح الرسم الخالي الذي كانت مثبتةً به، وبعد أن وضعها على كرسي في إضاءة جيدة، أخذ خطوة للخلف لينظر إليها.

ثم صاح متعجبًا وهو ينظر إلى المحامي: «هل هذا هو عمل ثلاث ساعات فقط؟! إنه لَإنجاز رائع.»

أجابه ستوبفورد مغتمًّا: «أخي يرسم بسرعة كبيرة.»

«أجل، ولكن إنجاز هذا لا يُعدُّ سريعًا بشكل مذهل وحسب؛ وإنما كان في أسعد أوقاته أيضًا؛ إن العمل مليءٌ بالحيوية والمشاعر. لكننا لن نمكث لننظر إلى هذا العمل أطول من ذلك.» ثم أعاد وضْعَ القماش على دبابيسه، وبعد أن رمق المدلاة وبعض الأشياء الأخرى الموضوعة في درج، شكر المفتش على كرمه وانصرف.

ثم قال معلِّقًا بينما كنا نسير في الشارع: «تبدو الرسمة وعلبة الألوان موحيتَين جدًّا لي.»

قال ستوبفورد بنبرة كئيبة: «ولي أيضًا؛ لأنهما محبوسان، كصاحبهما العزيز المسكين.»

ثم تنهَّد بعمق وأكملنا مسيرنا في صمت.

كان مما لا شك فيه أن حارس المشرحة قد سمع بوصولنا؛ لأنه كان ينتظر عند الباب والمفتاح في يده، وبعد أن رأى إذْنَ قاضي التحقيق، فتح الباب ودخلنا معًا؛ لكن وبعد أن رمقْنا الجثة المكفَّنة والممدَّدة على طاولة التشريح بنظرة سريعة، استحال لونُ ستوبفورد شاحبًا وتراجع، قائلًا بأنه سينتظرنا بالخارج مع حارس المشرحة.

وبمجرد أن أُغلق الباب من الداخل، نظر ثورندايك في فضول حول المبنى المصمت الأبيض. كان هناك دفقٌ من ضوء الشمس يدخل عبر كوَّة وينصبُّ على الجثة الساكنة الراقدة بلا حَراك تحت الملاءة التي تغطيها، وكان هناك شعاعُ ضوء منحرف نحو أحد أركان المكان بجوار الباب، حيث عُلِّقت ملابس الضحية على صفٍّ من المسامير ووُضع بعضها على طاولة.

قال ثورندايك بينما كنا نقف أمام ملابسها: «هناك شيء محزن على نحوٍ لا يمكن التعبير عنه بالكلمات بشأن هذه الأشياء البائسة يا جيرفس. إنها بالنسبة لي تُعدُّ مأساوية، ومليئة بالإيحاءات المثيرة للشفقة، أكثر من الجثة نفسها. انظر إلى تلك القبعة الأنيقة الفخمة، وذلك الرداء الباهظ الثمن المعلَّق هناك، إن كلًّا منهما كئيبٌ وبائس؛ وتلك الملابس الداخلية الرقيقة الموضوعة على الطاولة والمطوية بحرص كبير — أعتقد أن مَن قام بطيِّها هي زوجة حارس المشرحة — وذلك الحذاء الفرنسي الصغير والجورب الحريري الشفاف. يا لَها من أشياء توحي على نحوٍ مثير للشفقة بجمالٍ أنثوي بريء وبحياة سعيدة خالية من الهم انتُزعت في غمضة عين! ولكن لا ينبغي لنا أن نفسح المجال كثيرًا للعاطفة. فهناك حياة أخرى على المحك، وفي يدنا إنقاذها.»

ثم رفع القبعة عن المسمار المعلقة عليه، وقلَّبها في يده. أعتقد أنها كانت مما يُطلق عليه «القبعة التصويرية»؛ فقد كانت عبارةً عن كتلة ضخمة ومسطحة وعديمة الشكل من الشاش والشرائط والريش وتتلألأ بترتر ذي لون أزرق داكن. وكان في أحد أجزاء حافتها ثقبٌ مهترئٌ، ومن ذلك الثقب تساقط الترتر المتلألئ في وابل صغير حين أُزيلت القبعة.

قال ثورندايك: «يتم ارتداء هذه القبعة وهي مائلة على الجانب الأيسر، وذلك استنادًا إلى الشكل العام للثقب ووضعه.»

رددتُ مقرًّا بكلامه: «أجل، مثل قبعة دوقة ديفونشاير في لوحة الرسام توماس جينزبرا.»

«بالضبط.»

وهزَّ القبعة ليُسقط بعض الترتر على راحة يده، وبعد أن أعاد القبعة إلى مكانها، وضع المجموعة الصغيرة التي سقطت في يده في ظرف وكتب عليه «من القبعة» ودسَّه في جيبه. ثم خطَا باتجاه الطاولة، وسحب الملاءة بإجلال بل وبرقَّة من على وجه المرأة الضحية، ونظر إليه في أسف وشفقة شديدين. كان وجهها جميلًا، في بياض الرخام، وكان هادئًا ومسالمًا في تعبيراته، وعيناه شبه مغلقتين، ويحيط به كتلةٌ من الشعر الأصفر النحاسي؛ لكن كان جماله هذا يُشوِّهه جرحٌ خطِّيٌّ طويل، نصفُه قطعٌ ونصفُه عبارة عن كدمة ويمتدُّ على الخد الأيمن من العين وحتى الذقن.

قال ثورندايك معلِّقًا: «إنها فتاة جميلة، ذات شعر أصفر داكن. يا لَها من فعلة شنيعة أن تُشوِّهَ نفسَها بهذا البيروكسيد المريع.» ثم أزاح الشعر بتؤدة من على جبهتها

وأضاف: «يبدو أنها وضعت هذه المادة على شعرها لآخر مرة قبل نحو عشرة أيام. هناك ربع بوصة تقريبًا من الشعر الداكن عند الجذور. ماذا تستنتج من هذا الجرح الموجود على وجنتها؟»

«يبدو وكأنها هوت على زاوية حادة أثناء سقوطها، رغم أنني لا أرى ما يمكن أن تكون قد هوت عليه، حيث إن الكراسي في عربات الدرجة الأولى مزوَّدة ببطانة.»

«لا. والآن لننظر إلى الجرح الآخر. هلَّا دوَّنتَ الوصف؟» ثم ناولَني دفتره الصغير، ودوَّنتُ الآتي بينما كان يُملي عليَّ: «ثقبٌ مستدير نظيف في الجمجمة، خلف الأذن اليُسرى وفوق حافتها ببوصة واحدة، قُطرُه بوصةٌ واحدة وسبعة على ستة عشر من البوصة؛ وكسرٌ على شكل نجمة في العظم الجداري للجمجمة؛ والأغشية مثقوبة، والثقب عميق داخل الدماغ؛ وجرحٌ تسبَّب في تمزيق جلد فروة الرأس ويمتدُّ إلى حافة محجر العين اليسرى؛ وهناك شظايا من الشاش والترتر في حوافِّ الجرح. يكفينا هذا للوقت الحالي. سيمدُّنا الدكتور مورتون بالمزيد من التفاصيل إذا ما أردناها.»

ثم وضع في جيبه المقياس والمسطرة، وسحب شعرة أو شعرتين من فروة الرأس المصابة ووضعهما في الظرف مع الترتر، وبعد أن فحص الجثة بحثًا عن جروح أو كدمات أخرى (والتي لم يجد أيًّا منها)، أعاد الملاءة إلى وضْعِها واستعد للرحيل.

وبينما كنَّا نسير مبتعدين عن المشرحة، كان ثورندايك صامتًا ويفكر بعمق، واستنتجتُ أنه كان يحاول ربط الحقائق التي حصل عليها معًا. وبعد برهة قال السيد ستوبفورد الذي كان قد نظر إليه عدة مرات في فضول:

«سيتم عمل التشريح في تمام الثالثة، والساعة الآن الحادية عشرة والنصف فقط. ماذا تودُّ أن تفعل الآن؟»

توقف ثورندايك فجأة بعد أن كان ينظر إليه بانتباهٍ رغم ما كان به من انشغال عقلي وقال:

«إشارتُك إلى التشريح تُذكِّرني بأنني نسيتُ استخدام مادة صفراء الثور في قضيتي.»

قلت متعجبًا وأنا أحاول عبثًا أن أربط تلك المادة بأساليب إخصائيِّي علم الأمراض: «صفراء الثور! ماذا كنت ستفعل بـ...»

لكنني في تلك اللحظة صمتُّ، وقد تذكرتُ أن صديقي لا يحب مناقشة أيٍّ من أساليبه أمام الغرباء.

ثم قال صديقي مكملًا حديثه: «أعتقد أنه لن يكون هناك مَن يبيع الألوان للرسامين في مكان صغير بهذا الحجم. أليس كذلك؟»

قال ستوبفورد: «لا أعتقد ذلك. لكن ألا يمكنك أن تحصل على تلك المادة من جزار؟ هناك واحد عند الجهة المقابلة من الطريق.»

قال ثورندايك بعد أن كان قد لاحظ المحل: «صحيح. ينبغي أن يتمَّ إعداد الصفراء بالطبع، لكن يمكننا أن نُصفِّيَها بأنفسنا، هذا إن كان لدى الجزار أيٌّ منها. لكننا سنحاول وسنذهب إليه على أي حال.»

ثم عبر الطريق نحو محلِّ الجزارة، وكان اسم فيلتون يلمع على المتجر في حروف مذهَّبة، وبعد أن قدَّم نفسه للمالك الذي كان يقف عند الباب، شرح له مطلبه.

قال الجزار: «صفراء الثور؟ لا يا سيدي، ليس لديَّ أيٌّ منها الآن؛ لكنني سأذبح أحد الثيران بعد ظهر اليوم، وحينها يمكنك أن تحصل على بعض ذلك.» ثم أضاف بعد أن توقف برهة: «في الواقع، وبما أن الأمر ذو أهمية، يمكنني أن أذبح الثور الآن إذا كنت تريد ذلك.»

قال ثورندايك: «هذا لطف بالغ منك، وسيكون معروفًا كبيرًا أدين لك به. هل الثور في حالة صحية جيدة؟»

«إن حيواناتي في حالة ممتازة يا سيدي. لقد انتقيتُها من القطيع بنفسي. لكنك ستراها — أجل، واخترْ منها ما تشاء أن يُذبح.»

قال ثورندايك في نبرة ودية: «أنت حقًّا رجل طيب للغاية، لكنني سأذهب فقط إلى الصيدلي المجاور لك، وسأحصل على زجاجة مناسبة، ثم بعدها سأستغل عرضك السخي للغاية هذا.»

ثم أسرع نحو الصيدلي، وخرج من المتجر بسرعة، وكان يحمل طردًا مغلَّفًا بورق أبيض؛ ثم تبعنا الجزار في زقاق ضيق بجانب متجره. أدَّى ذلك إلى حظيرة مسيَّجة تحتوي على زريبة صغيرة بها ثلاثة ثيران ضخمة، وكان لون جلدها الأسود اللامع يتناقض بشكل غريب مع قرونها الطويلة البيضاء المائلة للرمادي التي تكاد تكون مستقيمة.

قال ثورندايك بينما كنا نسير بالقرب من الزريبة: «هذه الحيوانات بالتأكيد ممتازة للغاية يا سيد فولتون، وفي حالة جيدة جدًّا أيضًا.»

ثم انحنى وراح يفحص الحيوانات بدقة بالغة، خاصة فيما يتعلق بعيونها وقرونها؛ ثم اقترب من أقربها إليه، ورفع عصاه ونقر بها على الجانب السفلي من القرن الأيمن، وتَبِع ذلك نقرةٌ مماثلة على القرن الأيسر، وهو شيء ذهل الثور حين حدث له.

قال ثورندايك وهو ينتقل نحو الثور التالي: «إن حالة القرون تمكِّن المرء من الحكم على صحة الحيوان إلى حد ما.»

ضحك السيد فولتون وقال: «باركك الرب يا سيدي. ليس لدى الثيران أيُّ إحساس بقرونها، وإلا فما فائدتها بالنسبة لها؟»

من الواضح أنه كان محقًّا؛ لأن الثور الثاني لم يكن عابئًا بأيِّ شيء يحدث لقرونه كما الأول. لكن حين اقترب ثورندايك من الثور الثالث، اقتربتُ أكثر لأشاهد الأمر؛ ولاحظتُ أن الثور انسحب للخلف في ذُعرٍ واضح حين لامستِ العصا القرن، وحين تم تكرار النقرة، أصبح الثور مهتاجًا بصورة واضحة.

قال الجزار: «يبدو أنه لا يحب ذلك. يبدو وكأنه ... يا إلهي، هذا أمر عجيب!»

كان ثورندايك قد وضع عصاه على القرن الأيسر، فجفل الثور وتراجع في الحال، وكان يهزُّ رأسه ويخور. لكن لم يكن له مساحة كافية ليبتعد عن ثورندايك الذي انحنى إلى داخل الزريبة فكان قادرًا على فحص القرن الحسَّاس، وقد فعل ذلك بانتباه بالغ، فيما كان الجزار ينظر إليه في اضطراب واضح.

قال الجزار: «أتمنى ألَّا تعتقدَ أن هناك خطبًا ما بهذا الثور يا سيدي.»

أجابه ثورندايك: «لا يمكنني أن أُحدِّدَ ذلك من دون المزيد من الفحص. ربما كان القرن هو الشيءَ الوحيد المصاب. إنك إذا ما قطعتَ القرن من أقرب نقطة منه إلى الرأس، وأرسلتَه إليَّ في الفندق، فسأفحصه وأُخبرك. ولكي نمنع وقوعَ أيِّ أخطاء، سأضع عليه علامة وأغطيه، لكي أحميَه من الإصابة في المذبح.»

وفتح الطرد الذي كان معه وأخرج منه زجاجةً ذات فمٍ كبير مكتوب عليها «صفراء الثور» ونسيجًا من الكوتابركا، وضمادةً ملفوفة، وقطعةَ شمع أحمر. وبعد أن أعطى الزجاجة للسيد فيلتون، غلَّف النصف الأقصى من القرن في النسيج والضمادة وثبَّتهما بإحكام باستخدام الشمع الأحمر.

قال السيد فيلتون: «سأقطع القرن وأُحضره لك بنفسي في الفندق، مع صفراء الثور. ستحصل عليهما في غضون نصف ساعة.»

كان الرجل ملتزمًا بكلمته؛ ذلك أن ثورندايك بعد نصف ساعة كان يجلس إلى طاولة صغيرة بجوار النافذة في غرفة الجلوس الخاصة بنا في فندق بلاك بول. كانت الطاولة مغطاةً بالجريدة، وعليها كان القرن الرمادي الطويل موضوعًا وكذلك حقيبة ثورندايك الخاصة بالسفر التي كانت الآن مفتوحةً ويظهر منها مجهرٌ صغير ومستلزماته. كان الجزار يجلس في صمت في كرسي وينتظر، وكان ينظر إلى ثورندايك بعينَين متشككتين لأجل التقرير الخاص بصحة الثور؛ وكنت أحاول أنا أن أُبقيَ السيد ستوبفورد بعيدًا عن

الشعور بالجزع من خلال التحدث معه بحديث مبهج، رغم أنني أنا أيضًا كنت أراقب صديقي وهو يقوم بعمله الغامض بعض الشيء.

رأيتُه يفك الضمادة ويضع القرن على أذنه، ويُميله بعض الشيء يمنةً ويسرة. راقبتُه وهو يفحص الجزء الخارجي من القرن بإمعان من خلال عدسة مكبرة، ورأيتُه وهو يُقشِّر شيئًا من النهاية المدبَّبة ويضعه على شريحة زجاجية، وبعد أن وضع عليه قطرة من مادة كيميائية كاشفة، بدأ يعبث به باستخدام إبرتين مثبَّتتين. ثم سرعان ما وضع الشريحة الزجاجية تحت المجهر وبعد أن نظر فيها بإمعان لدقيقة أو اثنتين، استدار في حدة.

وقال: «تعالَ وانظر إلى ذلك يا جيرفس.»

لم أكن في حاجة لدعوة، حيث كان الفضول قد تملَّكني وبلغ مني مبلغه، فذهبتُ إليه ووضعتُ عيني على المجهر.

سألني: «ما هذا؟»

«جسيمٌ عصبي متعدد الأقطاب متغضن بشدة، لكن لا يمكن أن أكون مخطئًا.»

«وهذا؟»

ثم حرَّك الشريحة الزجاجية إلى موضع جديد.

«جسيمان عصبيان على شكل هرم وبعض أجزاء من الألياف.»

«وما رأيُك في نوع النسيج؟»

«أقول إنه من مادة القشرة الدماغية من دون شكٍّ.»

«أتفق معك تمامًا.» ثم أضاف وهو يستدير نحو السيد ستوبفورد: «وبهذا، يمكننا أن نقول إن حجة الدفاع قد اكتملت عمليًّا.»

صاح ستوبفورد متعجبًا بينما انتفض من مكانه: «ماذا تقصد بحق السماء؟»

«أقصد أننا يُمكننا الآن أن نُثبت متى وأين وكيف لاقت الآنسةُ جرانت حتفَها. تعالَ واجلس هنا وسأشرح لك. لا، لستَ في حاجة لأن تُغادرَنا يا سيد فيلتون؛ لأننا سينبغي علينا أن نستدعيَك للمحكمة.» ثم استطرد قائلًا: «ربما من الأفضل أن نُعرِّج على الحقائق ونرى ما تُشير إليه. في البداية لننظر في وضعية الجثة، حيث كانت ترقد وقدماها تقتربان من الباب الجانبي، مما يوضح أن الضحية حين وقعت كانت جالسة، والأكثر أرجحية أنها كانت واقفةً، بجوار ذلك الباب. ثم بعد ذلك هناك هذه.» ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية، وفتحها فظهر عليها قرصٌ صغيرٌ أزرق اللون. ثم أضاف: «تلك هي إحدى حبات

الترتر التي كانت قبعة الضحية مزينة بها، وفي هذا الظرف لديَّ منها أكثر والتي أخذتُها من القبعة نفسها.

لقد التقطتُ تلك الحبة من الطرف الخلفي لحافة الباب الجانبي لعربة القطار، ووجودُها هناك يؤكد تقريبًا أن الآنسة جرانت أخرجت رأسها من النافذة في ذلك الجانب في وقت ما.

والدليل التالي والذي حصلتُ عليه عن طريق تغبيرِ حوافِّ النافذة الجانبية بمسحوق خفيف أظهر أثرًا مدهنًا طوله ثلاث بوصات وربع البوصة على الحافة الحادة للدعامة اليمنى للنافذة (أقصد، اليمنى من الداخل).

والآن وبالنسبة للدلائل التي زوَّدتْنا بها الجثة، فإن الجرح في الجمجمة يقع خلف الأذن اليسرى وفوق حافتها، وهو دائريٌّ بالكاد، وقطرُه بوصة واحدة وسبعة على ستة عشر من البوصة على أقصى تقدير، وهناك جرح مهترئ في فروة الرأس يبدأ عند الجرح في الجمجمة وحتى العين اليُسرى. وعلى الخد الأيمن للضحية هناك جرحٌ خطيٌّ مكدوم طوله ثلاث بوصات وربع. ولا يوجد أيُّ جروح أخرى.

والدلائل التالية يزودنا بها هذا.» ثم أمسك بالقرن ونقر عليه بإصبعه، فيما كان المحامي والسيد فيلتون يُحدِّقان به في ذهول عقد ألسنتَهم عن الحديث. ثم أضاف: «أنتم تلاحظون أن القرن يساري، وتتذكرون أنه كان حسَّاسًا بدرجة كبيرة. وإذا ما وضعتم آذانكم عليه وأنا ألويه، فستسمعون صوتَ كسرٍ أو شقٍّ في أساسه العظمي. والآن انظروا إلى النهاية الحادة، وسترون عدة خدوش عميقة على طول القرن، وحيث تنتهي تلك الخدوش، نجد أن قياس قطر القرن هو بوصة واحدة وسبعة على ستة عشر من البوصة كما ترون على هذا المقياس. ويُغطي الخدوش بقعة دم جافة، وعلى أقصى طرف القرن هناك كتلة صغيرة من مادة جافة فحصتُها أنا والدكتور جيرفس تحت المجهر واتفقنا على أنها نسيج دماغي.»

صاح ستوبفورد في لهفة وقال: «يا إلهي! أتقصد أن تقول إن ...»

قاطعه ثورندايك قائلًا: «دعْنا نُنْهِ سرْدَ الحقائق يا سيد ستوبفورد. والآن، وإذا ما نظرتم عن كثَب إلى بقعة الدم هذه، سترون شعيرةً قصيرة ملتصقة بالقرن، ومن خلال تلك العدسة، يمكنكم أن ترون بُصيلة الجذر. ستلاحظون أنها شعيرة لونها ذهبي، لكن وبالاقتراب من الجذر ستجدونها سوداء اللون، وجهاز القياس لدينا يوضح لنا أن طول الجزء الأسود هو أربعة عشر على أربعة وستين جزءًا من البوصة. والآن وفي هذا الظرف

توجد بعضُ الشعيرات التي أخذتُها من رأس الضحية، وهي أيضًا ذهبية اللون وسوداء عند الجذر، وحين قستُ الجزء الذي باللون الأسود وجدتُ طوله أربعة عشر على أربعة وستين جزءًا من البوصة. ثم وأخيرًا هناك هذا.»

ثم قلب القرن، وأشار إلى بقعة صغيرة من الدم الجاف، ومثبَّت بها حبة ترتر زرقاء.

حدَّق السيد ستوبفورد والجزار كلاهما في القرن في صمت من شدة ذهولهما؛ ثم تنهَّد الأول بعمق، ورفع نظره إلى ثورندايك.

وقال: «لا شك أنك تستطيع شرح هذا اللغز، لكنني أشعر بالدهشة والذهول، رغم أنك توقظ فيَّ جذوة الأمل.»

أجابه ثورندايك: «ومع ذلك فإن الأمر في غاية البساطة، حتى بوجود تلك الحقائق القليلة أمامنا، والتي هي مجرد مجموعة من الأدلة التي في حوزتنا. لكنني سأقول نظريتي، وسأترك لكم الحكم.» ثم أسرع في رسم مخطط سريع على ورقة وأكمل حديثه: «كانت تلك هي الأوضاع حين كان القطارُ يقترب من وولدهيرست: كان هنا عربة الركاب، وهناك الكومة المحترقة، وهنا كانت عربة الماشية. كان هذا الثور في تلك العربة. والآن فرضيتي تقول بأنه في تلك اللحظة كانت الآنسة جرانت تقف ورأسها خارج النافذة الجانبية لكي تشاهد الكومة المحترقة. وقد خبَّأَتْ عنها قبعتُها العريضة التي كانت ترتديها على الجانب الأيسر من رأسها عربةَ الماشية التي كانت تقترب منها، ثم بعد ذلك حدث هذا.» رسم مخطَّطًا آخر بمقياس أكبر. واستطرد قائلًا: «أحد الثيران — وهو صاحب هذا القرن — كان يُخرج قرنه الطويل من بين القضبان الحديدية. وفي لحظةٍ ما ضرب قرنُ هذا الثور الضحيةَ في رأسها، مما دفع بوجهها بعنف تجاه زاوية النافذة، ثم حفر في فروة رأسها جُرحًا وهو ينفصل عنها، وقد عانى الثور في قرنه كسرًا من عنف الالتواء وشدته. هذه الفرضية هي الأكثر أرجحية بطبيعتها، فهي تتناسب مع كافة الحقائق، وتلك الحقائق لا تُشير إلى أيِّ تفسير آخر.»

جلس المحامي لحظة وكأنه مصاب بالدوار؛ ثم وقف منتصبًا وأمسك بيد ثورندايك. ثم صاح في صوتٍ أجش: «لا أعرف ما أقول لك عدا أنك أنقذتَ حياة أخي وعسى الرب أن يجازيَك على هذا!»

ثم قام الجزار من كرسيه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ خفيفة.

وقال: «يبدو لي أن مادة صفراء الثور كانت ما يمكن أن تُطلق أنت عليه تمويهًا، أليس كذلك يا سيدي؟»

وهنا ابتسم ثورندايك ابتسامة غامضة.

وحين عُدنا إلى المدينة في اليوم التالي كانت رفقتُنا تتكوَّن من أربعة أشخاص من بينهم السيد هارولد ستوبفورد؛ فالحكم الذي أصدرته هيئةُ محلفي محكمة التحقيق في أسباب الوفاة من فورها والذي كان مفادُه أن الوفاة حدثت «قضاءً وقدرًا» سرعان ما تَبِعه إطلاق سراحه من الحجز، وكان يجلس الآن مع أخيه ومعي، يستمع بانتباهٍ بالغ إلى تحليل ثورندايك للقضية.

واختتم الأخيرُ كلامَه قائلًا: «ومن ثَم، كانت لديَّ ستُّ نظريات محتملة لسبب الوفاة كنتُ قد كوَّنتُها قبل أن أصل إلى هالبيري، ولم يبقَ سوى أن أختار تلك التي تتناسب مع الحقائق. وحين رأيتُ عربة نقل الماشية، وحين التقطتُ حبة الترتر، وحين سمعتُ أوصاف الثيران، وحين رأيتُ القبعة والجروح، لم يبقَ شيءٌ لأقوم به سوى معرفة التفاصيل.»

سأله هارولد ستوبفورد: «ألم تشكَّ أبدًا في براءتي؟»

ابتسم ثورندايك إلى عميله القديم وقال:

«ليس بعد أن رأيتُ علبةَ ألوانك ورسمتَك، ناهيك عن قضيب المظلة المدبَّب.»

الفصل الخامس

# الشفرة المؤابية

اصطفَّ حشدٌ كبير ومتنوع من الناس على رصيفَي شارع أوكسفورد بينما كنتُ وثورندايك نقطع طريقنا على مهلٍ باتجاه الشرق. أعلنتْ زهورُ الزينة والرايات المتدلية عن إحدى تلك المناسبات التي يتمُّ الإعلانُ عنها بين الحين والآخر على يد حكومةٍ محبَّةٍ للخير لتسلية المتسكعين العصريِّين والتخفيف عن اللصوص البائسين؛ ذلك أن أحد الدوقات الروس الكبار والذي عزل نفسه — وسط خطابات الوداع المتفجرة بالعاطفة — متخلِّيًا عن حكم شعبٍ محبٍّ له وإن كان كثيرَ المطالب، كان سيمرُّ قريبًا في طريقه إلى مبنى جيلدهول وسيرافقه في تلك العربة الدوقية أميرٌ بريطاني يتسم بالطيش الشديد.

وبالقرب من شارع راثبون بليس توقف ثورندايك ونَبَّهني إلى رجل أنيق يقف متسكعًا في أحد المداخل وفي يده سيجارة.

قال ثورندايك: «هذا صديقنا القديم المفتش بادجر. يبدو أنه مهتمٌّ بصورة كبيرة بذلك الرجل الذي يرتدي معطفًا خفيفًا.» ثم نادى قائلًا: «كيف حالك يا بادجر؟» لأن في تلك اللحظة وقعت عينَا المحقق على ثورندايك وانحنى له محيِّيًا. ثم قال ثورندايك: «مَن هذا؟»

ردَّ المفتش: «هذا هو ما أريد معرفته سيدي. أنا أتتبعه منذ نصف ساعة، لكنني لا أستطيع أن أتعرف عليه، رغم أنني على يقين أنني رأيتُه قبل ذلك في مكان ما. لا يبدو الرجل غريبًا، لكنْ لديه شيء كبير في جيبه؛ لذا ينبغي أن أُبقيَه على مرأًى مني حتى يمرَّ الدوق بسلام.» ثم أضاف في نبرة كئيبة: «أتمنى لو أن أولئك الروس البغيضين يظلون في بلدانهم. إنهم يتسببون لنا بمتاعبَ جمَّةٍ لا نهاية لها.»

قال ثورندايك: «إذن فهل تتوقع وقوعَ أيِّ حوادث؟»

قال بادجر: «باركك الرب يا سيدي. الطريق كلُّه يعجُّ برجال شرطة يرتدون ملابس مدنية. من المعروف أن العديد من الأشخاص اليائسين تبعوا الدوق إلى إنجلترا، وهناك الكثير من المنفيين الذين يعيشون هنا ويرغبون في أن ينالوا منه. مهلًا! ما هذا الذي يفعله الرجل الآن؟»

كان الرجل ذو المعطف الخفيف قد رأى عينَي المفتش المدققتين فيه بشدة، ومن ثَم غاص وسط الحشد على حافة الرصيف. وأثناء تعجُّلِه هذا داس بقوة على قدم رجل ضخم الجثة تبدو عليه ملامح الصرامة، وسرعان ما أُلقي الأول على قارعة الطريق في عنف شديد حتى إنه وقع على وجهه. كانت لحظة حظه العاثر أنْ كان هناك رجل شرطة يمتطي حصانًا ويحاول السيطرة على الحشد، وقبل أن يفهم معنى الصيحة التي كان مصدرها المحتشدين أمامه، كان حصانه قد داس بحافر إحدى قدمَيه الخلفيتين بقوة على ظهر الرجل الممدد.

أشار المفتش إلى رجل شرطة والذي سرعان ما أفسح لنا الطريق وسط الحشد؛ لكن حتى وبينما كنا نقترب من الرجل الجريح، نهض الأخير في صلابة ونظر حوله بوجه شاحب وخالٍ من التعابير.

سأله ثورندايك في لطفٍ ونظَر في تلهُّف إلى عينيه الخائفتين الذاهلتين: «هل تأذيتَ؟»

كانت إجابته: «لا يا سيدي؛ فقط أشعر ببعض التعب — بعض الضعف — هنا.»

ثم وضع يده المرتعشة على صدره، وظل ثورندايك ينظر إليه في قلق، ثم قال للمفتش بصوت خفيض: «أحضر عربة أجرة أو عربة إسعاف، بأسرع ما يمكنك.»

تمَّ إحضارُ عربة أجرة من شارع نيومان، وأُودعَ الرجل الجريح داخلها. ثم دخلنا أنا وثورندايك وبادجر وانطلقنا عبر شارع راثبون بليس. وكلما سارت العربة، زاد الشحوب والذهول والقلق على وجه الرجل المريض؛ وكانت أنفاسُه متلاحقةً وغير منتظمة، وكانت أسنانُه تصطكُّ في بعضها قليلًا. استدارت عربة الأجرة إلى شارع جودج، ثم — فجأة وفي لمح البصر — حدث تغيير. ارتخى جفنَا الرجل وكذلك فكُّه، وأصبحت عيناه غائمةً، ثم تكوَّم جسدُه بالكامل في الزاوية في كومة منكمشة على بعضها، في ارتخاء هلامي غريب لجسد ميت لكنَّ أنسجته لا تزال على قيد الحياة.

صاح المفتش في نبرة تنم عن الصدمة؛ ذلك أن حتى رجال الشرطة يتمتعون بالشفقة: «يا إلهي! لقد مات الرجل!» وجلس يحدق في الجثة وهي تهتز اهتزازًا خفيفًا بفعل اهتزاز العربة، حتى توقفنا داخل فناء مستشفى ميدلسيكس، حيث خرج بسرعة — وقد تجددت فيه روح النشاط — ليُساعد الحمَّال في وضع الجثة على السرير ذي العجلات.

قال المفتِّش ونحن نتتبع السرير ذا العجلات إلى غرفة الطوارئ: «سنعرف مَن هو الآن على أيِّ حال.» أومأ ثورندايك من دون أن يُبديَ تعاطفًا؛ فقد كانت الغريزة الطبية بداخله في هذه اللحظة أقوى من الغريزة القانونية.

انحنى الطبيب على السرير، وأجرى فحصًا سريعًا بينما كان يستمع إلى روايتنا للحادثة. ثم انتصب في وقفته ونظر إلى ثورندايك.

وقال: «أعتقد أنه نزيفٌ داخلي. على أيِّ حال، لقد مات! يا لَه من متسوِّل مسكين! لقد فارق الحياة تمامًا. آه! ها قد أتى الشرطي؛ لقد أصبحت المسألة في يده الآن.»

أتى رقيب شرطة إلى الغرفة وأنفاسه متلاحِقة، وانتقل بعينَيه في دهشة بين الجثَّة والمفتش. لكن الأخير ومن دون أن يُضيعَ الوقت، شرع في إفراغ محتويات جيب المتوفَّى، وبدأ بالشيء الضخم الذي جذب انتباهه في البداية؛ والذي اتضح أنه طردٌ مكوَّن ملفوف بورق بُنِّيٍّ ومربوط بشريط أحمر.

ثمَّ صاح في إحباط بينما كان يقطع الشريط ويفتح الطرد: «فطيرة لحم خنزير، حقًّا! من الأفضل أن تفتش أنت جيوبه الأخرى أيها الرقيب.»

لم تكشف الأشياءُ القليلة التي نتجت عن التفتيش عن شخصية الرجل، عدا شيء واحد؛ وكان ذلك عبارة عن خطاب مغلق لكنه لا يحمل ختمًا، ويحمل عنوانًا مكتوبًا بخطٍّ سيِّئٍ للغاية وكان العنوان هو: إلى السيد أدولف شونبيرج، ٢١٣ شارع جريك ستريت، منطقة سوهو.

علَّق المفتش قائلًا بينما رمق الظرف المغلق بنظرة حزينة: «أعتقد أنه كان سيسلمه باليد. سآخذه أنا بنفسي، ومن الأفضل أن تأتيَ معي أيها الرقيب.»

دسَّ المفتش الخطاب في جيبه، وبعد أن ترك الرقيب يأخذ في حوزته الأشياء الأخرى، سلك طريقه إلى خارج البناية.

ثم قال بينما كنا نعبر إلى شارع بيرنيرز: «أعتقد أيها الدكتور أنك لن تأتيَ معنا! هل تريد أن ترى السيد شونبيرج؟»

فكَّر ثورندايك للحظة، ثمَّ قال: «حسنًا، المكان ليس ببعيد، ونحن نريد أن نرى ما ستنتهي إليه هذه الحادثة. نعم؛ لنذهب معًا.»

كان المنزل رقم ٢١٣ بشارع جريك ستريت هو أحد تلك المنازل التي توحي إلى ناظره وبصورة لا تُقاوم فكرة أنه آلة أرغن كنسية، فكان حلقَا باب المدخل مزيَّنَين بصفٍّ من مقابض الأجراس النحاسية المرتبطة بمقابض الأبواب الداخلية.

فحص المفتش تلك المقابضَ وكأنه خبير موسيقي، وبعد أن قاس قوتها، اختار المقبض الأوسط على الجانب الأيمن وسحبَه بخفَّة؛ حينها انفتَحَت نافذة في الطابق الأول وخرج منها رأسُ إنسان. لكنَّنا لم نكد نحصل على لمحة خاطفة له؛ ذلك أنه حين نظر في عين المفتِّش التي كانت موجَّهةً نحوه، كانت الرأس قد انسحبت إلى الداخل بسرعة مُفاجئة، وقبل أن نتمكَّن من أن نتكهَّن بشيء عن شخصية من ظهر، فُتح باب الشارع وخرج منه رجل. وكان على وشك أن يُغلق الباب خلفه حين قاطعه المفتِّش.

«هل يعيش السيد أدولف شونبيرج هنا؟»

تفقَّدنا الوافد الجديد — وكان يهوديًّا ذا شعر أحمر — بعناية من خلال نظارته ذات الإطار الذهبي بينما كرَّر الاسم.

«شونبيرج … شونبيرج؟ آه، أجل! أعرفه. إنه يعيش في الطابق الثالث. رأيته يصعد قبل وقت قصير. الطابق الثالث من الجهة الخلفية.» ثم أشار إلى الباب المفتوح بإشارة من يده ورفع قبَّعتَه تحية لنا واتجه إلى الشارع.

قال المفتش وهو ينظر في تردُّدٍ إلى صفِّ الأجراس: «في رأيي أن من الأفضل أن نصعد.» ومن ثَم بدأ يصعد الدَّرج، وتبعناه جميعًا.

كان هناك بابان في الطابق الثالث من الجهة الخلفية، لكن وبما أنَّ أحدهما كان مفتوحًا ويُظهر غرفةَ نوم لا يوجد بها أحد، طرق المفتِّش طرقات خفيفة على الآخر. هنا فُتح الباب في الحال تقريبًا، فخرج إلينا رجلٌ قصير مخيف الشكل وأخذ ينظر إلينا بنظرات عدائية.

قال الرجل: «ماذا تُريدون؟»

سأله المفتش: «السيد أدولف شونبيرج.»

قاطعه الرجل: «حسنًا، ماذا بشأنه؟»

قال بادجر: «كنت أريد أن أتحدث معه.»

احتجَّ الآخر قائلًا: «إذن لماذا تطرَّق بابي عليك اللعنة؟»

«ألا يعيش الرجل هنا؟»

أجاب صاحبنا وهو يستعدُّ لكي يُغلق الباب: «لا. في الطابق الأول من الجهة الأمامية.»

قال ثورندايك: «عذرًا، ولكن كيف يبدو السيد شونبيرج؟ أقصد …»

قاطعه الساكن قائلًا: «كيف يبدو؟ إنه يهوديٌّ متورِّدُ الوجه، وله ذقنٌ تُشبه الجزرة، ويرتدي نظارة ذهبية!» وبعد أن قدَّم لنا الرجل هذا التصوير الانطباعي، وضع حدًّا للمحادثة بأن أغلق الباب بقوة وأوصده بالمفتاح.

استدار المفتش نحو الدرج متعجبًا وغاضبًا، وتبعه الرقيبُ على عجل، حتى وصل إلى الطابق الأرضي، ثم تبعهما ثورندايك وبعده أنا كما حدث من قبل. وعلى عتبة الباب وجدنا الرقيب يلهث وهو يستجوب شابًّا يَرتدي ملابس أنيقة، كنتُ قد رأيتُه ينزل من عربة أجرة بينَما كنا ندخل المنزل، وكان الشاب الآن يقف ويضع تحت إبطه دفترًا صغيرًا ويشحذ قلمًا من الرصاص بعناية كبيرة.

قال الرقيب: «لقد رآه السيد جيمس وهو يخرج يا سيدي. وقد توجه نحو الميدان.»

سأله المفتش: «هل بدا على عجلة من أمره؟»

أجابه الصحفي: «للغاية. بمجرد أن دخلتم أنتم المنزل، انطلق هو بسرعة شديدة. لن تستطيعوا اللحاق والإمساك به الآن.»

قال المفتِّش بغلظة: «نحن لا نريد أن نُمسك به.» ثم تراجع مبتعدًا عن آذان الصحفي الفضولي وقال بنبرة خفيضة: «لا شك أن ذلك الرجل كان هو السيد شونبيرج، ومن الواضح أنه لديه أسباب تدفعه لأن يُخليَ المكان؛ لذا سأعتبر فِعلي مبررًا إن فتحتُ الخطاب.»

ثمَّ أتبع الكلام بالفعل، وبعد أن فتح المظروف بدقة، أخرج ما فيه من محتوًى.

ثمَّ صاح متعجبًا حين سقطت عيناه على ما يحتويه المظروف: «يا إلهي! ما هذا بحق السماء؟ ليس هذا باختزالٍ، لكن ما هذا حقًّا؟»

ثم أعطى الورقة إلى ثورندايك، والذي رفعها باتجاه الضوء وتحسَّسها بدقة، ثم شرع يفحَّصها باهتمام كبير. كانت الورقة عبارة عن نصف ورقة رقيقة من ورق الملاحظات، وكان كلَا جانبَيها مغطًّى بحروف غريبة ومبهمة مكتوبة بحبر أسود مائل للبُنِّيِّ وفي سطور مُتواصِلة من دون أيِّ مسافات تُشير لوجود كلمات؛ وبدت الأحرفُ وكأنها جزءٌ من مخطوطة قديمة أو سِفْر عفا عليه الزمن، لولا الورقة الحديثة التي كانت مكتوبة عليها.

سأل المفتِّش في تلهُّف: «ماذا تفهم من هذا أيها الدكتور؟» بعد أن صمتَ لبرهة كان ثورندايك خلالها قد فحص الكتابة الغريبة بحاجبَين معقودين.

أجابه ثورندايك: «ليس بالكثير. إن الحروف تعود للغة المؤابية أو الفينيقية — وهي إحدى اللغات السامية البدائية في الواقع — وهي تُقرأ من اليمين إلى اليسار. وأرى أن هذه اللغة هي العبرية. على أي حال، لا يُمكنني أن أرى أيَّ كلمات إغريقية، وأرى هنا مجموعة من الأحرف التي قد تُكوِّن واحدة من الكلمات العبرية القليلة التي أعرفها، والكلمة هي «باديم» بمعنى «يكذب». لكن من الأفضل أن تجعل خبيرًا يفك شفرتها لنا.»

قال بادجر: «إن كانت تلك اللغة عبرية، فيُمكننا أن نتدبر أمرنا فيها؛ فهناك الكثير من اليهود تحت تصرُّفِنا.»

قال ثورندايك: «من الأفضل كثيرًا أن تأخذ الورقة إلى المتحف البريطاني، وأن تُعطيَها إلى القيِّم على الآثار الفينيقية لكي يفكَّ شفرتها.»

ابتسم المفتِّش بادجر ابتسامة ماكرة بينما دسَّ الورقة في دفتر ملحوظاته. وقال: «سنرى ما يُمكن أن نفهمه منها بأنفسنا أولًا، لكنِّي أشكرك جزيل الشكر على نصيحتك، أيها الدكتور. لا، يا سيد جيمس، لا يُمكنني أن أعطيَك أيَّ معلومات في الوقت الحالي؛ من الأفضل أن تذهب إلى المستشفى.»

قال ثورندايك حين سلكنا طريقنا نحو المنزل: «أعتقد أن السيد جيمس قد جمع ما يكفي من المعلومات لكي يُحقِّقَ غرضه. لا بد وأنه تَبِعنا من المستشفى، ولا أشكُّ في أنه قد حصل على بنود التقرير الصحفي الذي سيَنشره مُفصَّلًا في ذهنه في هذه اللحظة. ولستُ واثقًا من أنه لم يسترق النظر إلى الورقة الغامضة على الرغم من حذر المفتش.»

قلت له: «بالمناسبة، ماذا تَفهم من الورقة؟»

أجابني: «على الأرجح إنها شفرة. إنها مكتوبة بأبجدية سامية بدائية، وهي كما تعرف مطابقةٌ لتلك الخاصة باللغة الإغريقية البدائية. وهي مكتوبة من اليمين إلى اليسار، ككتابات اللغة الفينيقية والعبرية والمؤابية بالإضافة إلى اللغة الإغريقية الأقدم. والورقة هي ورقة ملاحظات عادية ذات لون كريمي، والحبر هو حبر صيني عادي لا يُمحَا كالذي يستخدمه صانعو الوثائق. تلك هي الحقائق، ومن دون المزيد من التعمق في دراسة الورقة نفسها، فلن نتمكَّن من فهْم الكثير.»

«لماذا تعتقد أنها شفرة أكثر مما تعتقد أنها رسالة عادية مكتوبة باللغة العبرية؟»

«لأنَّ من الواضح أنها رسالة سرية من نوع ما. إن كلَّ يهودي متعلم يعرف اللغة العبرية إلى حدٍّ ما، وعلى الرغم من أنه قادر على القراءة والكتابة فقط بالأحرف العبرية المربعة الحديثة، فمن السهل تبديلُ أبجدية بأخرى بحيث لا تمثِّل اللغة في حدِّ ذاتها أيَّ حماية أو أمان. ومن ثَم، فإنني أتوقع أن الخبراء حين يُترجمون هذه الرسالة، فإن الترجمة لن تكون سوى مزيج من الهُراء غير المفهوم. لكننا سنرى، وفي تلك الأثناء فإن الحقائق التي لدينا تقدِّم العديد من الاقتراحات المُثيرة والتي تستحق أن نأخذَها في عين الاعتبار.»

«أعطني أمثلة.»

قال ثورندايك وهو يهزُّ إصبع سبابة على نحوٍ تحذيري في وجهي: «لا، يا عزيزي جيرفس. لا تفعل، أرجوك، لا تَسمح للتراخي العقلي بأن يتسلَّل إليك. لديك تلك الحقائق القليلة التي ذكرتُها لك. فكِّر فيها كلٍّ على حدة ثم فكِّر فيها بصورة جماعية، ثم فكِّر في علاقتها بالملابسات. لا تُحاول أن تستخلصَ من عقلي المعلومات في حين أن لديك عقلًا ممتازًا تستخلصها منه.»

في صباح اليوم التالي برهنت الجرائد تمامًا على صحة رأْي صديقي في السيد جيمس. كانت كلُّ الأحداث التي وقعت — بالإضافة إلى بعض الأحداث التي لم تحدث — قد نُشرت بتفاصيل كاملة وواضحة، كما أُشير على نحو مطول إلى الورقة «التي وُجدت مع جثة الداعي للفوضوية»، و«المكتوبة باختزال خاص أو بشفرة ما.»

وانتهى الخبر بالجملة المُرضية — رغم أنها غير حقيقية — والتي تقول «وفي تلك القضية المعقَّدة والمهمة، حصلت الشرطة بحكمة على مساعدة الدكتور ثورندايك، والذي لا شك أن الشفرة المشئومة سرعان ما ستنحلُّ وتبوح بكل أسرارها أمام ذكائه الحاد وخبرته الكبيرة.»

قال ثورندايك ضاحكًا بعد أن قرأتُ عليه هذا المقتطف لدى عودته من المستشفى: «هذا إطراء كبير، لكنه غيرُ ملائم قليلًا إذا ما كان سيحثُّ أصدقاءَنا على إيداع بضعة تذكارات تافِهة في شكل مركبات نترية في سُلَّمِنا الرئيسي أو في القَبو. بالمناسَبة، لقد قابلتُ مفوَّضَ الشرطة ميلر على جسر لندن. والشفرة، كما يُطلِق عليها السيد جيمس، قد تسبَّبت في حالة غضب كبير في سكوتلاند يارد.»

«هذا طبيعي. ماذا فعلوا في هذا الشأن؟»

«لقد تبنَّوا اقتراحي، في النهاية، بعد أن وجدُوا أنهم لا يُمكنهم أن يفهموا شيئًا بأنفسهم، وأخذوها إلى المتحف البريطاني. وقد أحالهم مسئولو المتحف إلى البروفيسور بابلباوم، عالم الكتابات القديمة المعروف، والذي قدَّموا إليه الورقة.»

«هل أبدى رأيًا فيها؟»

«أجل، على نحو مؤقَّت. بعد فحصٍ سريع، وجد أنها تتكوَّن من عدد من الكلمات العبرية المحشورة بين مجموعات من الحروف التي لا معنًى لها على ما يبدو. وقد قدَّم إلى المفوِّض ترجمة ارتجالية للكلمات، فطبع ميلر على الفور عدة نُسخ منها باستخدام الطباعة الهيكتوغرافية، ووزَّعها على المسئولين الكبار في قسمه؛ لذا في الوقت الراهن ...» هنا أطلق ثورندايك ضحكة صغيرة مكتومة ثم أكمل: «إن سكوتلاند يارد مُنخرطةٌ في

مسابقة لاكتشاف الكلمات الناقصة — أو بالأحرى المعاني الناقصة. وقد دعاني ميلر لأُدليَ بدَلْوي؛ ولهذا فقد أعطاني إحدى النسخ لأنظر فيها مع صورة فوتوغرافية للورقة.»

الشفرة.

سألتُه: «وهل ستفعل؟»

أجاب ضاحكًا: «لا بالطبع. أولًا، لم يتمَّ استشارتي بشكل رسمي، ومن ثَم فإنني متفرج غير فاعل، رغم أنني مهتمٌّ بالأمر. ثانيًا، لديَّ نظرية خاصة بي سأضعها موضع اختبار إذا ما سمحت الفرصة. لكن إذا ما أردتَ أن تُشارك في المسابقة، فأنا مخوَّلٌ لي أن أُريَك الصورة الفوتوغرافية والترجمة. سأُمررهما لك، وأتمنَّى لك أن تسعد بالعمل عليهما.»

ثم أعطاني الصورة الفوتوغرافية وورقة أخرجها للتوِّ من دفتر ملحوظاته، وراح يُشاهدني في سعادة وأنا أقرأ الأسطر القليلة الأولى.

ويل، مدينة، أكاذيب، سرقة، فريسة، صوت، سوط، قعقعة، عجلة، حصان، عربة، يوم، ظلمة، كآبة، غيوم، ظلام، صباح، جبل، ناس، قوي، نار، هم، لهب.

قلتُ معلِّقًا: «لا يبدو ذلك واعدًا جدًّا من النظرة الأولى. ما نظرية البروفيسور؟»

«نظريتُه — المبدئية بالطبع — هي أن الكلمات تمثِّل صلب الرسالة ومجموعات الحروف لا تُعدُّ سوى أشياء محشورة بين الكلمات.»

قلت معترضًا: «لكن سيكون هذا بالتأكيد خدعة مكشوفة للغاية.»

ضحك ثورندايك. وقال: «هناك سذاجة طفولية حيال الأمر، وهي مُثيرة للاهتمام كثيرًا لكنها مثبِّطة. أغلب الظن أن الكلمات زائفة وأن الأحرف هي التي تحتوي على الرسالة. أو، مرة أخرى، قد يكون الحل في اتجاه مختلف تمامًا. لكن أنصت! هل عربة الأجرة هذه تتَّجه نحو هنا؟»

كانت كذلك؛ فقد توقَّفتْ أمام منزلنا وبعد لحظات قليلة كان هناك خطوات تصعد الدرج بصوت سريع وحادٍّ ثم توقفتْ عند الباب. وحين فتحتُ الباب، وجدتُ نفسي أمام رجل غريب حسن الملبس، وبعد أن رمَقني بنظرة سريعة استرق النظر في فضول من فوق كتفي إلى داخل الغرفة.

قال الرجل: «أشعر بالارتياح يا دكتور جيرفس أني قد وجدتُك والدكتور ثورندايك في المنزل، حيث قصدتُكما في مسألة مهنية طارئة بعضَ الشيء.» ثم أكمل حديثه بعد أن دخَل استجابةً لدعوتي: «اسمي بارتون، لكنَّكما لا تعرفاني، رغم أنني أعرفكما شكلًا. لقد أتيتُ لأطلب منكما إن كان باستطاعة أحدكما أن يأتيَ — والأفضل أن تأتيَا معًا — معي الليلة لفحص أخي.»

قال ثورندايك: «يتوقَّف هذا على الظروف وعلى المكان الذي يوجد به أخوك.»

قال السيد بارتون: «الظروف، في رأيي، مثيرة للريبة بصورة كبيرة، وسأَعرضُها عليكما في سرِّيَّة تامَّة بالطبع.»

أومأ ثورندايك بالموافقة وأشار إليه ليجلس إلى كرسي.

أكمل السيد بارتون حديثه بعد أن أخذ الكرسي الذي عُرض عليه: «لقد تزوَّج أخي حديثًا للمرة الثانية. هو يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، أما زوجته فتبلغ ستة وعشرين عامًا، ويمكنني القول إن الزيجة لم تكن ناجحةً بأي شكل من الأشكال. وفي غضون الأسبوعين الماضيين، تعرَّض أخي لعدوى غريبة في معدته تسبَّبت له في ألمٍ كبير، ويبدو أن طبيب أخي لا يستطيع تحديدَ اسمٍ لها. وقد قاومتْ تلك العدوى كلَّ دواء وعلاج أخذه حتى الآن. ويتزايد الألمُ وتتفاقم المحنة يومًا بعد يوم، وأشعر أن نهايته ليست بعيدة، إلا إذا تمَّ اتخاذ أمر حاسِم.»

سأله ثورندايك: «هل يسوء الألم أكثر بعد تناوله الطعام؟»

صاح الزائر: «هذا هو الحال بالتحديد! إنَّني أعرف ما يجول بخاطرك، وقد جال بخاطري أيضًا؛ حتى إنَّني حاولتُ مرارًا أَخْذَ عينات من الطعام الذي يَحصل عليه. وقد نجحتُ هذا الصباح.» وهنا أخرج من جيبه زجاجةً عريضةَ الفم، ووضعها على الطاولة بعد أن نزع عنها غلافها الورقي. ثم أضاف: «حين ذهبتُ إليه كان يَتناول الأروروت كإفطار له، والذي قد اشتكى من أنَّ به طعمًا رمليًّا، وقد افترضتْ زوجتُه أن ذلك بسبب السكَّر. في تلك الأثناء، حصلتُ على هذه الزجاجة، وأثناء غياب زوجته، تمكنتُ من دون أن يُلاحظني أحدٌ أن أحصل في الزجاجة على بعض الأروروت الذي تركه، وسأكُون ممنونًا للغاية إن فحصتما تلك الزجاجةَ وأخبرتماني إن كان الأروروت يَحتوي على شيء لا يَنبغي له أن يحتويَ عليه.»

ثم دفع بالزجاجة باتجاه ثورندايك، الذي حملها في مقابل النافِذة وبعد أن أخرج بعض محتوياتها بقضيب زجاجي، فحص الكتلة العجينية باستخدام عدسة؛ ثمَّ وبعد أن رفع الغطاء الزجاجي الذي يتَّخذ شكل الجرس عن المجهر الموضوع على طاولته بجوار النافذة، مسح بكمية صغيرة من المادة المشتبه بها على شريحة زجاجية، ووضعها على منصَّة المجهر.

ثم قال بعد فحص سريع: «أُلاحظ وجودَ بضعة جسيمات كريستالية بها، والتي تبدو في شكلها وكأنها حمض الزرنيخ.»

صاح السيد بارتون: «آه! هذا ما كنتُ أخشاه تمامًا، لكن هل أنت متأكد؟»

قال ثورندايك: «لا، لكن يُمكن اختبار الأمر بسهولة.»

ضغط على زرِّ الجرس المتصل بالمعمل، وهو ما يُشكِّل استدعاءً جعل مساعدَه في المعمل يأتي بسرعة استثنائية.

قال ثورندايك: «هلَّا أعددتَ عدة اختبار مارش يا بولتون من فضلك؟»

ردَّ بولتون: «لديَّ عدتان جاهزتان يا سيدي.»

«إذن فقُم بصبِّ الحمض في واحدة منهما وأحضره لي، وأحضر معه قطعة قرميد.»

وبعد أن اختفَى مُساعدُه في صمت، استدار ثورندايك نحو السيد بارتون وقال: «بافتراض أننا وجدنا حمض الزرنيخ في هذا الأروروت، كما هو من المرجح، ماذا تريد منا أن نفعل؟»

أجاب العميل: «أريدكما أن تأتيَا وتفحصَا أخي.»

«ولماذا لا تأخذ مني رسالةً إلى طبيبه؟»

«لا، لا؛ أريدك منك أن تأتيَ — أرغب في أن تأتيَا كلاكما — وأن تضعَا على الفور حدًّا حاسمًا لهذا الأمر الشنيع. فكِّرَا في الأمر! إنها مسألة حياة أو موت. أنتما لن ترفضَا، أليس كذلك؟ أتوسَّل إليكما ألَّا ترفضَا مساعدتي في هذه الظروف العصيبة.»

قال ثورندايك بعد أن ظهر مساعدُه مرة أخرى: «حسنًا، لننظر أولًا ماذا سيُخبرنا به الاختبار.»

تقدَّم بولتون نحو الطاولة ووضع عليها قنينة صغيرة كانت محتوياتُها في حالة فوران، وزجاجةً مكتوبًا عليها «هيبوكلوريت الكالسيوم»، وقرميدة بيضاء من البورسلين. كانت القنينةُ الصغيرة مثبتةً بقمع أمان ويخرج منها أنبوبٌ زجاجيٌّ نحو صنبور دقيق وقد أشعل أمامه بولتون بحذرٍ عودَ ثقاب. فاندلع من الصنبور في الحال لهبٌ صغير بلون بنفسجي باهت. أخذ ثورندايك في تلك اللحظة القرميدة وأمسك بها فوق اللهب لبضع ثواني، فظلَّ شكلُ سطحها كما هو لم يتغير عدا دائرةٍ صغيرة من الرطوبة المكثفة. وكانت خطوة ثورندايك التالية هي تخفيف الأروروت بماء مقطرة حتى يُصبح سائلًا، ثم يصبُّ بعد ذلك كميةً صغيرة منه في القمع. جرى السائلُ ببطء في الأنبوب الزجاجي وحتى القنينة فاختلط سريعًا بالمحتويات الفوَّارة فيها. بدأ يظهر تغييرٌ فوريٌّ في سمات اللهب، والذي تحوَّل تدريجيًّا من لونٍ بنفسجي باهت إلى لون أزرق باهت، فيما تكوَّنت فوقه غيمةٌ باهتة من دخان أبيض. أمسك ثورندايك مرة أخرى بالقرميدة فوق الصنبور، لكن هذه المرة لم يَكد اللهبُ الباهت يلمس السطح الخزفي البارد حتى ظهرت عليه بقعةٌ سوداء لامعة.

علَّق ثورندايك قائلًا وهو يرفع السدادة عن زجاجة المادة الكاشفة: «هذا حاسم، لكننا سنقوم بتنفيذ الاختبار الأخير.» ثم وضع قطراتٍ قليلةً من محلول الهيبوكلوريت على

القرميدة فاختفت البقعةُ السوداء في الحال وتلاشت. فقال وهو يضع السدادة ويستدير نحو عميلنا: «يمكننا الآن أن نُجيبَ على سؤالك يا سيد بارتون. إن العينة التي أحضرتَها تحتوي بكل تأكيد على الزرنيخ، وبكميات كبيرة للغاية.»

صاح السيد بارتون وهو ينهض من على كرسيه: «إذن ستأتيانِ وتساعدانني على إنقاذ أخي من هذا الخطر المميت. لا ترفض يا دكتور ثورندايك، رحمةً بي، لا ترفض.»

فكَّر ثورندايك للحظة.

وقال: «قبل أن نقرر، لا بد وأن ننظر فيما لدينا من ارتباطات.»

وبعد أن رمقني بنظرة سريعة ذات مغزًى، دخل إلى غرفة المكتب وتبعتُه في دهشة؛ لأنني كنت أعرف أننا لم يكن لدينا أيُّ ارتباطات لهذا المساء.

قال ثورندايك بينما أغلق باب غرفة المكتب: «والآن، يا جيرفس، ماذا سنفعل؟»

أجبتُه: «في رأيي، ينبغي علينا أن نذهب حيث يبدو أن الحالة طارئة جدًّا.»

ردَّ عليَّ موافقًا: «بالفعل هي كذلك. وربما في النهاية كان الرجل يُخبرنا بالحقيقة.»

«إذن أتظنُّ أنه لا يفعل؟»

«لا، إنها حكاية معقولة ظاهريًّا، لكن هناك الكثير من الزرنيخ في عينة الأروروت هذه. ومع ذلك، أظن أننا لا بد وأن نذهب. هذه مخاطرة مهنية عادية، لكن ليس هناك داعٍ لمشاركتك في الأمر.»

قلت بنبرة تنمُّ عن الغضب بعض الشيء: «شكرًا لك. أنا لا أرى المخاطرة التي ينطوي عليها الأمر، لكنني لديَّ الحق في المشاركة إن كان هناك أيٌّ منها.»

أجابني مبتسمًا: «جيد جدًّا. سنذهب معًا. أعتقد أنه بإمكاننا أن نتدبر أمرنا.»

ثم دخل غرفة الجلوس مرة أخرى، وأعلن قراره للسيد بارتون، والذي كان شعورُه بالارتياح والامتنان يُثيران الشعور بالشفقة تجاهه.

قال ثورندايك: «لكنك لم تُخبرنا بعدُ أين يعيش أخوك.»

كانت الإجابة: «ريكسفورد في إيسيكس. إنه مكان منعزل، لكننا إذا ما لحقنا بقطار السابعة والربع من شارع ليفربول، فسنكون هناك في غضون ساعة ونصف.»

«وماذا عن العودة؟ أعتقد أنك تعرف مواعيد القطارات، أليس كذلك؟»

أجاب عميلُنا: «أوه، أجل. سأحرص على ألَّا يفوتَكما قطارُ العودة.»

قال ثورندايك: «إذن سأكون معك في غضون دقيقة.» ثم أخذ القنينة التي كانت محتوياتُها لا تزال تفور إلى المعمل، وعاد بعد بضع دقائق وهو يحمل قبعته ومعطفه.

كانت عربةُ الأجرة التي أحضرت عميلَنا لا تزال تنتظر، وسرعان ما كانت عجلاتُها تقعقع عبر الشوارع نحو المحطة، حيث وصلنا في الوقت المناسب لنحصل على سلال العشاء ونختار مقصورتنا دون عجلة.

أثناء الجزء الأول من الرحلة كان رفيقنا يتمتع بمعنويات عالية. لقد أخرج الدجاجة الباردة من السلة وتجرَّع الكلاريت في تلذُّذٍ واستمتاع وكأنه لم يكن هناك ما يُشغل بالَه، وبعد العشاء أصبح مبتهجًا حد المرح الصاخب. لكن بمرور الوقت، تسلل إلى سلوكه شيءٌ من القلق والانزعاج. أصبح صامتًا ومنهمكًا، ونظر في ساعته خلسةً عدة مرات.

قال الرجل في نبرة تنمُّ عن الانزعاج: «لقد تأخر القطار كثيرًا! إنه متأخر عن موعده بسبع دقائق!»

قال ثورندايك: «إن بضع دقائق قبل موعده أو بعده ليست ذات أهمية كبيرة.»

«لا، بالطبع لا؛ لكن مع ذلك ... آه، حمدًا للرب، لقد وصلنا!»

ثم دفع برأسه خارج النافذة الجانبية وحدَّق في تلهُّفٍ على طول الرصيف، ثم قفز على قدمه وخرج من القطار إلى الرصيف بينما كان لا يزال يتحرك.

وبينما كنا ننزل من القطار، انطلق جرسُ إنذار بقوة على الرصيف، وبينما كان السيد بارتون يهرع بنا عبر مكتب حجز التذاكر الفارغ إلى خارج المحطة، كان بإمكاننا سماعُ صوت القطار القادم والذي غطَّت ضوضاؤه على ضوضاء انطلاق قطارنا من المحطة.

صاح السيد بارتون قائلًا وهو ينظر في تلهُّفٍ عبر الطريق أمام المحطة: «لم تَصِل عربتي بعد. معذرة، انتظرَا هنا دقيقة وسأذهب لأستفسر عن الأمر.»

ثم انطلق كالسهم عبر مكتب الحجز ونحو الرصيف، بينما كان القطار القادم يدخل المحطة. تبعه ثورندايك بخطوات سريعة وخفية، وأطلَّ برأسه من خلال باب مكتب الحجز وشاهد ما كان يقوم به؛ ثم عاد وأشار إليَّ.

وقال وهو يُشير إلى جسر مشاة حديدي يمتدُّ فوق السكة الحديدية: «ها هو.» وبينما كنت أنظر، رأيت شيئًا بارزًا، في مقابل الضوء الخافت في السماء، وكان يجري بسرعة وكأنه يتسابق نحو أعلى الجسر.

كان قد قطع ثلثَي الجسر بالكاد حين انطلقتْ صافرةُ الحارس معبرةً عن تحذير صاخب.

صاح ثورندايك: «أسرع يا جيرفس. لقد انطلق!»

ثم قفز على خط السكة الحديدية، وتبعتُه أنا في الحال، وبعد أن عبرنا الخط، تسلقنا معًا إلى الممر الجانبي المقابل لمقصورة درجة أولى خالية. كانت سكينة ثورندايك تحتوي من بين أجزاء أخرى على مفتاح لفتح عربات القطار، وكان ثورندايك قد أخرجها بالفعل. تم فتح الباب بسرعة، وبينما كنا ندخل منه، هرع ثورندايك ونظر خارج القطار إلى الرصيف.

ثم قال: «لقد دخلنا في الوقت المناسب تمامًا! إنه في إحدى المقصورات الأمامية.»

ثم أعاد إغلاق الباب وجلس وشرع يملأ غليونه.

قلت والقطار يغادر المحطة: «والآن، هلَّا شرحتَ لي تلك المسرحية الكوميدية الصغيرة.»

قال: «بكل سرور، إذا كان الأمر يحتاج لأيٍّ تفسير. لكن لا يمكن لك أن تكون قد نسيتَ ملاحظات السيد جيمس المتملقة في تقريره عن حادثة شارع جريك ستريت، والتي تُعطي انطباعًا صريحًا بأن الورقة الغريبة كانت بحوزتي. وحين قرأت ذلك، عرفت أنني ينبغي عليَّ أن أنتبه إلى محاولات استعادتها، رغم أنني لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه السرعة. ولكن وحين أتى السيد بارتون من دون سابق معرفة أو موعد سابق، كنتُ أتعامل معه بشيء من التشكك. وقد زادت شكوكي حين أراد منا أن نذهب كلينا معه. وزادت أكثر حين وجدتُ كمية كبيرة للغاية من الزرنيخ في عينته، وقد تحولت تلك الشكوك إلى يقين حين تركتُ له حرية اختيار القطار الذي سنذهب به وصعدتُ بعدها إلى المعمل وفحصتُ جدول المواعيد ووجدتُ أن آخر قطار يتجه إلى لندن يغادر ريكسفورد بعد عشر دقائق من الوقت المحدد لوصولنا. من الواضح أن تلك كانت خطةً لإزاحتنا بأمان تمامًا من الطريق بينما يقوم هو وبعض أصدقائه بتفتيش منزلنا بحثًا عن الورقة المفقودة.»

«فهمت؛ وهذا يُفسِّر قلقه البالغ من تأخُّر القطار. لكن لماذا أتيتَ إذا كنتَ تعرف أن الأمر خدعة؟»

قال ثورندايك: «يا صديقي العزيز، إنني لا أفوِّت أبدًا تجربة مثيرة إذا ما كان باستطاعتي اختبارها. هناك احتماليات في هذا الأمر أيضًا، ألا ترى ذلك؟»

«لكن ماذا عن احتمالية أن أصدقاءه قد اقتحموا منزلنا بالفعل؟»

«لقد توليتُ أمر احتمالية كهذه؛ لكنني أظن أنهم سينتظرون السيد بارتون وسينتظروننا.»

ولأن قطارنا كان هو الأخير في وجهته، فقد توقَّف في كل محطة وكان يسير ببطء شديد وكأنه يزحف؛ لذا فقد كانت الساعة قد تخطَّت الحادية عشرة حين وصلنا إلى

شارع ليفربول. هناك خرجنا ونحن نتوخى الحذر، واختلطنا في الحشود وتبعنا بارتون على الرصيف وهو غيرُ واعٍ لنا، وعبرنا الحاجز، وخرجنا إلى الشارع. لم يبدُ عليه أنه في عجلة من أمره؛ ذلك أنه بعد أن توقف ليُشعل سيجارًا كان يسير بوتيرة هادئة في شارع نيو برود.

نادى ثورندايك على عربة أجرة، وبعد أن أومأ لي أن أدخلها، أمر السائق أن يذهب إلى زقاق كليفورد إن.

ثم قال بينما كانت العربة تقطع شارع نيو برود: «عُد بظهرك للخلف قليلًا، فسنمرُّ على مخادعنا الغبي، ها هو بالفعل، إنه تجسيدٌ حيٌّ يسير على قدمين للحماقة الناتجة عن التقليل من ذكاء خصمك.»

وعند زقاق كليفورد إن، نزلنا من العربة، وبعد أن انسحبنا إلى ظلام الزقاق المظلم الضيق، ثبَّتْنا أنظارنا على بوابة إنر تيمبل لين. وفي غضون عشرين دقيقة تقريبًا، رأينا صديقنا وهو يقترب من الجهة الجنوبية من شارع فليت، وقد توقف عند البوابة، واستعمل القارعة وبعد حديث سريع مع الحارس الليلي اختفى عبر البوابة الصغيرة. انتظرنا نحن خمس دقائق أخرى، ثم عبرنا الطريق بعد أن منحناه الوقت الكافي ليقطع المدخل.

نظر إلينا الحارس بنظرات يعلوها بعضُ الدهشة.

وقال: «هناك رجل دخل إلى منزلكما للتوِّ يا سيدي. وقد أخبرني أنكما تنتظرانه.»

قال ثورندايك بابتسامة جافة: «صحيح. أنا أنتظره. طاب مساؤك.»

ثم تسلَّلنا عبر الزقاق وتخطينا الكنيسة وسِرْنا عبر الأديرة الكئيبة، مبتعدين عن جميع المصابيح والمداخل المضاءة بمسافة كبيرة، حتى أصبحنا أمام مبنى الوثائق فسِرْنا من أكثر النقاط المظلمة حوله حتى وصلنا إلى شارع كينجز بينش ووك، حيث سار ثورندايك مباشرة نحو منزل صديقنا أنستي، والذي كان يعلو منزلنا بطابقين.

سألتُ ثورندايك بينما كنا نصعد السلم: «لماذا أتينا إلى هنا؟»

لكن لم يكن سؤالي بحاجة إلى إجابة حين وصلنا إلى بسطة الدرج؛ ذلك أنني استطعتُ من خلال الباب المفتوح لمنزل صديقنا أن أرى أنستي بنفسه في حجرة مظلمة بصحبة اثنين من رجال الشرطة بزيٍّ رسميٍّ واثنين آخرين بزيٍّ مدنيٍّ.

قال أحد الذين يرتدون زيًّا مدنيًّا: «لم تأتِ الإشارة بعد يا سيدي.» وقد عرفت أنه محقق برتبة رقيب في قسمنا.

قال ثورندايك: «لا، لكن عضو العصابة وصل. لقد دخل إلى هنا قبلنا بخمس دقائق.»

قال أنستي: «إذن، سيداتي وسادتي، سنفتتح حفلة الرقص بعد قليل. تم تشميع الألواح، والعازفون يستعدون، و…»

قال الرقيب: «ليس بصوتٍ عالٍ إذا سمحت يا سيدي. أعتقد أن هناك شخصًا آتيًا من جهة كراون أوفيس رو.»

كانت حفلة الرقص قد افتُتحت بالفعل؛ حيث بينما كنا ننظر بحذر من النافذة المفتوحة ونحاول أن نتخفَّى في ظلام الحجرة المظلمة، تسلَّل أحدهم خلسة من الظلام، وعبرَ الطريق وانسلَّ إلى داخل منزل ثورندايك. تَبِعه سريعًا شخصٌ ثانٍ، ثم ثالث، وعرفتُ أن الشخص الثالث كان هو عميلنا المخادع.

قال ثورندايك: «والآن استمعوا إلى الإشارة. إنهم لن يُضيِّعوا الوقت. اضبطوا الساعة!»

دقَّ جرسُ ساعة إنر تيمبل ذو الصوت الهادئ واختلط بأصوات جرسَي ساعتَي كنيسة سانت دانستان والمحاكم الأكثر خشونة، معلنةً كلها عن قدوم منتصف الليل؛ وبينما كان آخرُ صدًى للدقات يخفتُ، سقط شيءٌ معدني — من الواضح أنه كان عملة معدنية — على الرصيف تحت نافذتنا محدثةً صوتَ صليلٍ حادة.

وعلى وقع هذا الصوت هبَّ المراقبون واقفين في نفس الوقت.

قال الرقيب وهو يخاطب الرجلين ذوَي الملابس الرسمية: «اذهبَا أنتما الاثنان أولًا.» وحيث إن كلًّا منهما كان يرتدي حذاءً ذا نعل مطاطي، فقد تسلَّلَا من دون صوت على الدرج الحجري وعلى طول الرصيف. تبعهما بقيتُنا، وقد أولينا اهتمامًا أقل إلى الهدوء، وبينما كنا نهرع باتجاه منزل ثورندايك، كنا نسمع خطوات أقدام سريعة وخفية على الدرج فوقنا.

همس أحدُ رجلَي الشرطة وهو يسلِّط ضوء مصباحه على الباب الحديدي الخارجي لغرفة الجلوس الخاصة بنا، والذي كانت آثارُ عتلة كبيرة بارزةً عليه: «إنهم ينجزون عملهم كما هو واضح.»

أومأ الرقيب في تجهُّم، وبعد أن أمر رجلَي الشرطة أن يبقيَا على بسطة الدرج، قادنا صعودًا إلى أعلى.

وبينما كنَّا نصعد الدرج، كنَّا نسمع خشخشة خافتة من فوقنا، وفي بسطة الدرج في الطابق الثاني، قابلْنا رجلًا ينزل السلَّم من الطابق الثالث في هدوء، لكن من دون أن يكون متعجِّلًا. كان هو السيد بارتون ولم أتمكَّن سوى من أن أعجَب بهدوئه ورباطة جأشه حين مرَّ بالمحققين. لكن وقعتْ عينُه فجأةً على ثورندايك وتلاشى ما كان يتحلَّى به

من هدوء. وبعينين جاحظتين من الرعب، توقَّف وكأنه تمثال حجري؛ ثم هرب وحاول أن يُسرعَ بشدة في نزوله على الدرج، وفي غضون لحظة جاءت صرخةٌ مكتومة وصوتُ شجارٍ فعرفنا أنه تمَّ إيقافُه. وفي الطابق التالي قابلنا اثنين آخرين من الرجال — وقد كانوا على عجلة أكثر وأقل هدوء — وقد حاولَا أن يتجاوزانا؛ لكن الرقيب كان قد سدَّ طريقهما.

صاح الرقيب متعجبًا: «يا إلهي! هذا مواكي؛ وأليس هذا توم هاريس؟»

قال مواكي بنبرة حزينة وهو يحاول أن يتخلص من قبضة الضابط: «لا بأس أيها الرقيب. لقد أتينا إلى المكان الخاطئ. هذا كلُّ ما في الأمر.»

ابتسم الرقيب ابتسامة خافتة ورد عليه: «أعلم ذلك. لكنك دومًا ما تأتي إلى المكان الخاطئ يا مواكي. والآن ستأتي معي إلى المكان الصحيح.»

ثم دسَّ يدَه بداخل معطف الرجل، وأخرج منه عتلةً مطوية كبيرة؛ وهنا توقف اللصُّ القلِق عن أيِّ محاولة أخرى للاحتجاج.

ولدى عودتِنا إلى الطابق الأول، وجدنا السيد بارتون ينتظرنا في تجهُّم، وهو مقيد بالأصفاد إلى أحد رجلي الشرطة، ويراقبه بولتون في استهجان عميق.

قال الرقيب بينما قاد فرقتَه العسكرية الصغيرة وسجناءَه: «لن أُزعجَك الليلة يا دكتور. ستسمع منَّا في الصباح. طاب مساؤك يا سيدي.»

ثم نزل الموكب الكئيب على الدرج وعُدنا نحن إلى منزلنا مع أنستي لندخن آخر غليون في اليوم.

قال ثورندايك: «إن بارتون هذا رجل قوي، وهو يتسم بالسرعة والمنطقية والبراعة، لكن ما أفسده هو اتصاله الدائم بالحمقى. أتساءل ما إن كانت الشرطة سترى أهمية ذلك الحدث البسيط.»

قلت: «سيكونون أكثر مني ذكاءً إذا ما فعلوا.»

قاطعني أنستي والذي كان يحب أن يستخفَّ برئيسه الموقَّر: «بالطبع، لأنه لا يوجد أيٌّ من ذلك. لا يوجد سوى نشاط ثورندايك. إنه مشوَّش كثيرًا بحقٍّ بشأن هذا الأمر.»

بصرف النظر عن مدى صحة ذلك، كانت الشرطة متحيرة كثيرًا تجاه تلك الحادثة؛ ففي الصباح التالي، زارنا المفوَّض ميلر بنفسه من سكوتلاند يارد.

قال ميلر وهو يدخل في الحال في صلب الموضوع: «هذا أمر غريب؛ أقصد أمر تلك السرقة. لماذا أرادوا أن يقتحموا منزلك، هنا في إنر تيمبل؟ ليس لديك شيءٌ ذو قيمة، أو ما يُطلقون عليه «شيء نفيس» هنا، أليس كذلك؟»

أجابه ثورندايك والذي كان يعاني من نفور شديد من الكليشيهات بكافة أنواعها: «ليس أكثر من ملعقة شاي فضية.»

قال المفوَّض: «الأمر غريب؛ بل في غاية الغرابة. فحين وصلتْنا رسالتُك، ظننا أن دعاة الفوضوية الأغبياء هؤلاء قد اختلط عليهم الأمرُ فيما يتعلق بدورك في القضية — أعتقد أنك رأيت الورقة — وأرادوا أن يقتحموا بيتك ويفتشوه لسبب ما. ظننا أننا ألقينا القبض على العصابة، ولكن بدلًا من ذلك وجدنا أنفسنا أمام مجموعة من الأغبياء العاديين الذين سئمنا منهم. إنه من المزعج يا سيدي أن تظن أنك اصطدت سمكة سالمون ثم تخرج الصنارة فتجد سمكة أنقليس صغيرة.»

وافقه ثورندايك وهو يكبت ضحكه: «لا بد وأن ذلك يمثِّل خيبة أمل كبيرة.»

قال المفوض: «هو كذلك. لكن هذا لا يعني أننا غير مسرورين كثيرًا للقبض على أولئك المحتالين، وخصوصًا هالكيت أو بارتون كما يدعو نفسه — إن هالكيت فاسق كبير وشرير أيضًا — لكننا لا نريد التعرض لأي خيبات أمل أخرى الآن. لقد كان هناك تلك المهمة الكبيرة بشأن ماسة في بيكاديلي وتابلن وهورن، ولا أجد مانعًا من أن أُخبرك أننا لم نحصل فيها حتى ولو على ظلِّ دليل. ثم يأتي أمرُ مسألة دعاة الفوضوية هذه التي لا نفهم فيها شيئًا.»

سأله ثورندايك: «لكن ماذا عن الشفرة؟»

صاح المفوض في انزعاج كبير: «أوه، تبًّا للشفرة! ربما كان البروفيسور بابلباوم خبيرًا، لكنه لم يُقدِّم لنا الكثير من المساعدة. إنه يقول إن الورقة مكتوبة بالعبرية، وقد ترجمها إلى لغة غير مفهومة تمامًا. فقط استمع لهذا!» ثم سحب من جيبه مجموعة من الأوراق، ووضع صورة فوتوغرافية من الورقة أمام ثورندايك، وبدأ يقرأ تقرير البروفيسور: «الورقة مكتوبة بأحرف الكتابة الشهيرة لميشا ملك المؤابيين (مَن هو هذا الملك بحق الجحيم؟ لم أسمع عنه من قبل. هل هو شهير بالفعل؟!) واللغة هي العبرية، والكلمات تفصل بينها مجموعاتٌ من الأحرف التي لا معنًى لها، والتي من الواضح أنها حُشرت لتُضلل القارئ وتُربِكَه. والكلمات نفسها غير متوالية منطقيًّا بدقة، لكن وباستنطاق كلمات أخرى بعينها، نحصل على سلسلة من الجمل الواضحة، والتي معناها غير واضح كثيرًا، لكنها وبلا شك مجازية. وموضَّحٌ بالجداول المرفقة طريقةُ فك الشفرة، والرسالة المقترحة مقدمة في الورقة المرفقة. ومن الجدير بالملاحظة أن كاتب هذه الورقة على ما يبدو ليس على دراية كبيرة باللغة العبرية كما هو واضح من غياب أيِّ بناء نحوي.»

هذا هو تقرير البروفيسور أيها الدكتور، وها هي الجداول التي توضِّح كيف عمل على الشفرة. إنني أُصاب بالدوار من مجرَّد النظر إليها.»

ثمَّ أعطى لثورندايك مجموعة من الأوراق الملفوفة، والتي نظر فيها صديقي بانتباه بالغ لبرهة من الوقت، ثم مرَّرَها إليَّ.

قال ثورندايك: «هذا عمل منهجي وشامل. لكن دعونا ننظر الآن للنتيجة النهائية التي وصل إليها.»

| | Space | Word | Space | Word | Space | Word |
|---|---|---|---|---|---|---|
| Moabite | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |
| Hebrew | | בַּדִּים | | עִיר | | אוֹי |
| Translation | | LIES | | CITY | | WOE |
| Moabite | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |
| Hebrew | | קוֹל | | טֶרֶף | | גָּזֵל |
| Translation | | NOISE | | PREY | | ROBBERY |
| Moabite | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |
| Hebrew | | אוֹפַן | | רַעַשׁ | | שׁוֹט |
| Translation | | WHEEL | | RATTLING | | WHIP |
| Moabite | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] | [illegible] |
| Hebrew | | יוֹם | | מֶרְכָּבָה | | סוּס |
| Translation | | DAY | | CHARIOT | | HORSE |

تحليل البروفيسور. مكتوب بخط اليد: تحليل الشفرة مع ترجمتها إلى أحرف العبرية المربعة الحديثة + ترجمة لها إلى الإنجليزية. **ملحوظة:** تُقرأ الشفرة من اليمين إلى اليسار.

دمدم المفوض قائلًا بينما كان يُفتش في أوراقه: «قد يكون منهجيًّا للغاية، لكنني أؤكد لك أنه كله هراء!» كان قد نطق بآخر كلمة في شراسة بينما ضرب الطاولة بالورقة التي تحتوي على النتيجة النهائية لما بذل البروفيسور من جهد. وأكمل حديثه قائلًا: «هاك، هذا هو ما يُطلق عليه البروفيسور «الرسالة المقترحة» وأعتقد أنها ستجعل شعرك يشيب. قد تكون تلك رسالة من مستشفى المجانين.»

أخذ ثورندايك الورقة الأولى، وبينما كان يقارن المقترحات المبتدعة بالترجمة الحرفية، لاحتْ على محيَّاه الجامد عمومًا ابتسامة خافتة.

وعلَّق قائلًا: «المعنى غامض قليلًا بلا شك، لكن إعادة إنشاء الرسالة في غاية البراعة؛ وعلاوة على ذلك، أعتقد أن البروفيسور على حق. أعني أن الكلمات التي أمدَّنا بها هي الأجزاء المحذوفة من الفقرات التي أُخذت منها كلمات الشفرة. ما رأيك يا جيرفس؟»

أعطاني الورقتين، وقد تضمنت الأولى الكلمات الفعلية للشفرة، في حين تضمنت الثانية الرسالة المقترحة، بعد إدخال الكلمات الناقصة. كان محتوى الأولى كما يلي:

> ويل، مدينة، أكاذيب، سرقة، فريسة، صوت، سوط، قعقعة، عجلة، حصان، عربة، يوم، ظلمة، كآبة، غيوم، ظلام، صباح، جبل، ناس، قوي، نار، هم، لهب.

وبعد أن تحوَّلت إلى الورقة الثانية، قرأت الرسالة المقترحة:

> ويل للمدينة اللعينة! إنها مليئة بالأكاذيب والسرقة؛ لم تُغادِر الفريسة. صوت السوط، وضوضاء قعقعة العجلات وقفز الأحصنة، والعربات الوثابة.
>
> يوم يتَّصف بالظلمة والكآبة، يوم ملبَّد بالغيوم والظلام الكثيف، بينما ينشر الصباح خيوطه على الجبال، وأناس أقوياء وعظماء.
>
> تشتعل النار أمامهم، ومن خلفهم يستعر اللهب.

انتهت الورقة الثانية هنا وبينما كنتُ أضعها من يدي، نظر إليَّ ثورندايك متسائلًا.

قلت مبديًا اعتراضي: «هناك الكثير من إعادة التشكيل فيما يتعلَّق بالنص الأصلي. لقد قدَّم البروفيسور أكثر من ثلاثة أرباع الرسالة النهائية.»

انفجر المفوَّض قائلًا: «بالضبط. إنها كلها رسالة البروفيسور وليسَت الشفرة.»

قال ثورندايك: «لكنَّني ما زلت أعتقد أن القراءة صحيحة بقدر ما يذهب إليه الأمر.»

صاح المفوض القانط قائلًا: «يا إلهي. أتُريد أن تقول يا سيدي إنَّ هذا الكلام الفارغ هو المعنى الحقيقي للشفرة؟»

أجاب ثورندايك: «لستُ أقصد ذلك. إنَّما أقول إنها صحيحة بقدر ما يذهب إليه الأمر؛ لكنني أشك في أنها هي حلُّ الشفرة.»

قال ميلر في حماسة مفاجئة: «هل فحصتَ الصورة الفوتوغرافية التي أعطيتُك إياها؟»

قال ثورندايك مراوغًا: «نظرتُ فيها، لكنَّني أريد أن أفحص الورقة الأصلية إن كانت معك.»

قال المفوض: «إنَّها معي؛ فقد أرسلها لي البروفيسور بابلباوم مع حلِّ الشَّفرة. يُمكنك أن تُلقيَ نظرة عليها، لكنَّني لا أستطيع أن أتركها معك من دون إذن خاص.»

ثمَّ سحب الورقة من دفتر ملحوظاته وأعطاها لثورندايك، الذي أخذها باتجاه النافذة وتفحصها بعينِه عن كثب. ومن عند النافذة انتقل إلى المكتب المُجاوِر، وأغلق الباب خلفه؛ ثم سرعان ما عرفتُ من صوت انفجار خافت أنه قد أشعل موقد الغاز.

قال ميلر وهو يُمسك بترجمة الشفرة مرة أخرى: «بالطبع، هذه الثرثرة هي ما قد تتوقع الحصول عليه من مجموعة من دعاة الفوضوية المخبولين؛ لكن لا يبدو أنها تَعني أيَّ شيء.»

قلتُ له موافقًا: «ليس بالنسبة لنا، لكن ربما كان للجُمَل معانٍ ذات ترتيب مسبق. ثم هناك الأحرف بين الكلمات التي من المحتمل أنها هي التي تمثل الشفرة.»

قال ميلر: «لقد اقترحتُ هذا على البروفيسور، لكنه لم يوافق على كلامي. إنه متأكد أنها مجرد حروف زائفة.»

«أعتقد أنه مخطئ، وأعتقد أن صديقي يعتقد ذلك أيضًا. لكننا سرعان ما سنرى ما سيقول.»

غمغم ميلر قائلًا: «أوه، أعرف ما سيقوله. سيضع الورقة تحت المجهر ويُخبرنا بمن صنع الورقة وما يتكون منه الحبر ولن نتمكن من اكتشاف أيِّ شيء.» وقد بدا المفوَّض محبطًا بشدة.

جلسنا بعض الوقت نفكر في صمت في الجمل الغامضة التي أخرجها البروفيسور في ترجمته، حتى ظهر ثورندايك مرة أخرى بعد مرور فترة طويلة وهو يُمسك بالورقة في يده. ووضع ثورندايك الورقة في هدوء على الطاولة بجوار المفوض، ثم قال متسائلًا:

«أهذه استشارة رسمية؟»

أجابه ميلر: «بالطبع. لقد خُوِّلتُ أن أستشيرَك فيما يتعلق بالترجمة، لكنَّ شيئًا لم يُذكر بشأن الورقة الأصلية. مع ذلك، إذا ما كنت تريدها للمزيد من الفحص، فلك ذلك.»

قال ثورندايك: «لا، شكرًا لك. لقد انتهيتُ من فحصها، واتضح أن نظريتي صحيحة.»

صاح المفوَّض في حماسة: «نظريتك! أتقصد أن تقول ...؟»

«وبما أنك تستشيرني بشكل رسمي، فسأعطيك هذه.»

ثم أعطاه ورقة، فأخذها المفوض وبدأ يقرؤها.

ثم سأل وهو ينظر إلى ثورندايك في عبوس وحيرة: «ما هذا؟ من أين أتى هذا؟»

أجابه ثورندايك: «هذا هو حلُّ الشفرة.»

أعاد المفوض قراءة محتويات الورقة، ثم راح يُحدِّق مرة أخرى في صديقي بينما كانت تعابير العبوس الناتج عن حيرته تزداد على وجهه.

ثم قال عابسًا: «هذه مزحة يا سيدي؛ أنت تمزح معي.»

أجابه ثورندايك: «على الإطلاق. هذا هو الحل الصحيح.»

صاح ميلر متعجبًا: «ولكن هذا مستحيل. انظر إلى ذلك يا دكتور جيرفس.»

أخذتُ الورقة من يده وبينما كنتُ أنظر فيها، لم أجد صعوبة في فهم شعوره بالمفاجأة. كانت الورقة تحمل نصًّا قصيرًا يقول:

> أشياء بيكرديلي في بناية كيمبلي الكائنة في رقم ٤١٦ من شارع ووردور بالطابق الثاني من الجهة الخلفية. وقد أُخفيت لأن مواكي العجوز شخصٌ حقير.

صحتُ متعجبًا: «إذن لم يكن ذلك الرجل من دعاة الفوضوية قط؟»

قال ميلر: «لا. لقد كان أحدَ أفراد عصابة مواكي. كنا نشك أن مواكي له يد في هذا الأمر، لكننا لم نستطع أن نُثبت عليه شيئًا. ثم أضاف وهو يضرب فخذه: «يا إلهي! أتمنى أن يكون هذا صحيحًا، وأستطيع أن أضع يدي على الغنيمة! أيمكنك أن تُعيرني حقيبة يا دكتور؟ سأذهب إلى شارع ووردور في التوِّ واللحظة.»

أمددناه بحقيبة فارغة، وشاهدناه من النافذة وهو يتجه نحو ميتر كورت في انعطاف سريع.

قال ثورندايك: «أتساءل إن كان سيجد غنيمته. الأمر يتوقف فقط على ما إن كان مكان إخفائها معلومًا لأكثر من واحد من أفراد العصابة. في الواقع، كانت هذه القضية غريبة وحافلة بالمعلومات أيضًا. وأعتقد أن صديقنا بارتون وشونبيرج المراوغ كانَا هما العقلَين المدبرَين اللذين أنتجَا تلك الشفرة المثيرة للفضول.»

قلت: «هل لي أن أسألك كيف حللت لغز الشفرة؟ فلم يستغرق ذلك منك طويلًا.»

«لا، لم يستغرق طويلًا. كان الأمر مجرد اختبار لفرضية ما.» ثم أضاف في نبرة صارمة زائفة: «ولا ينبغي لك أن تطرح مثل هذا السؤال، بالنظر إلى أنك كنت تمتلك ما يبدو أنه كل الحقائق الضرورية بخصوص القضية منذ يومين، لكنني سأجهز وثيقة وسأوضح لك الأمر في صباح الغد.»

قال ثورندايك بينما كنا ندخن الغليون في الصباح بعد تناول الإفطار: «لقد نجح ميلر في مسعاه؛ فقد كانت «الغنيمة الكاملة»، كما يُطلق هو عليها، «في بناية كيمبلي» دون أن يَمسَّها أحد.»

ثم أعطاني ورقة جلبها رسولٌ مع الحقيبة الفارغة قبل وقت قصير، وكنت على وشك أن أقرأها حين سمعنا طَرْقًا كثيرًا على الباب. كان الزائر الذي أدخلتُه هو رجل مسنٌّ هزيل وأشعث، وبينما كان يدخل من الباب أخذ يتنقل بنظره في فضول من خلال نظارته المقعَّرة بيني وبين صديقي.

ثم قال: «اسمحَا لي أيها السيدان أن أُقدِّم نفسي. أنا البروفيسور بابلباوم.»

انحنى له ثورندايك محيِّيًا وطلب منه أن يجلس.

أكمل زائرُنا حديثه قائلًا: «لقد ذهبتُ إلى سكوتلاند يارد البارحة عصرًا، وسمعت بحلِّك المثير للغز الشفرة وبالدليل القاطع على صحته. ومن ثَمَّ فقد اقترضتُ الورقة التي بها الشفرة وأمضيتُ الليلة بطولها وأنا أدرسها، ولكنني لا أستطيع أن أربط بين الحل الذي قدَّمتَه وأيٍّ من الأحرف. وأتساءل إن كنت ستُسدي لي معروفًا وتُطلعني على طريقة حلِّك للشفرة وتوفِّر عليَّ لياليَ أخرى دون نوم؟ ويمكنك أن تثق في تكتمي على الأمر.»

سأله ثورندايك: «هل الورقة معك؟»

أخرجها البروفيسور من دفتر ملحوظاته، وناولها لصديقي.

قال الأخير: «أتُلاحظ أيها البروفيسور أن هذه الورقة عادية وليس بها أيُّ علامة مائية؟»

«أجل، لاحظتُ ذلك.»

«وأن الكتابة بالحبر الصيني الذي لا يُمحى؟»

قال العالم وقد نفد صبره: «أجل، أجل، لكن ما يُثير اهتمامي هو الكلام المكتوب وليس الورقة أو الحبر.»

قال ثورندايك: «بالتأكيد. مع ذلك، كان الحبر هو ما أثار اهتمامي حين وقع نظري على الورقة قبل ثلاثة أيام. فسألت نفسي: لماذا قد يستخدم أحدُهم هذا الشيء المزعج في حين أن بإمكانه الحصول على حبر كتابة جيد؛ لأن هذا الحبر يبدو أنه مصنوع من أعواد؟ ما المميزات التي يتمتع بها الحبر الصيني على حبر الكتابة؟ إنه يتمتع بالعديد من المزايا عند استخدامه في الرسم، لكن عند استخدامه في الكتابة فهو لا يتمتع إلا بميزة واحدة، وهي أنه لا يتأثر بالبلل. إذن نجد أن الاستنتاج المنطقي الذي نحصل عليه هو أن هذه

الورقة كانت — لسبب ما — ستتعرض للبلل. لكن هذا الاستنتاج يقودنا إلى استنتاج آخر في الحال، وهو استنتاج استطعتُ أن أضعه موضع اختبار بالأمس، هكذا.»

ثم ملأ قدحًا من الماء وطوى الورقة وأسقطها فيه. وفي الحال ظهر عليها مجموعة جديدة من الأحرف ذات لون رمادي مثير للفضول. وفي غضون ثواني، أخرج ثورندايك الورقة المبللة ورفعها أمام الضوء، والآن ظهر نقشٌ جديد بأحرف شفافة، وكأنه علامة مائية مميزة للغاية. كان النقش مكتوبًا على امتداد الكتابة الأخرى ويقول:

> أشياء بيكرديلي في بناية كيمبلي الكائنة برقم ٤١٦ من شارع ووردور بالطابق الثاني من الجهة الخلفية. وقد أُخفيت لأن مواكي العجوز رجل حقير.

نظر البروفيسور إلى النقش بازدراء عميق.

وسأل عابسًا: «كيف حدث هذا باعتقادك؟»

قال ثورندايك: «سأُريك. لقد أعددتُ ورقة لأوضح هذه العملية امتداد الكتابة الأخرى إلى الدكتور جيرفس. إنها عملية بسيطة إلى حدٍّ بعيد.»

أحضرَ من المكتب لوحًا صغيرًا من الزجاج، وصحنًا خاصًّا بالصور الفوتوغرافية كان به ورقة رفيعة منقوعة في الماء.

قال ثورندايك وهو يرفع الورقة ويضعها على اللوح الزجاجي: «هذه الورقة منقوعة طوال الليل، وهي الآن تبدو وكأنها عجينة.»

ثم فرد ورقة جافة على الورقة المبتلة وكتب بثقل عليها بقلم رصاص صلب: «مواكي شخص حقير». وحين رفع الورقة العلوية، بدا أن الكتابة انتقلت بلون رمادي داكن إلى الورقة المبللة، وحين رفعها أمام الضوء، كان النقش واضحًا وشفافًا وكأنه مكتوب بالزيت.

قال ثورندايك: «حين تجفُّ هذه الورقة، ستختفي الكتابة تمامًا، لكنها ستظهر مرة أخرى متى ما ابتلت الورقة.»

أومأ البروفيسور.

وقال: «رائع للغاية، وكأنه طرس في الواقع. لكنني لا أفهم كيف يمكن لرجل جاهل مثل هذا أن يكتب باللغة المؤابية الصعبة.»

قال ثورندايك: «لم يفعل. على الأرجح أن «الشفرة» قد كتبها أحد قادة العصابة، والذي بلا شك أعطى الأعضاء الآخرين نُسخًا منها لاستخدامها بدلًا من الورق الأبيض

وذلك من أجل التواصل السري فيما بينهم. لا شك أن الهدف من الكتابة المؤابية هو تحويل الانتباه عن الورقة نفسها، في حال سقطت في أيدٍ خاطئة، وينبغي أن أقول إن ذلك أدَّى الهدف المنشود منه ببراعة.»

وقف البروفيسور وكأنه قد لدغ بتذكره المفاجئ لجهوده التي بذلها.

وقال ناخرًا: «أجل، لكنني رجلُ علمٍ يا سيدي ولستُ رجلَ شرطة. وكلٌّ رجل يُبدع في مجاله.»

ثم التقط قبعته وخرج من الغرفة ممتعضًا بعد أن تمنى لنا صباحًا مشرقًا بنبرة جافة.

ضحك ثورندايك ضحكة خفيفة.

وغمغم قائلًا: «مسكين أيها البروفيسور! إن صديقنا بارتون المخادع أمامه الكثير من الأسئلة التي عليه أن يُجيب عنها.»

الفصل السادس

# لؤلؤة الماندرين

مدَّ السيد برودريب قدميه على الحاجز الحجري أمام النار المشتعلة بأسلوب رجل لا يعرف طعمَ الراحة الجسدية بأيِّ شكل من الأشكال.

وقال: «أنت شخص مهذَّب بصورة استثنائية فعلًا يا ثورندايك.»

كان الرجل عجوزًا مرحًا، ذا أنفٍ ورديِّ اللون وجسدٍ بدين، وله كتلةٌ من الشعر الأبيض الكثيف ولُغدٌ عريض، وفخامة وترف في ثيابه أعطته هالةً من سمو الزمن الماضي. في واقع الأمر، عندما دسَّ أنفَه الأرجواني في كأس نبيذه، وحدَّق متأملًا في نهاية سيجاره المشتعل، كان يبدو نموذجًا للمحامين الميسوري الحال الذين ينتمون لجيل سابق.

قال السيد برودريب: «أنت شخص مهذب بصورة استثنائية فعلًا يا ثورندايك.»

أجابه ثورندايك: «أعرف، لكن لماذا هذه الإشارة إلى مثل هذه الحقيقة المسلَّم بها؟»

قال المحامي: «لقد تجلَّى ذلك أمامي للتوِّ، فها أنا ذا، في بيتك، دون دعوة مسبقة ومن دون موعد سابق، أجلسُ في كرسيك ذي الذراعين أمام نارك، وأدخن سيجارك، وأشربُ نبيذ البورجندي خاصتك — واسمح لي أن أضيف أنه رائع — ولكنك لم تسأل ولو بدافع الفضول عمَّا جاء بي إلى هنا.»

قال ثورندايك: «إنني كما ترى أتلقَّى عطايا الرب ولا أطرح الأسئلة.»

أكمل السيد برودريب كلامَه والتجاعيد في طرفَي عينيه تُشكِّل تعبيرًا عن شعوره بالودِّ: «هذا لطفٌ كبير منك يا ثورندايك خصوصًا من شخص غير اجتماعي مثلك. لكن الحقيقة هي أنني أتيتُ بشكلٍ ما بقصد العمل، وأنا كما تعلم دومًا ما أسرُّ بوجود ذريعة لكي أراك، لكنني أريد أن أعرف رأيَك في قضية غريبة حقًّا. إنها عن كالفيرلي الصغير. أتتذكرُ هوراس كالفيرلي؟ حسنًا، إن من أتحدث عنه هو ابنه. كنتُ أنا وهوراس زميلَين بالمدرسة، وبعد وفاته رفض الصبيُّ فريد الابتعادَ عني. إننا جاران متقاربان في منطقة

وايبريدج، وصديقان مقربان للغاية. وأنا أحب فريد. وهو شخص صالح، رغم أنه غريب الأطوار مثل أهله أجمعين.»

حين توقَّف المحامي عن الحديث، سأله ثورندايك: «ماذا حدث لفريد كالفيرلي؟»

قال السيد برودريب: «الحقيقة أنه بدأ يتصرف مؤخرًا بطريقة غريبة بعض الشيء؛ ليس بجنون — أو على الأقل هذا هو ما أعتقده — لكنه وبلا شك يتصرف بشكل غريب. والآن، هو لديه الكثيرُ من الأملاك، والكثير أيضًا من الأقارب ذوي المصلحة، وكنتيجةٍ طبيعية لأفعاله، هناك بعض الحديث عن إعلانه شخصًا مجنونًا بموجب القانون. إنهم قلقون من أن يأتيَ بشيء يضرُّ بالأملاك أو تُصبح لديه ميولٌ للقتل، كما أنهم يتحدثون عن احتمال انتحاره — أنت تذكر وفاة والده — لكن رأيي أن كلَّ هذا هراء. إن الفتى غريب الأطوار بعض الشيء فقط، وهذا كل ما في الأمر.»

سأله ثورندايك: «ما الأعراض التي تظهر عليه؟»

«أوه، إنه يعتقد أن هناك مَن يلاحقه ويراقبه، وتراوده أوهام؛ فيرى نفسه في المرآة بوجه مختلف، ومثل تلك الأشياء كما تعلم.»

علَّق ثورندايك قائلًا: «أنت لا تذكر الكثير من التفاصيل.»

نظر السيد برودريب إليَّ بابتسامة ودية.

«يا لَه من رجل نهمٍ لمعرفة الحقائق يا جيرفس. لكنك على حق يا ثورندايك؛ أنا لا أتحدث بوضوح. لكن فريد سيكون هنا بعد قليل، فنحن نسافر معًا، وقد انتهزتُ الفرصة وطلبتُ منه زيارتنا. سنجعله يُخبرك عما يراوده من أوهام، إذا كنت لا تمانع. إنه لا يشعر بالحرج تجاه ذلك. وفي غضون ذلك، سأذكر لك بعض الحقائق التمهيدية. بدأتْ تلك المشكلة قبل عام تقريبًا. لقد تعرَّض لحادث في السكة الحديدية أذاه بشدة، ثم بعد ذلك ذهب في رحلة بحرية للاستشفاء، وكُسِر عمود إدارة السفينة في عاصفة وتوقفت عن العمل. ولم يُحسِّن ذلك من حالة أعصابه. ثم ذهب بعد ذلك في رحلة في البحر المتوسط، وبعد شهر أو اثنين عاد ولم يظهر عليه تحسُّن. ولكن ها هو ذا، أعتقد أنه قد وصل.»

ثم ذهب باتجاه الباب وأدخل شابًّا طويلًا واهنَ البنية حيَّاه ثورندايك بودٍّ كبير، وأجلسه في كرسي بجوار النار. نظرتُ إلى زائرنا في فضول. كان يبدو مثل المصابين بمرض عصبي؛ فقد كان نحيفًا وضعيفًا ومضطربًا. كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ببُؤبؤَيهما الجاحظين، واللَّذين استطعت أن أرى فيهما وبوضوح علاماتِ «الكنع» — ذلك التغيير المستمر في الحجم والذي يُعدُّ علامة على عدم الاتزان العصبي — وكذلك شفتاه

المتباعدتان، وأصابع يديه المستدقة الحائرة، علامات مميزة على الخلل النفسي الذي يُعاني منه. وقد كان يبدو من ذلك النوع من البشر الذي ينتمي إليه الأنبياء ومناصرو الأديان والشهداء والمصلحون والشعراء من الدرجة الثالثة.

قال السيد برودريب: «كنتُ أُخبر الدكتور ثورندايك عن مشكلاتك العصبية؛ آملُ أنك لا تمانع في ذلك. إنه صديق قديم، وهو مهتمٌّ بذلك كثيرًا.»

قال كالفيرلي: «هذا لطف بالغ منه.» ثم احمر وجهه خجلًا بصورة كبيرة وأضاف: «لكنها ليست أعراضًا عصبية في الواقع. لا يمكن لها أن تكون نابعةً فقط من ذاتي.»

قال ثورندايك: «أتعتقد أنها لا يمكن أن تكون كذلك؟»

قال: «لا، أنا واثق أنها ليست كذلك.» ثم احمرَّ وجهه خجلًا مرة أخرى وكأنه فتاة، ونظر إلى ثورندايك في حماسة بعينيه الحالمتين الواسعتين. واستطرد قائلًا: «لكنكم أيها الأطباء تُشكِّكون بشكل رهيب في كل الظواهر الروحانية. إنكم تتبعون المذهب المادي.»

قال السيد برودريب: «أجل، لا يتحمس الأطباء كثيرًا إلى الظواهر الخارقة للطبيعة، وهذه هي الحقيقة.»

قال ثورندايك بشكل مقنع: «فقط أخبِرْنا عن تجاربك ثم أعطِنا فرصة لنصدِّق ما تقول، حتى إذا لم نستطع إيجاد تفسير له.»

فكَّر كالفيرلي بضع لحظات ثم قال وهو ينظر بجدية إلى ثورندايك:

«حسنًا؛ سأفعل إن لم يُضجركم ذلك. إنها قصة غريبة.»

قال السيد برودريب: «لقد أخبرتُ الدكتور ثورندايك عن رحلتك البحرية وسفرك في جولة في البحر المتوسط.»

قال كالفيرلي: «إذن، سأبدأ بالأحداث المرتبطة بالفعل بهذه الرؤى الغريبة. وقد حدثت أولاها في مارسيليا. كنتُ في أحد متاجر التحف هناك وكنت أنظر في قرميدات جزائرية ومغربية حين لفت انتباهي حليةٌ صغيرة أو دلاية تتدلَّى في صندوق زجاجي. لم تكن الحلية جميلةً بصورة خاصة، لكن مظهرها كان غريبًا ومثيرًا للفضول، وقد صرتُ ولِعًا بها. وكانت تلك الحلية تتكون من كتلة مستطيلة الشكل من خشب الأبنوس بها لؤلؤة على شكل كمثرى طولها أكثر من ثلاثة أرباع البوصة. وكانت جوانب كتلة الأبنوس الخشبية مطلية بالورنيش — لإخفاء مفصل فيها على الأرجح — وتحمل عددًا من الأحرف الصينية، وفي أعلاها يوجد تمثال ذهبي صغير مثقوب لتُعلَّق منه على الأرجح. باستثناء اللؤلؤة فقد كانت وبصورة غير مألوفة تُشبه أحد تلك الألواح التزيينية المكتوب عليها بالحبر الصيني.

كان هواي قد أخذني إلى تلك الحلية، وكان بإمكاني أن أُشبعَ رغباتي إذا كان المقابل معقولًا. أراد الرجل خمسة جنيهات ثمنًا لها؛ إذ أكَّد لي أن اللؤلؤة حقيقية وذات جودة عالية، ومن الواضح أنه هو نفسه لم يكن يصدق ذلك. ولكن وبالنسبة لي، بدت اللؤلؤة وكأنها حقيقية وقررتُ أن أجازف؛ لذا دفعت له المال، وبينما كنت أغادر انحنى الرجل يُحيِّيني مبتسمًا — ويمكنني القول إنها كانت ابتسامةً عريضة — بفعل شعوره بالرضا. ولكنه لم يكن سيُسرُّ كثيرًا إذا ما تبعني إلى متجر الصائغ الذي أخذتُ اللؤلؤة إليه طلبًا لرأيه الخبير؛ ذلك أن الصائغ صرَّح بأن اللؤلؤة أصلية وحقيقية بلا أدنى شك وأن ثمنها قد يصل إلى ألف جنيه.

وبعد يوم أو اثنين، تصادف أنني كنتُ أعرض ما اشتريتُ على بعض الرجال الذين أعرفهم، والذين وصلوا إلى مارسيليا في اليخت الخاص بهم. كانوا مسرورين كثيرًا لأنني اشتريت تلك الحلية، وحين أخبرتُهم بالثمن الذي دفعتُه فيها، صاحوا بي وراحوا يسخرون مني.

قال أحدهم وهو يُدعَى هاليويل: «لماذا أيها المغفل؟ كنت سأشتريها قبل عشرة أيام بنصف جنيه، أو ربما خمسة شلنات. أتمنى الآن لو أنني اشتريتها؛ وحينها كنت سأبيعك إياها.»

يبدو أن أحد البحارة كان يتجول بالحلية في الميناء، وصعد بها على متن اليخت.

قال هاليويل وهو يبتسم عندما تذكَّر: «كان هذا المحتال يتوق إلى التخلص منها أيضًا. وقد أقسم أنها لؤلؤة حقيقية وقيمتها لا تقدر بثمن، وكان على استعداد لأن يحرم نفسه منها مقابل الحصول على أي مبلغ. لكننا سمعنا بهذا الشيء من قبل، إلا أن البائع في متجر التحف يبدو وكأنه توقع احتمال لقاء شخص قليل الخبرة ويبدو أنه قد حصد ثمرة لقائه. يا لَه من رجل محظوظ!»

استمعتُ لاستهزائهم وسخريتهم بكل صبر، وحين انتهوا، أخبرتهم بأمر الصائغ. حينها انزعجوا بشدة؛ وحين أخذنا الحلية إلى تاجر للجواهر تصادف أنه كان ينزل بالمدينة وعرَض عليَّ خمسمائة جنيه ثمنًا لها، تغيرت لهجتُهم ولم تُصبح ملائمة لأعضاء نادي الجدال من طلبة اللاهوت. كان من الطبيعي أن تشيع القصة وتنتشر، وحين غادرتُ، كانت هي حديث المكان. وكان الرأي العام يقول بأن البحار — الذي عُرف أنه كان يعمل بسفينة تنقل الشاي كانت قد رست في الميناء — كان قد سرق الحلية من راكب صيني؛ وقد أتى ليس أقل من سبعة عشر رجلًا صينيًّا يطالبون باسترجاع الحلية باعتبار أنها مسروقة منهم.

بعد ذلك بفترة قصيرة، عدتُ إلى إنجلترا، وحيث إن أعصابي كانت لا تزال مهزوزة بشدة، فقد ذهبتُ لأعيش مع ابن عمي ألفريد، الذي يمتلك منزلًا كبيرًا في وايبريدج. في ذلك الوقت، كان هناك صديقٌ يمكث معه في المنزل، وهو الكابتن راجيرتون، وبدا أن الرجلين تجمعهما صداقةٌ حميمة جدًّا. أستطيع القول إنني لم يَرُق لي راجيرتون على الإطلاق. كان الرجل وسيمًا وذا أخلاق حسنة، ومقبولًا إلى حدٍّ كبير. ولكن الحقيقة هي — وهو أمر يجب أن يُحاط بسريَّة تامة — أنه كان فاسدًا. لقد كان في الحرس الملكي، ولا أعرف لماذا تركه؛ لكنني أعرف أنه كان يُدمن لعب البريدج والبكاراه في عدة أندية، وأنه يُعرف عنه أنه لاعب محظوظ على نحوٍ يبعث على عدم الارتياح. وكان يُبلي بلاءً حسنًا في مراهنات سباقات الخيل أيضًا، وكان بوجه عام وبصورة واضحة رجلًا غيرَ مرغوب به، حتى إنني لم أفهم قطُّ سرَّ الصداقة الحميمة التي تجمعه بابن عمي، رغم أنه يتحتم عليَّ أن أقول إن عادات ألفريد قد تغيرت إلى الأسوأ بعض الشيء منذ أن غادرت إنجلترا.

ويبدو أن شهرةَ ما اشتريتُ سبقتني؛ ذلك أنني ذات يوم وحين أحضرتُ الحلية لأريَهما إياها، وجدتُ أنهما يعرفان كلَّ شيء عنها. كان راجيرتون قد سمع القصة من رجل يعمل في البحرية، وفهمتُ أنا بصورة غير مؤكدة أنه سمع شيئًا لم أسمعه أنا، وأنه لم يبالِ بأن يُخبرَني به؛ ذلك أنه هو وابن عمي حين كانَا يتحدثان عن اللؤلؤة — وهو أمر كانَا يفعلانه كثيرًا — كانت هناك نظراتٌ ذات مغزًى معيَّن تنتقل فيما بينهما، وكانت في حديثهما إشاراتٌ مبهمة لم يكن من الصعب ملاحظتها.

وذات يوم تصادف أنني كنتُ أُخبرهما عن حادثة غريبة وقعتْ لي وأنا في طريقي إلى الوطن. كنتُ أسافر إلى إنجلترا على متن إحدى سفن هولت الصينية الكبيرة؛ لأنني لم أكن أحبُّ زحام وصخب سفن الركاب العادية. وذات عصر أحد الأيام، حين كنا نسير في البحر لبضعة أيام، أخذتُ كتابًا إلى مضجعي حيث كنتُ أنوي أن أقضيَ بعض الوقت في القراءة الهادئة حتى يحين وقتُ تناول الشاي. ولكنني سرعان ما غفوت، ولا بد أنني ظللت نائمًا مدة تزيد عن ساعة. واستيقظتُ فجأة وبينما كنت أفتح عينيَّ، وجدتُ أن باب الكابينة نصفُ مفتوح، وأن رجلًا صينيًّا حسن الملبس — كان يرتدي ملابس على الطراز الصيني — كان ينظر بداخل الكابينة إليَّ. وقد أغلق الرجل الباب في الحال، وظللت أنا دون حَراك لبضع لحظات بفعل مفاجئته لي. ثم قفزتُ عن سريري وفتحت الباب ونظرت بالخارج. لكن الممر كان فارغًا، وكان الرجل الصيني قد اختفى وكأنما بفعل سحر.

تلك الحادثة الصغيرة جعلتني عصبيًّا بشدة ليوم أو اثنين، وكان ذلك غاية في الحماقة من جانبي؛ لكن أعصابي كانت متوترة للغاية، وأخشى أنها لا تزال كذلك.»

قال ثورندايك: «أجل، ليس هناك شيءٌ غامض بشأن هذا. تلك السفن تحمل طاقمًا صينيًّا، وعلى الأرجح أن الرجل الذي رأيتَه كان هو السيرانج، أو أيًّا ما يُطلقون على قائد الطاقم على تلك السفن. أو ربما كان راكبًا صينيًّا شردَ إلى الجزء الخاطئ من السفينة.»

قال عميلنا مقرًّا بصحة ذلك: «بالضبط، لكن دعونا نَعُدْ إلى راجيرتون. كان يستمع بانتباه بالغ بينما كنتُ أقص تلك القصة، وحين انتهيت نظر إلى ابن عمي نظرة غريبة للغاية.

وقال لي: «يا لَه من أمر غريب حقًّا يا كالفيرلي. ربما كان الأمر بالطبع مجرد صدفة، لكن يبدو الأمر حقًّا وكأنَّ هناك شيئًا في تلك ...»

قال ابن عمي: «اصمت يا راجيرتون. لا نريد أن نسمع أيًّا من هذا الهراء.»

سألته: «عن ماذا يتحدث؟»

«أوه، إنها مجرد حكاية سخيفة وبغيضة سمعها من مكان ما. لا تُخبره بها يا راجيرتون.»

قلتُ عابسًا بعض الشيء: «لا أرى سببًا يمنع من أن أعرف القصة. أنا لستُ بطفل.»

قال ألفريد: «لا، لكنك معتلٌّ ولا تريد أن تسمع عن أشياء مرعبة.»

في واقع الأمر، رفض أن يتعمق في الأمر أكثر من ذلك، وتُرِكت أنا ليأكلني الفضول.

لكن في اليوم التالي كنت بمفردي مع راجيرتون في غرفة التدخين وتحدثت معه حديثًا قصيرًا. كان قد راهن لتوِّه بمائة جنيه في لعبة البريدج ولكن رهانه لم يُؤتَ بثماره، وتوقعتُ منه أن يكون طيِّعًا لي. ولم يَخِبْ ظني؛ ذلك أنني وحين تناقشنا بشأن قرض صغير وجدتُ أنه في طوع أمري وكان مستعدًّا لأن يُخبرني بكل شيء إذا ما وعدتُه ألَّا أشيَ به إلى ألفريد.

قال: «أنت تعرف أن هذا الهراء بشأن اللؤلؤة ليس سوى حكاية سخيفة تافهة تجوب أنحاء مارسيليا. وأنا لا أعرف مصدرها، أو أيَّ مختلٍّ بغيض اخترعها؛ لكنني سمعتُها من أحد العاملين في أسطول البحر المتوسط، ويمكنك أن تحصل على نسخة من خطابه إذا أردت.»

قلت بأنني أريد ذلك. ومن ثَم فقد أعطاني في مساء اليوم نفسه نسخةً من القصة المستخلصة من خطاب صديقه وكان محتواها كالآتي:

قبل نحو أربعة أشهر مضت كانت هناك سفينةٌ إنجليزية كبيرة تقبع في ميناء كانتون. واسمها ليس مذكورًا ولكن ذلك غير ذي صلة بالقصة. كان قد تم تخزين

حمولتها وتعيين طاقمها، وكانت تنتظر فقط استكمال بعض الإجراءات الشكلية الرسمية قبل أن تخرج إلى البحر في رحلة عودتها إلى الديار. وكان أمامها في الرصيف نفسه سفينة دانماركية قد وقع لها حادث تصادم في البحر، وكانت في ذلك الحين طريحةَ الميناء في انتظار قرار المحكمة البحرية. وقد تم تفريغ حمولتها وتسريح طاقمها عدا رجلٍ واحد كبير في السن والذي ظل على متنها كحارس لها. وكان جزءٌ كبير من حمولة السفينة الإنجليزية مملوكًا لماندرين صيني ثري، وكان ذلك الرجل على متن السفينة لوقت كبير فيما كانت حمولتها تُحمل فيها.

وذات يوم وحين كان الماندرين على متن السفينة الإنجليزية، تصادف أن ثلاثة من البحارة كانوا يجلسون في مطبخ السفينة يدخنون ويتحدثون مع الطاهي — وهو رجل صيني كبير في السن يُدعى وولي — وقد أسهب ذلك الأخير في حديثه عن ثروة الماندرين الضخمة إلى أولئك البحارة وأكَّد لهم أنه يُعتَقَد بأنه يحمل معه أشياء ذات قيمة كبيرة ربما تكون كافية لشراء حمولة سفينة بأكملها.

ولسوء حظ هذا الماندرين، تصادف أن أولئك البحارة الثلاثة كانوا أسوء الأنذال الموجودين على السفينة؛ وهذا يقول الكثير حين يفكر المرء في المعيار الأخلاقي العادي الذي يسود في السفينة. ولم يكن وولي نفسُه مَلاكًا؛ بل كان في الواقع شريرًا بارعًا، ويبدو أنه كان الرأسَ المدبر للخطة التي وُضعت لسرقة الماندرين.

وكانت تلك الخطة بارزة واستثنائية بسبب بساطتها ووحشيتها الشديدة. ففي المساء السابق على رحيل السفينة الإنجليزية، ذهب البحارة الثلاثة، وهم نيلسون وفوكو وبارات، إلى السفينة الدانماركية ومعهم الكثيرُ من الويسكي وجعلوا حارسها يثمل بشدة ثم حبسوه في كابينة فارغة. وفي تلك الأثناء، تواصل وولي مع الماندرين سرًّا ليُخبرَه بأن بعض الممتلكات المسروقة والتي يُعتقَد بأنها تخصُّه مخبَّأة في السفينة الفارغة. وهكذا نزل الماندرين على وجه السرعة إلى الرصيف، واستقبله على متن السفينة الفارغة البحارة الثلاثة بعد أن رفعوا الأغطية عن الكوَّة المؤدية لمخزن البضائع والموجودة في مؤخرة السفينة. نزل بارات عبر السلم الحديدي ليوضح الطريق للماندرين والذي تبعه على الفور؛ لكنهما حين وصلَا إلى السطح السفلي ونظرَا في الكوَّة إلى ظلام الجزء السفلي منها، بدا الماندرين وكأنه قد أصابه الخوف وبدأ يتسلق السلَّم الحديدي مرة أخرى. في تلك الأثناء كان نيلسون قد صنع عقدةً غير منزلقة في نهاية حبل قلع مفكوك كان يتدلَّى من كتلة معلقة عاليًا بالهواء وكان يُستخدم في رفع الحمولة. وبينما كان الماندرين يتسلق السلَّم، انحنى نيلسون فوق حافة الكوَّة وأسقط العقدة على رأس الرجل الصيني وأحكم

شدَّها ثم راح هو وفوكو يرفعان الحبل. ثم تمَّ سحبُ الرجل الصيني البائس من على السلم، وبينما كان معلَّقًا في الهواء، ترك النذلان الحبل فسقط الرجل في قعر السفينة. ثم ثبَّتَا الحبل ونزلَا إلى الأسفل. كان بارات قد أضاء شمعة من الشحم وعلى ضوئها تمكَّنوا من رؤية الماندرين وهو يتدلَّى في الهواء جيئةً وذهابًا وكأنه بندول على بُعد بضع أقدام من الصابورة وهو لا يزال يرتجف وينازع في سكرات موته. ثم انضم إليهم وولي والذي كان يشاهد ما يحدث من الرصيف ثم شرع الشياطين الأربعة ينهبون الجثة وهي معلقة من دون أن يُضيعوا أيَّ وقت. وما أصابهم بالمفاجأة والامتعاض أنهم لم يجدوا معه أيَّ شيء ذي قيمة سوى حلية من الأبنوس بها لؤلؤة واحدة كبيرة؛ لكن بالرغم من أن وولي كان مستاءً من طبيعة الغنيمة فإنه أكَّد لرفاقه أنها وحدها تستحق المخاطرة، مشيرًا إلى حجم اللؤلؤة الكبير وجمالها الاستثنائي. لقد كان البحارة لا يعرفون شيئًا عن اللآلئ، لكن الجريمة قد وقعت وكان عليهم أن يستغلوا اللؤلؤة الاستغلال الأمثل؛ لذا فقد ربطوا الحبل بإحكام إلى دعامات السطح السفلي، وقطعوا الجزء المتبقي منه وانتزعوه من الكتلة ثم عادوا إلى سفينتهم.

مرت أربع وعشرون ساعة قبل أن يفيقَ حارس السفينة بما يكفي ليتمكن من الخروج من الكابينة التي حُبِس فيها، وفي غضون ذلك كانت السفينة الإنجليزية قد انطلقت في عرض البحر، ومرت ثلاثة أيام أخرى حتى تمَّ اكتشاف جثة الماندرين. ثم تمَّ البحث عن القتلة بحثًا حثيثًا، لكن وبما أنهم كانوا غرباء بالنسبة لحارس السفينة فلم يتمكن أحدٌ من اكتشاف مكانهم.

في تلك الأثناء، كان القتلة الأربعة قلقين بشدة بشأن كيفية التصرف في الغنيمة. وبما أنه لا يمكن تقسيمُها، فقد كان من الضروري أن يأتمنوا عليها أحدهم. وقد وقع الاختيار في المقام الأول على وولي، الذي احتفظ بالحلية في صندوقه الخاص بمجرد أن صعدت المجموعة على متن السفينة، وتم الاتفاق على أن الرجل الصيني يجب أن يأتيَ بالجوهرة ليُطلعَ عليها رفاقه متى أرادوا ذلك.

ولمدة ستة أسابيع لم يحدث شيء غير اعتيادي؛ لكن وقع بعد ذلك حدثٌ في غاية الغرابة. كان المتآمرون الأربعة يجلسون خارج مطبخ السفينة ذات مساء حين صاح الطاهي فجأة صيحة تنمُّ عن الذهول والرعب. التفت الثلاثة الآخرون ليروا ما الذي أزعج رفيقَهم إلى هذا الحد، ثم أصابهم الذعرُ والرعب أيضًا. لقد وجدوا أن الماندرين الذي قتلوه يقف عند الباب المؤدي لسلَّم السطح السفلي، فقد كانت السفينة ذات سطح ممتد. وقف

الرجل صامتًا يُطالعهم لدقيقة كاملة، فيما نظروا هم له وقد شلَّهم الرعب. ثم أومأ الرجل لهم ونزل إلى الأسفل.

كان الرجال مذهولين ومذعورين بشدة حتى إنهم ظلوا صامتين وثابتين في مكانهم لفترة طويلة. وفي النهاية استجمعوا قوتهم، وبدءوا يسألون خفية الطاقم عن الرجل؛ لكن لم يكن هناك مَن يعلم — ولا حتى الخادم — أيَّ شيء عن أي راكب أو عن أي رجل صيني على متن السفينة سوى وولي.

وفي فجر اليوم التالي وحين ذهب زميل الطاهي إلى المطبخ لكي يملأ المراجل، وجد وولي وهو يتدلَّى من خطاف في السقف. كانت جثة الطاهي متيبسة وباردة، ولا بد وأنها كانت معلقة لبضع ساعات. وسرعان ما انتشر خبرُ الحادث الأليم في أنحاء السفينة، وسارع المتآمرون الثلاثة ليأخذوا اللؤلؤة من صندوق القتيل قبل أن يأتيَ ضباط الشرطة ويفتشوه. تم فتح القفل الرخيص بسهولة باستخدام سلكٍ مَثْنيٍّ، وأخذوا الجوهرة؛ ولكن الآن برز السؤال المتعلق بمن ينبغي عليه أن يحتفظ بها. وما كان في البداية تلهُّفًا من جانب كلٍّ منهم ليحتفظ بالجوهرة أصبح الآن إحجامًا وإعراضًا بنفس القوة. لكن كان ينبغي على أحدهم أن يتولى الاحتفاظ بها، وبعد نقاش طويل وغاضب، جرى الاتفاق على أن يحتفظ نيلسون بها في صندوقه.

مرَّ أسبوعان، وكان المتآمرون الثلاثة يُنجزون مهام عملهم بجدية، وكأنهم مثقلون بهمٍّ خفيٍّ، وكانوا في أوقات فراغهم يجلسون مع بعضهم ويتحدثون بأنفاس مقطوعة عن ظهور شبح الرجل عند السلم المؤدي للسطح السفلي، وعن ظروف وفاة رفيقهم الغامضة.

وفي النهاية وقعت الواقعة.

كان ذلك في نهاية المناوبة الثانية التي تمتد من السادسة وحتى الثامنة مساءً حين اجتمعت الأيدي العاملة عند مقدمة السفينة للاستعداد للإبحار بعد فترة قصيرة من الأحوال الجوية السيئة. أطلق نيلسون فجأة صيحةً قوية وهرع باتجاه بارات وهو يُمسك بمفتاح صندوقه.

وصاح قائلًا: «تعالَ يا بارات، اذهب معي لأسفل وخذ تلك الحلية الملعونة بعيدًا عن صندوق ملابسي.»

سأله بارات: «لماذا؟» ثم نظر هو وفوكو — الذي كان يقف بالقرب منهما — إلى الخلف لينظرَا إلى ما كان نيلسون يُحدِّق به.

وسرعان ما شحب وجههما وكأنهما شبحان، وراحَا يرتجفان بشدة فكانت أقدامهما بالكاد تحملهما؛ ذلك أنهم رأيَا الماندرين يقف في هدوء بجوار السلم، وكان يردُّ على

نظراتهما التي يملؤها الرعبُ بنظرات ثابتة وجامدة. وبينما كانَا ينظران إليه، أومأ إليهما ونزل إلى الأسفل.

صاح نيلسون من بين أنفاسه المتلاحقة: «أتسمع يا بارات؟ خذ مفتاحي وافعل ما قلت، وإلا ...»

ولكن في تلك اللحظة صدر الأمر بالذهاب إلى الصواري ورفع الأشرعة؛ فذهب الرجال الثلاثة كلٌّ إلى موقعه، فذهب نيلسون للعمل على حبال الصاري الأمامي الأعلى، وعمد الآخران إلى منصة الصاري الرئيسي. وبعد أن أنهى فوكو وبارات عملهما على الصواري، وحيث إنهما كانَا في مناوبة في ميسرة السفينة فقد نزلَا إلى السطح، وبعد أن جاءت مناوبتُهما بالأسفل ذهبَا إلى موقعهما.

وحين انتهت مناوبتهما بحلول منتصف الليل، بحثَا عن نيلسون، والذي كانت مناوبته في ميمنة السفينة، لكنهما لم يجداه في أيِّ مكان. ظنَّا أنه ربما انسلَّ إلى الأسفل من دون أن يلاحظَه أحد، ولم يُعلِّقَا أو يُصرِّحَا بشيء رغم أنهما كانَا يشعران بالقلق بشأنه؛ لكن حين صعدت مناوبة ميمنة السفينة إلى السطح بحلول الرابعة، ولم يظهر نيلسون مع رفاقه، شعر الرجلان بالانزعاج وبدآ يستفسران عنه. واكتشفَا أن أحدًا لم يرَه منذ الثامنة من مساء اليوم السابق، وبعد أن تمَّ إبلاغُ الشخص المسئول عن المناوبة، أمر بجمْع كلِّ العاملين. لكن نيلسون ظلَّ مختفيًا، فتمَّ إجراء تفتيش دقيق عنه، في أسفل السفينة وعلى صواريها، ولعدم ظهور أيِّ إشارة عن الرجل المختفي، تم استنتاج أنه قد سقط عن السفينة.

ولكن في الثامنة تم إرسال رجلين لينشرَا الشراع الصغير العلوي. وصل الرجلان إلى العارضة ذات الصلة في نفس الوقت تقريبًا، وكانَا على وشك أن يَخْطُوَا على حبال القدم حين أطلق أحدهما صرخةً؛ ثم نزل الرجلان ينزلقان على حبل الدعم الخلفي وكان وجهاهما شاحبين كالودك. وبمجرد أن وصلَا إلى سطح السفينة أخذَا الشخص المسئول عن المناوبة للأمام وبينما كانَا يقفان على مؤخرة الصاري المائل في مقدمة السفينة أشارَا للأعلى باتجاه الصواري. وتبعهم الكثيرون ومن بينهم فوكو وبارات، ونظر الجميع للأعلى؛ فرأوا جميعًا جثة نيلسون وهي معلقة أمام الشراع الأعلى الأمامي. وكانت الجثة تتدلَّى من نهاية حبل لتثبيت الشراع المطوي في الصاري، وكانت تتأرجح للأعلى والأسفل في حبل الشراع المشدود مع تأرجح السفينة للأعلى والأسفل في البحر.

كان الناجيان المتبقيان الآن في ريبة من أمرهما فيما يتعلق بأمر تلك اللؤلؤة. لكن ما أغراهما هو قيمتها الكبيرة وفكرة أنها الآن ستقسم بين اثنين فقط بدلًا من أن تقسم بين

أربعة. فأخذاها من صندوق نيلسون وحيث إنهما لم يستطيعَا التوصل إلى اتفاق بينهما حول مَن سيكون مسئولًا عنها، قرَّرَا أن يُجريَا قرعة بإلقاء عملة معدنية. وتم إلقاء العملة وذهبت اللؤلؤة إلى صندوق فوكو.

ومنذ تلك اللحظة كان فوكو يعيش في حالة من الخوف المستمر. وحين يكون على سطح السفينة، كانت عيناه تطوف باستمرار باتجاه السلَّم، وأثناء مناوبته بالأسفل، وحين لا يكون نائمًا، كان يجلس على صندوقه، غارقًا في أفكاره الكئيبة. لكن مرَّ أسبوعان ثم ثلاثة، ولم يحدث شيء. ثم ظهرت اليابسة، ومرت السفينة بمضيق جبل طارق، وكانت ما هي إلا أيام حتى تنتهيَ هذه الرحلة. ومع ذلك فلم يظهر الماندرين المخيف.

وبعد فترة كانت السفينة على بُعد يوم واحد فقط من مارسيليا، والتي كان هناك جزء كبير من حمولة السفينة سيودع في مينائها. كانت الاستعدادات لدخول الميناء تجري على قدم وساق، ومن بين أشياء أخرى كان هناك مهمة إصلاح حبال الأشرعة. وقد وقع جزء من هذه المهمة على عاتق فوكو وبارات، وبحلول منتصف المناوبة الثانية التي تمتد من السادسة وحتى الثامنة مساءً — أي بحلول السابعة مساءً — كانَا يجلسان على سطح السفينة ويقومان بعمل جديلة ملفوفة في نهاية حبل كبير. كان فوكو يجلس مواجهًا صديقه، وفجأة رأى وجهه وهو يشحب بشدة ويحدق خلفه وقد اعتلت وجهَه تعبيراتٌ تنمُّ عن الرعب. فاستدار في الحال ونظر خلفه ليرى ما كان يحدق به بارات، والذي كان هو الماندرين، وهو يقف على السلم ويراقبهما بنظرات عميقة؛ وبينما استدار فوكو ووقعت عيناه في عينَي الماندرين، تراجع الرجل الصيني ونزل للأسفل.

ولبقية ذلك اليوم، ظلَّ بارات ملاصقًا لرفيقه المرعوب، وأثناء مناوبتهما في أسفل السفينة حاول أن يبقى مستيقظًا، بحيث يُبقي صديقه تحت ناظره. ولم يحدث شيء أثناء الليل، وفي الصباح التالي، حين صعدَا إلى السطح ليتوليَا مناوبة ما قبل الظهر، كان الميناء على مرأًى منهما. ثم افترق الصديقان للمرة الأولى، حيث ذهب بارات إلى مؤخرة السفينة ليتولَّى مناوبته على الدفة، بينما تولى فوكو أمر المساعدة في إعداد المرساة.

وبعد نصف ساعة رأى بارات مساعد القبطان وهو يقف على حاجز السفينة ويميل نحو الخارج، وهو يُمسك بحبال الصاري الخلفي بينما يُحدِّق على طول جانب السفينة، ثم قفز إلى سطح السفينة وصاح في غضب: «إلى الأمام، هناك! ما الذي يفعله ذلك الرجل بحق السماء تحت رجام المرساة باتجاه الميمنة؟»

هرع الرجال على السلوقية نحو جانب السفينة لينظروا ما الأمر، ومال اثنان منهم على الحاجز وكان بينهما عقدة حبل، وجاء ثالث يجري نحو الخلف باتجاه مساعد القبطان. سمعه بارات وهو يقول: «إنه فوكو يا سيدي، وقد شنق نفسه برجام المرساة.»

وبمجرد أن أنهى بارات مناوبته، ذهب إلى صندوق رفيقه المتوفى وفتح القفل باستخدام عقفاء وأخرج اللؤلؤة. كانت اللؤلؤة الآن ملكية خاصة له، وبينما كانت السفينة الآن على مقربة ساعة أو اثنتين من وجهتها، ظن أنه ليس خائفًا للغاية من صاحبها المقتول. وقال في نفسه إنه بمجرد أن تصطفَّ السفينة على رصيف الميناء، فسينسل إلى الشاطئ ويتخلص من الجوهرة، حتى ولو باعها بثمن بخس؛ فقد كانت تبدو بسيطة للغاية في مظهرها.

ولكن في الواقع، تبين أن العكس تمامًا هو ما حدث. فقد بدأ بأن دنَا من غريب حسن الملبس وعرض عليه الحلية مقابل خمسين جنيهًا؛ لكن الإجابة الوحيدة التي حصل عليها كانت ابتسامة تنمُّ عن دراية وهزة من رأسه تعبِّر عن الرفض. وحين تكرر هذا الأمر دزينة من المرات أو أكثر، وحين أدرك أن هناك أحدَ أفراد الشرطة يتبعه في الشوارع لمدة ساعة تقريبًا، بدأ شعوره بالقلق يزداد. وقد قام بزيارة عدة سفن ويخوت في الميناء، وفي كل مرة يُقابل فيها بالرفض كان سعر كنزه يتدنى أكثر، حتى أصبح متلهِّفًا لبيعها مقابل بضعة فرنكات. لكن أحدًا لم يكن يرغب بها بعد. كان الجميع يوقنون تمامًا أن اللؤلؤة مزيفة، ومعظم الأشخاص الذين بادرهم بالحديث كانوا يفترضون أنها مسروقة. كان الوضع يزداد إحباطًا وكان المساء يُسدل خيوطه — وهو وقت المناوبات المخيفة — وما زالت اللؤلؤة في حوزته. كان الرجل الآن على أتم استعداد لأن يتخلَّى عنها من دون أي مقابل، لكنه لم يجرؤ على المحاولة؛ لأن ذلك كان سيجعله عرضة بشدة لأن تحوم حوله الشكوك.

في النهاية وفي أحد الشوارع الجانبية أتى على متجر للتحف. ودخل المتجر وعلى وجهه أمارات اللامبالاة والبهجة وعرض الحلية مقابل عشرة فرنكات. نظر التاجر إليها وهزَّ رأسه رافضًا وأعادها إليه.

قال بارات وقد تعرَّق بفعل احتمال أن يُقابل برفض نهائي: «كم ستعطيني مقابلها؟»

تحسَّس التاجر جيبه، وأخرج منه فرنكين وقدَّمهما له.

قال بارات: «حسنًا.» ثم أخذ المال بهدوء بالغ وخرج من المتجر، ثم أطلق تنهيدة تنم عن شعوره بالارتياح، وقد ترك الحلية في يد التاجر.

علَّق التاجر اللؤلؤة في صندوق زجاجي، ولم يفكر فيها حتى مرت عشرة أيام، حين دخل سائح إنجليزي إلى المتجر ولاحظ اللؤلؤة وأحب أن يشتريَها. عرضها التاجر عليه مقابل خمسة جنيهات مؤكدًا له أنها لؤلؤة حقيقية وهو الأمر الذي صدَّقه السائح مما أثار دهشة التاجر. ثم ابتأس التاجر بشدة لأنه لم يطلب فيها سعرًا أعلى، لكن الصفقة كانت قد تمَّتْ وذهب الإنجليزي وهو يحمل ما اشتراه.

كانت تلك هي القصة التي قصَّها صديق الكابتن راجيرتون، وقد سردتُها عليك بالتفصيل، وذلك بعد أن قرأتُ الخطاب عدة مرات منذ أن أُعطيته. لا شك أنك ستعتبر أنها مجرد قصة خيالية، وستنظر إليَّ على أنني أحمق يؤمن بالخرافات لأنني أصدِّقها.»

أجابه ثورندايك موافقًا: «تبدو القصة استثنائية فعلًا بسبب حيويتها أكثر منها بسبب مصداقيتها.» ثم استطرد: «هل لي أن أسألك إن كان صديق الكابتن راجيرتون قد قدَّم أيَّ تفسير فيما يتعلق بكيفية معرفته، أو معرفة أي شخص آخر، بتلك القصة الغريبة؟»

أجابه كالفيرلي: «أوه، أجل. لقد نسيتُ أن أذكر أن البحار بارات بعد أن باع اللؤلؤة بفترة قصيرة للغاية سقط من مدخل كوَّته إلى مخزن السفينة بينما كان يتم تفريغ حمولتها وقد أصيب إصابة بالغة. وأُخذ إلى المستشفى حيث مات في صباح اليوم التالي؛ وبينما كان يرقد في المستشفى بين الحياة والموت اعترف بجريمة القتل، وروى تلك الرواية المفصَّلة.»

قال ثورندايك: «حسنًا، وأظن أنك تصدِّق القصة بكل ما ذُكر فيها، أليس كذلك؟»

تورَّدت وجنتَا كالفيرلي رغمًا عنه بينما كان يبادل ثورندايك النظرات وقال: «بلا أدنى شك. انظر، أنا لستُ برجل علم، ومن ثَم فإن معتقداتي ليست قاصرةً على الأشياء التي يمكن حسابها وقياسها. إن هناك أشياءَ يا دكتور ثورندايك تقع خارج نطاق عقولنا المحدودة؛ أشياء يُنحِّيها العلم بمادته المتغطرسة جانبًا ويتجاهلها غاضًّا الطرف عنها. وأنا أُفضِّل أن أُومنَ بالأشياء الموجودة على نحو جليٍّ، حتى ولو كنتُ غيرَ قادر على تفسيرها. هذا هو الأسلوب الأكثر تواضعًا وحكمةً على ما أعتقد.»

قال السيد برودريب معترضًا: «ولكن يا عزيزي فريد، هذه حكاية من ضروب الخيال.»

استدار كالفيرلي نحو المحامي وقال: «لو كنتَ رأيتَ ما رأيتُ، فلم تكن لتصدقَها فقط، وإنما أيضًا كنت ستعرف ما أعنيه.»

قال السيد برودريب: «أخبرْنا بما رأيت إذن.»

قال كالفيرلي: «سأفعل إذا كنتم ترغبون في سماع ذلك. سأكمل لكم القصة الغريبة للؤلؤة الماندرين.»

ثم أشعل سيجارة جديدة واستطرد قائلًا:

«في الليلة التي وصلتُ فيها إلى بيتش هيرست، أي إلى منزل ابن عمي كما تعلمون، حدث شيء غريب للغاية، وأذكره الآن نتيجة علاقته بما حدث بعده. كنت قد ذهبتُ إلى غرفتي مبكرًا وجلستُ لبعض الوقت أكتب بعض الخطابات قبل أن أستعد للنوم. وحين انتهيتُ من خطاباتي، بدأت جولة تفتيش في غرفتي. ينبغي أن تتذكروا أنني حينها كنت في حالة من العصبية الشديدة وأصبح من عاداتي أن أُفتِّش الغرفة التي سأنام فيها قبل أن أخلع ثيابي، فكنت أنظر تحت السرير وفي الخزانات والصوانات الموجودة. حينها، وبينما كنت أفتش في غرفتي الجديدة، لاحظتُ وجود باب آخر وفي الحال توجهتُ نحوه لأفتحه لأرى إلى أين يؤدي. وبمجرد أن فتحت الباب، وجدتُ نفسي أمام شيء فظيع. لقد وجدتُ نفسي أنظر في داخل خزانة أو ممرٍّ ضيق تصطفُّ فيها مسامير لتعليق الملابس عليها، والتي كان الخادم قد علَّق عليها بالفعل بعض ملابسي؛ وفي النهاية المقابلة كان هناك باب آخر، وبينما وقفت أنظر في الخزانة، لاحظتُ في ذهول واندهاش أن هناك رجلًا يقف ويُمسك بالباب نصف مفتوح وينظر إليَّ في صمت. وقفتُ للحظة أُحدِّق به وقلبي يخفق بشدة وأطرافي ترتجف؛ ثم أغلقت الباب بقوة وهرعت لأبحث عن ابن عمي.

كان في غرفة البلياردو مع راجيرتون، ونظر كلاهما إليَّ بنظرات حادة حين دخلت عليهما.

قلت: «إلى أين يؤدي ذلك الممر الموجود في غرفتي يا ألفريد؟»

قال ألفريد: «إلى أين يؤدي؟ إنه لا يؤدي إلى أي مكان. كان فيما مضى يُفتح على رواق متقاطع، لكن حين تم تعديل تصميم المنزل، اختفى الرواق وأصبح ذلك الممر مغلقًا. إنه الآن مجرد خزانة ملابس.»

«حسنًا، لكنَّ هناك رجلًا به، أو كان به للتوِّ.»

صاح متعجبًا: «هراء! مستحيل! لنذهب وننظر في المكان.»

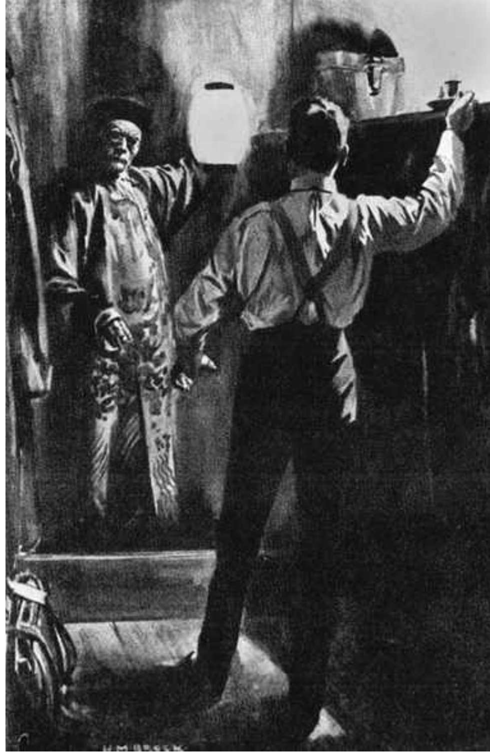
نهض هو وراجيرتون، وذهبَا معًا إلى حجرتي. وبينما فتحنا باب الخزانة ونظرنا داخلها، انفجر ثلاثتُنا ضاحكين. لقد كان هناك الآن ثلاثة رجال ينظرون إلينا من الباب المفتوح في النهاية المقابلة، وتم حل اللغز. لقد كانت هناك مرآة كبيرة موضوعة في نهاية الخزانة لكي تُغطِّيَ الجزء الذي يتقاطع مع الرواق.

عرَّضتني تلك الحادثة بطبيعة الحال إلى كثير من المزاح والسخرية من جانب ابن عمي والكابتن راجيرتون؛ لكنني غالبًا ما كنت أتمنى لو أن تلك المِرآة لم تكن موضوعة هناك؛ ذلك أنني في كثير من المرات حين كنت أذهب إلى الخزانة على عجل ومن دون أن أفكر في المرآة، كنت أتعرض لصدمة سيئة حين أجد نفسي في مواجهة شخص يبدو أنه يأتي نحوي مباشرة عبر باب مفتوح. وفي الواقع، كان هذا الأمر يزعجني بشدة في ظل حالتي العصبية التي كنتُ عليها، حتى إنني فكرتُ في أن أطلب من ابن عمي أن يعطيَني غرفة أخرى؛ لكنني حين تصادف أن أشرت إلى الأمر وأنا أتحدث إلى راجيرتون، وجدتُه يزدري بشدة جُبني لدرجة أنني شعرت بأنه مسَّ كبريائي، فقررتُ ألَّا أتحدثَ في الأمر.

والآن آتي على ذكر حادثة غريبة للغاية، والتي سأقصها بصراحة تامة، رغم أنني أعرف سلفًا أنكم سترون أنني كاذب أو مخبول. كنت بعيدًا عن المنزل لمدة أسبوعين وبينما كنت عائدًا في ساعة متأخرة من الليل، توجهت مباشرة إلى غرفتي. وبعد أن خلعتُ جزءًا من ملابسي، أخذت ملابسي في يدٍ وشمعة في الأخرى وفتحتُ باب الخزانة. ووقفت للحظة أنظر في عصبية إلى النسخة الأخرى مني وهو يقف وفي يده شمعة وينظر إليَّ من خلال الباب المفتوح عند النهاية الأخرى من الممر؛ ثم دخلت داخل الخزانة وبعد أن وضعتُ الشمعة على رف شرعت أُعلِّق ملابسي. انتهيتُ من ذلك ومددت يدي نحو الشمعة وحينها وقعت عيناي على شيء غريب في المرآة. لم تكن المرآة تعكس صورة الشمعة في يدي وإنما كانت تعكس مصباحًا ورقيًّا كبيرًا ملوَّنًا. وقفتُ مذهولًا من الصدمة وحدَّقت بالمرآة ثم رأيت أن انعكاسي قد تغير أيضًا، وأن رجلًا صينيًّا كبيرًا في السن يقف مكاني، وكان ينظر إليَّ في هدوء شديد.

لا بد وأنني وقفتُ كذلك لنحو دقيقة، فكنت غيرَ قادر على الحراك، وبالكاد ألتقطُ أنفاسي، وكنت في مواجهة مع ذلك الشخص المريع. ثم بعد برهة التفتت محاولًا الهرب، وبينما كنت ألتفُّ، كان يلتفُّ هو أيضًا، وكان باستطاعتي رؤيته من خلفي وهو يهرع بعيدًا. وحين وصلت إلى الباب، وقفت للحظة، ونظرت للخلف وكان الباب في يدي وأُمسك بالشمعة فوق رأسي؛ فوقف هو أيضًا يبادلني النظر ويده على الباب ومصباحه على رأسه.

كنت منزعجًا للغاية لدرجة أنني لم أستطع أن أخلد إلى النوم لبضع ساعات، وظللت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، رغم ما كنت أشعر به من تعب وإرهاق. ومرة بعد الأخرى، كنت أجد نفسي مضطرًّا — وبصورة لا تُقاوم — لأن أنظر في داخل الخزانة لكنني لم أرَ



الشبح في المرآة.

شيئًا في المرآة سوى انعكاسي وهو يمسك بالشمعة في يده ويبادلني النظرات من خلال الباب النصف مفتوح. وفي كل مرة كنت أنظر فيها إلى وجهي الشاحب من أثر الرعب، كنت أغلق الباب بسرعة وأبتعد وأنا أرتجف؛ ذلك أن المسامير بالملابس المعلَّقة عليها بدتْ وكأنها تنادي عليَّ. وفي النهاية دخلتُ إلى السرير وقبل أن أخلد إلى النوم توصلتُ إلى قرار مفاده أنني لو عشتُ حتى اليوم التالي فسأبعث بخطاب إلى القنصل البريطاني في كانتون وأعرض عليه أن أُعيد اللؤلؤة إلى أقارب الماندرين القتيل.

وفي اليوم التالي كتبتُ الخطاب وأرسلتُه وبعد ذلك شعرت بأنني رابط الجأش أكثر، رغم أنني كنت مطاردًا باستمرار بذكرى ذلك الرجل القاسي والجامد؛ ومن وقت لآخر كنت أشعر بدافع لا يقاوم نحو الذهاب والنظر في داخل الخزانة إلى المرآة والمسامير المعلقة عليها الملابس. وأخبرتُ ابن عمي بالشبح الذي رأيته، لكنه لم يفعل سوى أن ضحك وكان مرتابًا بشكل واضح فيما قلته؛ فيما نصحني الكابتن بكل صراحة وفظاظة ألا أكون غبيًّا يؤمن بالخرافات.

عشتُ في سلام لعدة أيام بعد هذا، وبدأت آمل أن خطابي قد هدأ روح القتيل؛ لكن في اليوم الخامس، وفي نحو الساعة السادسة مساءً، تصادف أنني كنت أريد بعض الأوراق التي تركتُها في جيب معطف معلق في الخزانة، فذهبت لأُحضرها. لم آخذ معي شمعة؛ لأن الظلام لم يكن قد حلَّ بعد، لكنني تركت الباب مفتوحًا على مصراعيه ليُنيرَ لي. وكان المعطف الذي أريده بالقرب من نهاية الخزانة، ولم يكن يبعد عن المرآة أكثر من أربع خطوات، وبينما كنت أذهب إليه كنت أراقب انعكاسي بعصبية وهو يقترب مني. وجدت معطفي وبينما مددت يدي لأتحسس الأوراق كنت أنظر بعينٍ متشككة نحو انعكاسي. وبينما كنت أنظر، حدث شيء شديد الغرابة: بدت المرآة للحظة وكأنها تُظلم أو تُظللها غمامة ثم وحين انقشعت تلك الغمامة مرة أخرى ظهرت هيئةُ الماندرين وهو يقف بجسده القاتم في مواجهة الضوء الصادر عن الباب من خلفه. وبعد أن رمقتُه بنظره واحدة، هرعت بعيدًا عن الخزانة وكنت أرتجف من شدة الانزعاج والخوف؛ لكن وحين استدرت لأغلق الباب، لاحظت أن شخصي هو الذي يمثل الانعكاس في المرآة. أما الرجل الصيني فقد اختفى في غمضة عين.

أصبح من الواضح الآن أن خطابي لم يحقق الهدف المرجو منه، وسقطتُ أسيرَ اليأس؛ وقد زاد شعوري باليأس منذ ذلك اليوم حيث شعرتُ مرة أخرى بالدافع المروِّع الذي يدعوني للذهاب والنظر في المسامير على جدران الخزانة. لم يكن هناك خطأٌ في فهم معنى هذا الدافع، وفي كل مرة كنت أذهب إلى الخزانة كنت أجرُّ نفسي كرهًا بعيدًا عن الخزانة، رغم أنني حينها أكون مرتعشًا من شدة الخوف. ولكنَّ شيئًا واحدًا في واقع الأمر شجعني قليلًا؛ وهو أن الماندرين في كلَا الواقعتين لم يكن يومئ إليَّ كما فعل مع البحارة؛ لذا ربما كان لا يزال هناك مهربٌ متاحٌ أمامي.

وفي أثناء الأيام القليلة التالية فكرتُ مليًّا في التدابير التي يمكنني اتخاذها للحيلولة دون المصير الذي يبدو أنه يُحدِّق بي. وكانت الخطة الأبسط — وهي إعطاء اللؤلؤة إلى

شخص آخر — غير مطروحة للنقاش؛ لأنها لن تختلف كثيرًا عن ارتكاب جريمة قتل. وعلى الجانب الآخر، لم يكن باستطاعتي أن أنتظر حتى يأتيَ الردُّ على خطابي؛ ذلك لأنني حتى ولو بقيتُ على قيد الحياة كنت أشعر أنني سأفقد صوابي قبل أن يصلَني الردُّ بوقت طويل. لكن بينما كنت أفكر فيما ينبغي عليَّ أن أفعل، ظهر الماندرين لي مرة أخرى؛ ثم وبعد أن مرَّ يومان فقط، أتاني مرة أخرى. كان ذلك في الليلة الماضية. ظللتُ أُحدِّق به وأنا مذهول وجسدي يرتجف وكان هو يقف والمصباح في يده وينظر إلى وجهي بنظرات مباشرة وثابتة. وفي النهاية، مدَّ إليَّ يده وكأنه يطلب مني أن أُعطيَه اللؤلؤة؛ ثم أصبحت المرآة معتمة واختفى في غمضة عين؛ وفي المكان الذي كان يقف فيه ظهر انعكاسي وهو ينظر إليَّ من المرآة.

إن ذلك الظهور الأخير قد جعلني أصل لقرار محدد. وحين غادرتُ المنزل صباح اليوم، كانت اللؤلؤة في جيبي، وبينما كنت أسير على جسر ووترلو، انحنيتُ عن الحاجز وألقيت باللؤلؤة في الماء. بعد ذلك شعرت بارتياح شديد لبعض الوقت؛ فقد تخلصتُ من الحلية الملعونة من دون أن أورِّط أحدًا في تلك اللعنة التي كانت توجد بها. لكنني بعد برهة انتابتني شكوكٌ جديدة، وظلت قناعةٌ أنني فعلت الشيء الخاطئ تتنامى بداخلي طوال اليوم؛ فأنا لم أفعل شيئًا سوى أنني أبعدتها عن متناول صاحبها للأبد، في حين أنه كان ينبغي عليَّ أن أحرقَها على الطريقة الصينية؛ وذلك حتى يتسنَّى لجوهرها غير المادي أن ينضمَّ إلى روح صاحبها التي كان يمتلكها حين كان كلاهما يمتلك وجودًا ماديًّا.

لكن لا يمكن تغييرُ ما حدث الآن. وسواء كان ذلك سيجلب الخير أو الشر، ما حدث قد حدث، والرب وحده يعلم عاقبة ذلك.»

وبينما كان يختتم كلامه، أطلق تنهيدة عميقة ودفن وجهه بين يديه النحيلتين الضعيفتين. وظللنا جميعًا صامتين لبعض الوقت، وأعتقد أننا كنا في حالة تأثُّر عميقة؛ ذلك أننا كنا مشفقين عليه ونشعر بمأساته لدرجة أننا شعرنا أن تلك الأحداث حقيقية بالفعل؛ رغم أن الأمر برمته يبدو غيرَ واقعي بشكل غريب.

نهض السيد برودريب فجأة ونظر في ساعته.

«يا إلهي يا كالفيرلي، إننا هكذا سيفوتنا القطار.»

استجمع الشاب قوتَه ونهض. وقال: «بل يمكننا أن نلحق به إذا ما رحلنا من فورنا.» ثم أضاف وهو يصافح ثورندايك ويصافحني: «وداعًا. كنتم صبورين للغاية وأخشى أنني كنت مضجرًا. هيا يا سيد برودريب.»

ثم تبعتهما أنا وثورندايك حتى بسطة الدرج وسمعت صديقي يقول للمحامي بنبرة خفيضة لكنها تنمُّ عن جدية كبيرة: «أبعدْه عن ذلك المنزل يا برودريب ولا تدعْه يغيب عن ناظرك ولو للحظة.»

ولم يسعني أن أسمع جواب المحامي، هذا إذا كان قد أجابه، لكننا حين دخلنا إلى منزلنا لاحظتُ أن ثورندايك منزعجٌ أكثر من أي مرة رأيتُه فيها كذلك.

صاح ثورندايك: «ما كان ينبغي لي أن أدعَهما يرحلان. تبًّا لي! لو كنت أتمتع بمثقال حبة من ذكاء، لكنت قد جعلت القطار يفوتهما.»

ثم أشعل غليونه وراح يذرع الحجرة جيئة وذهابًا بخطوات واسعة، وكانت عيناه مثبتتين على الأرض وتعبيرات وجهه تنمُّ عن تفكير عميق. وفي النهاية، وحين وجدت ألَّا أمل في أن يتحدث معي، أطفأتُ غليوني وخلدت إلى النوم.

وبينما كنت أرتدي ثيابي في صباح اليوم التالي، دخل ثورندايك إلى حجرتي. كان وجهه كئيبًا حدَّ الصرامة، وكان يُمسك في يده ببرقية.

وقال في اقتضاب وهو يمدُّ يده بـ «الورقة الرقيقة» إليَّ: «سأذهب إلى وايبريدج هذا الصباح. هل ستأتي معي؟»

أخذتُ منه الورقة وقرأت الآتي:

احضر بحق الرب! ف. ك. قد مات. ستفهم الأمر. برودريب

أعطيتُه البرقية وكنت مصدومًا للغاية حتى إن لساني كان معقودًا للحظة. لقد ظهرت أمامي للحظة تلك المأساة المريعة بأكملها والتي تلخَّصت في هذه الرسالة الموجزة، واجتاحني شعور عميق بالشفقة والأسى بسبب تلك النهاية التعيسة لحياة حزينة وخاوية.

وقلت متعجبًا بعد برهة: «يا لَه من أمر شنيع يا ثورندايك؛ أن يُقتل المرء بسبب مجرد وهمٍ غريب.»

سألني بنبرة فظة: «أتظن ذلك؟ حسنًا، سنرى؛ لكن هل ستأتي؟»

أجبتُه: «أجل.» وبينما كان ينسحب من الغرفة ذهبت مسرعًا لارتداء ملابسي.

وبعد نصف ساعة بعد أن تناولنا إفطارًا سريعًا، أتى بولتون إلى الغرفة وكان يحمل حقيبة صغيرة مطوية بها أدوات ومجموعة من المفاتيح الهيكلية.

وسأل قائلًا: «هل ستأخذهما في حقيبة يا سيدي؟»

أجابه ثورندايك: «لا، سآخذهما في جيب معطفي. أوه، وهاك رسالة أريد منك يا بولتون أن تأخذها إلى سكوتلاند يارد. إنها مرسلة إلى المفوض المساعد، وينبغي عليك أن تحرص على أن تصل إلى الشخص الصحيح قبل أن تغادر. وهاك برقية إلى السيد برودريب.»

ثم دسَّ المفاتيح وحقيبة الأدوات في جيبه، ونزلنا معًا إلى العربة التي كانت تنتظرنا.

وفي محطة وايبريدج وجدنا السيد برودريب وهو يذرع الرصيف بخطواته في كآبة شديدة. وقد أضاء وجهه قليلًا حين رآنا وصافحنا بقوة ولهفة.

وقال في ترحيب حارٍّ: «من الجيد للغاية أن تأتيَا على الفور، وأنا ممتنٌّ للغاية لما تقدمانه من لطف وإحسان. أنت تفهم بالطبع يا ثورندايك؟»

أجابه ثورندايك: «أجل. أعتقد أن الماندرين أومأ إليه.»

التفت إليه السيد برودريب وقد ارتسمت ملامح الدهشة عليه. وسأله: «كيف خمنت ذلك؟» ثم ومن دون أن ينتظر ردًّا، أخرج من جيبه رسالة سلمها إلى صديقي. وقال: «لقد ترك لي المسكين الراحل هذه الرسالة. وجدها الخادم على طاولة الزينة.»

رمق ثورندايك الرسالة بسرعة ثم أعطاها لي. كانت تتكون من بضع كلمات مكتوبة على عجل وبيد مرتجفة.

«لقد أومأ إليَّ وينبغي عليَّ أن أذهب. الوداع يا صديقي العزيز.»

سأل ثورندايك: «كيف تعامل ابنُ عمه مع الأمر؟»

أجابه المحامي: «إنه لا يعرف حتى الآن. فقد ذهب ألفريد وراجيرتون بعد أن تناولَا إفطارًا مبكرًا إلى جيلدفورد بالدراجات ليُنجزَا أمرًا ما أو شيئًا من هذا القبيل، ولم يعودَا حتى الآن. ولم تُكتَشف النكبة إلا بعد أن غادرَا بوقت قليل. فقد ذهبت الخادمة إلى غرفته بكوب من الشاي، وذُهلت حين رأتْ أنه لم يمسَسْ سريرَه. وهرعت إلى الطابق السفلي في ذعر وأفادت بما رأت إلى كبير الخدم، والذي هرع إلى أعلى من فوره وفتَّش الغرفة؛ لكنه لم يستطع أن يجد أيَّ أثر للفقيد، عدا هذه الرسالة، حتى خطر في باله أن ينظر في الخزانة. وحين فتح الباب فزع بشدة من انعكاسه في المرآة؛ ثم رأى فريد المسكين وهو معلَّق في أحد المسامير المستخدمة لتعليق الملابس بالقرب من نهاية الخزانة، على مقربة من المرآة. إنها مسألة تبعث على الكآبة، لكن ها هو المنزل، وها هو كبير الخدم ينتظرنا. ألم يَعُد السيد ألفريد بعد يا ستيفنز؟»

«نعم، يا سيدي.» من الواضح أن الرجل ذا الوجه الشاحب الذي تظهر عليه ملامحُ الخوف كان ينتظر عند البوابة بسبب نفوره من المنزل، وقد سار الآن باتجاه المنزل في ارتياح واضح بسبب قدومنا. وحين دخلنا المنزل، أرشدنا من دون تعليق منه إلى الطابق الأول، وكان يتقدمنا أثناء سيرنا في الممر ثم توقف بالقرب من نهايته. وقال: «هذه هي الغرفة يا سيدي.» ومن دون أن ينطق بكلمة أخرى استدار وهبط على السُّلَّم.

دخلنا الغرفة وتبعنا السيد برودريب بحذر شديد، وكان ينظر حوله في خوف، ويرمق الجسد الممدد على السرير والمغطى بملاءة بنظرات يملؤها الرعب. وتقدم ثورندايك نحو الجثة وسحب الملاءة رويدًا.

ثم قال وهو ينحني على الجثة: «من الأفضل لك ألَّا تنظرَ يا برودريب.» وتحسَّس الأطراف وفحص الحبل الذي كان لا يزال حول الرقبة، وكانت نهايته المقطوعة بخشونة تشهد على الرعب الذي شعر به الخدم الذين قطعوا الحبل وأنزلوا الجثة. ثم أعاد الملاءة إلى وضْعها ونظر في ساعته وقال: «حدثت الوفاة في الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا. لا بد وأنه قاومَ دافعَه لبعض الوقت، يا له من مسكين! والآن لنُلقِ نظرة على الخزانة.»

ذهبنا معًا إلى باب في زاوية من الحجرة، وحين فتحناه، واجهنا ثلاثة أشخاص وكانوا على ما يبدو ينظرون إلينا من باب مفتوح في النهاية المقابلة.

قال المحامي في نبرة خافتة وهو ينظر في قلق إلى الأشخاص الثلاثة الذين تقدموا نحونا ليلاقونا: «الأمر مروِّع حقًّا. ما كان للمسكين أن يوجد في هذا المكان أبدًا.»

كان المكان غريبًا بالتأكيد، ولم يسعْني ونحن نسير في الممر المظلم الضيق وأولئك الشخصيات الثلاثة المعتمة تسير نحونا في صمت وتُقلِّد كلَّ حركاتنا سوى أن أشعر أن المكان ليس مناسبًا لرجل يعاني من مشكلات عصبية ويؤمن بالخرافات مثل فريد كالفيرلي. وبالقرب من نهاية صف المسامير الطويل كان هناك مسمار يتدلَّى منه نهاية حبل سميك وقد أشار إليه السيد برودريب بإيماءة تنمُّ عن الهلع. لكن ثورندايك لم يفعل سوى أن رمقها بنظرة سريعة ثم سار إلى المرآة وراح يفحصها بدقة. كانت المرآة كبيرة للغاية يكاد طولُها يبلغ سبع أقدام وتمتد بعرض الخزانة بالكامل والمسافة بينها وبين الأرض تصل لقدمٍ واحدة تقريبًا؛ ويبدو أنها دخلت إلى المكان الموجودة فيه من الخلف؛ ذلك أن الأشغال الخشبية كانت أمامها من الأعلى والأسفل. وفيما لاحظتُ هذه الأشياء، رحتُ أراقب ثورندايك في فضول كبير. في البداية طرق على المرآة بمفاصل أصابعه؛ ثم أضاء عودَ ثقابٍ شمعيًّا وقرَّبه من المرآة وراح يراقب انعكاس اللهب بإمعان. وفي النهاية،

وبعد أن وضع خدَّه على الزجاج، أمسك بعود الثقاب بطول ذراعه وهو لا يزال قريبًا من المرآة، ونظر إلى الانعكاس على طول السطح الزجاجي. ثم أطفأ عود الثقاب وعاد إلى الغرفة وأغلق باب الخزانة بعد أن خرجنا منها.

قال ثورندايك: «في رأيي أنه بينما ننتظر جميعنا بلا شك استدعاءً من قاضي التحقيق، فسيكون من الأفضل أن ندوِّن بضع ملحوظات عن ملابسات القضية. أرى أن هناك طاولة للكتابة بجوار النافذة، وأقترح أن تدوِّن يا برودريب موجزًا لما سمعتَ البارحة من إفادة من القتيل، بينما يدوِّن جيرفس حالة الجثة بدقة. وبينما تقومان بذلك، سأُلقي نظرة في الأرجاء.»

قال السيد برودريب متذمِّرًا: «يمكننا أن نجد مكانًا أفضل من هذا لنكتب فيه، لكن …»

ومن دون أن يُنهيَ جملته، جلس برودريب إلى الطاولة، وبعد أن وجد ورقًا يُستخدم في كتابة المواعظ الدينية، غمس القلم في الحبر من أجل أن يُحفِّزَ أفكاره. في تلك اللحظة انسلَّ ثورندايك في هدوء خارج الغرفة، وشرعتُ أنا في إجراء فحص مفصَّل للجثة: وأثناء قيامي بذلك كانت تقاطعني بين الحين والآخر طلباتٌ من المحامي بأن أُذكِّرَه بشيء ما.

وظللنا مشغولين هكذا قرابة الربع ساعة، وذلك حين سمعنا خطواتٍ سريعة بالخارج وفُتِح الباب فجأة واندفع رجل إلى داخل الغرفة. نهض برودريب ومدَّ يدَه ليُسلِّمَ عليه.

قال برودريب: «هذه عودة حزينة بالنسبة لك يا ألفريد.»

صاح الوافد قائلًا: «أجل، يا إلهي! هذا أمر شنيع.»

ونظر بارتياب إلى الجثة الممددة على السرير، ومسح جبهته بمنديله. لم يكن ألفريد كالفيرلي سليمًا؛ فقد كان، كابن عمِّه، مصابًا بمرض عصبي على ما يبدو، لكن وجهه كان يحمل علامات الإسراف، وقد أصبح الآن شاحبًا ويحمل أمارات الشعور بالخوف والرعب. وعلاوة على ذلك، صاحَب دخولَه رائحةٌ ملحوظة لمشروب البراندي.

كان قد سار من دون أن يُلاحظني إلى طاولة الكتابة وبينما كان واقفًا إلى جوارها ويتحدث بصوت مبحوح إلى المحامي، وجدتُ ثورندايك إلى جواري فجأة. كان قد تسلَّل إلى الغرفة من دون أن يُصدرَ أيَّ صوت من خلال الباب الذي تركه كالفيرلي مفتوحًا.

وهمس قائلًا: «أرِه الملاحظات التي كتبها برودريب، ثم خُذْه وادخل به الخزانة واجعله ينظر إلى المسمار.»

وبعد هذا الطلب الغريب، انسلَّ إلى خارج الغرفة بنفس الهدوء الذي دخل به، دون أن يره كالفيرلي أو المحامي.

سأله برودريب: «هل عاد الكابتن راجيرتون معك؟»

وكانت إجابته: «لا، بل ذهب إلى المدينة، لكنه لن يغيبَ طويلًا. سيكون هذا الأمر بمثابة صدمة مروِّعة بالنسبة له.»

في تلك اللحظة تقدَّمتُ خطوة وسألت: «هل أريت السيد كالفيرلي ذلك الخطاب الغريب الذي تركه لك القتيل؟»

صاح كالفيرلي فجأة في إلحاح: «ما هذا الخطاب؟»

أخرج السيد برودريب الرسالة وسلَّمه إياها. وبينما كان يقرؤها، استحال وجهُ كالفيرلي إلى الشحوب، وارتعشت الورقة في يده.

وقرأ: «لقد أومأ إليَّ وينبغي عليَّ أن أذهب.» ثم قال بينما رمق المحامي بنظرة خاطفة: «من الذي أومأ له؟ ماذا كان يعني بذلك؟»

شرح السيد برودريب معنى ذلك التلميح باقتضاب وأضاف: «كنت أظن أنك تعرف كلَّ شيء عن هذا الأمر.»

قال كالفيرلي ببعض الارتباك: «أجل، أجل. أتذكر الأمر الآن بعد أن ذكرتَه. لكن الأمر برمته يبعث على الخوف والحيرة.»

في تلك اللحظة تدخَّلتُ مرة أخرى وقلت: «هناك سؤال قد يبدو ذا أهمية. وهو يشير إلى الحبل الذي شنق به ذلك المسكينُ نفسَه. أتعرف ذلك الحبل يا سيد كالفيرلي؟»

صاح متعجبًا وهو يُحدِّق بي ويمسح العرق عن وجهه الشاحب: «أنا! كيف يمكنني ذلك؟ أين الحبل؟»

«جزءٌ منه لا يزال معلقًا في المسمار بداخل الخزانة. أتُمانع أن تُلقيَ عليه نظرة؟»

«لو تكرَّمت وأحضرته، أنت تعرف أنني … أعاني من …»

قلت: «لا ينبغي أن يُمسَّ ذلك الحبل قبل التحقيق، لكن من المؤكد أنك لست خائفًا …»

أجاب بنبرة غاضبة: «لم أَقُل بأنني خائف. لمَ عساي أن أكون خائفًا؟»

وبتغطرس غريب يشوبه الارتعاش، راح يسير عبر الغرفة باتجاه الخزانة، وفتح الباب ودلف إلى داخلها.

وبعد لحظة سمعنا صوتَ صيحة تنمُّ عن الذعر، وهرع خارج الخزانة وهو شاحب ويلهث.

صاح السيد برودريب وقد انتفض من الرهبة: «ما الأمر يا كالفيرلي؟»

لكن كالفيرلي كان غيرَ قادر على الحديث، وبعد أن هوى بوهنٍ على كرسي، راح يُحدِّق بنا لبرهة في رعب صامت؛ ثم اعتدل في جلسته وأطلق ضحكة مجنونة.

نظر إليه السيد برودريب في دهشة. وسأله مجددًا: «ما الأمر يا كالفيرلي؟»

وحيث إن الإجابة لم تكن وشيكةً، دلف برودريب إلى داخل الخزانة عبر بابها المفتوح وراح ينظر أمامه في فضول. ثم أطلق هو الآخر صيحة تنمُّ عن الاندهاش وهرع خارجًا، وقد بدا شاحبًا وقلقًا.

ثم صاح قائلًا: «يا إلهي! أهذا المكان مسكون؟»

ثم هوى على كرسي وراح يحدق في كالفيرلي والذي كان لا يزال يرتعش من الضحك الهستيري؛ بينما كاد الفضول يأكلني، فسِرْتُ نحو الخزانة لأكتشف سبب سلوكهما الغريب. وحين فتحت الباب الذي كان المحامي قد أغلقه، لا بد وأن أعترف هنا أنني فزعتُ كثيرًا؛ ذلك أنه وبالرغم من أن انعكاس الباب المفتوح كان ظاهرًا بوضوح في المرآة، فإن انعكاسي أنا كان مستبدَلًا به انعكاس رجلٍ صيني. وبعد لحظة وقفت فيها مذهولًا، دخلت إلى الخزانة وسرت باتجاه المرآة ومن ثَمَّ دخل انعكاس الرجل الصيني وسار نحوي. كنت قد تقدمت أكثر من نصف المسافة في داخل الخزانة وذلك حين أصبحت المرآة قاتمة؛ ثم حدث ضوء خاطف واختفى الرجل الصيني في غمضة عين وحين وصلتُ إلى زجاج المرآة، كان انعكاسي يواجهني.

ثم عُدتُ إلى الغرفة وقد فهمت الأمر تمامًا، ونظرت إلى كالفيرلي بشعور جديد بالنفور. كان لا يزال جالسًا في مواجهة المحامي المذهول، وتارة ينتحب ويرتجف، وتارة أخرى يعوي من شدة الضحك. لم يكن مظهرُه مقبولًا، وحين دخل ثورندايك إلى الغرفة بعد بضع لحظات وتوقف عند الباب بنظرة تنمُّ عن الاشمئزاز، شعرتُ بأنني مدفوع لأن أنضمَّ إليه. لكن وعند هذه المرحلة، دخل رجل إلى الحجرة بعد أن دفع ثورندايك وتقدَّم نحو كالفيرلي وراح يهزُّه بقوة من ذراعه.

وصاح بنبرة غاضبة: «أوقف هذا الأمر! أتسمعني؟ أوقفه!»

قال كالفيرلي لاهثًا: «لا يمكنني فعل شيء يا راجيرتون. لقد أفزعني ذلك الماندرين.»

صاح راجيرتون متعجبًا: «ماذا!»

ثم اندفع عبر الغرفة باتجاه الخزانة ونظر بداخلها واستدار نحو كالفيرلي وهو يغمغم. ثم خرج من الغرفة.

قال ثورندايك: «يا برودريب، أريدك في كلمة أنت وجيرفس بالخارج.» ثم وبينما تبعناه إلى الدرج، أكمل قائلًا: «هناك شيءٌ مثير للغاية أريد أن أريكما إياه. إنه هنا.»

ثم فتح بابًا مجاورًا في هدوء فوجدنا غرفة صغيرة خالية من الأثاث. كانت هناك خزانة ناتئة تشغل أحد جوانبها وعلى باب الخزانة كان الكابتن راجيرتون واقفًا ويده على المفتاح. فاستدار نحونا في عنف لكن بدا عليه الرهبة، وصاح قائلًا:

«ما معنى هذا التطفل؟ ومن أنتم بحق السماء؟ أتعرفون أن هذه هي غرفتي الخاصة؟»

أجابه ثورندايك في هدوء: «شككتُ في ذلك. إذن محتويات هذه الخزانة ملكك، أليس كذلك؟»

استحال وجهُ راجيرتون شاحبًا، لكنه أكمل في تبجُّحٍ قائلًا: «أأفهم من هذا أنكم تجرأتم على اقتحام خزانتي الخاصة؟»

أجابه ثورندايك: «لقد فتَّشتُها، ويمكنني أن ألفت انتباهك إلى أنه لا جدوى من استخدام هذا المفتاح، لأنني أعقت عمل القفل.»

صاح راجيرتون: «لماذا فعلت هذا؟!»

«أنا بانتظار ضابط شرطة ومعه مذكِّرة تفتيش؛ لذا كنت أرغب في أن أحافظ على كل شيء دون أيِّ تغيير.»

شحب وجه راجيرتون وقد اختلطت به مشاعر الغضب والخوف. ثم سار باتجاه ثورندايك على نحو مهدد، لكنه غيَّر رأيه فجأة وقال متعجبًا: «يجب أن أجد حلًّا لهذا!» ثم هرع خارج الغرفة.

أخرج ثورندايك من جيبه مفتاحًا، وبعد أن أغلق الباب التفت نحو الخزانة. وبعد أن أخرج المفتاح ليُعيدَ فتْح القفل باستخدام سلك قوي، أعاد إدخال المفتاح وفتح الباب. ولما دخلنا وجدنا أنفسنا في خزانة ضيِّقة، مشابهة للخزانة الموجودة في الغرفة الأخرى لكنها قاتمة أكثر، وذلك بسبب غياب المرآة. كان هناك بضع قطع من الملابس معلقة على المسامير، وحين أشعل ثورندايك شمعة كانت على رفٍّ، استطعنا أن نرى المزيد من التفاصيل.

قال ثورندايك: «هذه هي بعض الأشياء التي يمتلكها.» ثم أشار إلى مسمار كان يتدلَّى منه ثوبٌ طويل من الحرير الأزرق صيني التصميم، وقبعة يرتديها الماندرين بها جديلة متصلة بها، وقناع من الورق المعجَّن مصنوع بدقة كبيرة. ثم قال: «انظرَا.» وأخذ القناع من على المسمار وأظهر على الجزء الداخلي منه ملصقًا مكتوبًا عليه «رينوار من باريس.» ثم أكمل: «لم يدَّخرَا جهدًا.»

ثم خلع ثورندايك معطفه ولبس الثوب الطويل والقناع والقبعة فتحول مظهره في لحظة وفي ظل تلك الإضاءة الخافتة إلى مظهر مثالي لرجل صيني.

ثم علَّق قائلًا وهو يشير إلى زوج من الأحذية الصينية ومصباح ورقي كبير: «وبأخذ وقت إضافي ضئيل، يمكن جعل مظهري أكثر اكتمالًا؛ لكن يبدو أن هذا يردُّ على كلام صديقنا ألفريد.»

قال السيد برودريب بينما كان ثورندايك يخلع عنه ملابس التنكر: «لكنني ما زلت لا أفهم ...»

قال ثورندايك: «سأوضح الأمر لكما بعد لحظات.» ثم سار نحو نهاية الخزانة، وبعد أن نقر على الحائط الأيمن قال: «هذه هي خلفية المرآة. كما تلاحظان، إنها معلقة على مفصلات كبيرة تم تزييتُها جيدًا، ومدعومة على تلك العجلة الكبيرة المؤطرة بالمطاط والتي لا شك أنها تحتوي على محامل كروية. وكما تريان إن هناك ثلاثة حبال سوداء ممتدة بطول الحائط، وتمرُّ عبر تلك البكرات التي في الأعلى. والآن، حين أسحب هذا الحبل، لاحِظَا ما سيحدث.»

ثم سحب أحد الحبال بشدة، وفي الحال مالت المرآة في هدوء إلى الداخل على العجلة الكبيرة خاصتها، حتى صارت مائلة عبر الخزانة وتوقفت بفعل حاجز مطاطي.

صاح السيد برودريب متعجبًا: «يا إلهي! يا لَه من أمر غريب!»

كان تأثير ذلك غريبًا للغاية بالتأكيد، لأن المرآة كانت الآن قطرية عبر الخزانتين فظهرتَا وكأنهما ممرٌّ واحد طويل له باب عند كل طرف من طرفيه. وحين سِرْنا إلى حيث كانت توجد المرآة، وجدنا أن الفتحة التي كانت تشغلها كان بها لوحٌ من زجاج شفاف، ومما لا شك فيه أنه قد وُضع في مكانه هذا من باب الحيطة لمنع أي شخص من السير عبر الممر والانتقال من خزانة إلى الأخرى، ومن ثم كشف الخدعة.

قال السيد برودريب: «الأمر كلُّه محيرٌ جدًّا. إنني لا أفهم شيئًا الآن.»

رد عليه ثورندايك: «لننتهي من هنا أولًا ثم سأشرح لك كلَّ شيء. لاحِظَا تلك الستارة السوداء. حين أسحب الحبل الثاني، فإنها تنزلق عبر الخزانة وتمنع وصول الضوء. والآن لا تعكس المرآة أيَّ شيء في الخزانة الأخرى؛ بل تبدو قاتمة. والآن سأسحب الحبل الثالث.»

ثم سحب الحبل الثالث، فمالت المرآة في صمت إلى مكانها.

قال ثورندايك: «هناك شيء واحد آخر أريد منكما أن تلاحظاه قبل أن نخرج، وهو تلك المرآة الأخرى التي تقف ووجهها إلى الجدار. بالطبع هذه هي المرآة التي رآها

فريد كالفيرلي في البداية عند نهاية الخزانة؛ ومنذ ذلك الحين وهي مرفوعة من مكانها بينما وُضعت مكانها تلك المرآة الكبيرة المتحركة.» ثم أكمل حديثه بعد أن خرجنا من الغرفة: «والآن سأشرح لكما آلية ذلك بالتفصيل. كان من الواضح بالنسبة لي حين سمعتُ قصة فريد كالفيرلي المسكين أن المِرآة قد غُيِّرت، وقد رُسمت رسمة تُمثِّل الترتيبات المحتملة، وقد اتضحت صحتُها فيما بعد. وإليك هذه الرسمة.» ثم أخرج من جيبه ورقة وأعطاها إلى المحامي: «هناك رسمتان. الرسمة ١ توضح المرآة في وضعها الطبيعي حيث تُغلق نهاية الخزانة. حين يقف شخص في الخزانة «أ» سيرى بالطبع انعكاسه أمامه والموضح في «أ١». والرسمة ٢ توضح المرآة وهي مائلة. والآن حين يقف الشخص في الخزانة «أ» فإنه لا يرى انعكاسه أبدًا؛ لكن إذا كان هناك شخص آخر يقف في الخزانة الأخرى وهي الخزانة «ب»، فإن الشخص في الخزانة أ سيرى انعكاس الشخص الذي في الخزانة «ب» والموضح في «ب١»، أي، في نفس الوضع الذي كان انعكاسه يشغله حين كانت المرآة في موضعها الطبيعي.»

قال برودريب: «لقد فهمت الآن، ولكن من قام بإعداد هذه الآلة، وما السبب في صنعها؟»

قال ثورندايك: «سأسألك سؤالًا. هل ألفريد كالفيرلي هو أقرب أقارب فريد؟»

«لا؛ هناك الأخ الأصغر لفريد. ولكن يمكنني القول إن فريد قد كتب وصيته مؤخرًا، وهي تصبُّ بشدة في مصلحة ألفريد.»

قال ثورندايك: «هذا هو التفسير إذن. لقد قام هذان الوغدان بالتآمر ليقودَا صديقنا المسكين إلى الانتحار، ومن الواضح أن راجيرتون كان هو العقل المدبر. لا شك أنه كان يحاول اختلاق قصة تتلاءم مع طبيعة فريد المسكين الذي يؤمن بالخرافات حين سمع بأمر الرجل الصيني على السفينة ووجد في ذلك ضالته. حينها اختلق قصة قتل الماندرين الغريبة واللؤلؤة المسروقة. أنت تتذكَّر أن حالات ظهور الشبح تلك لم تبدأ إلا بعد أن ذُكرت هذه القصة وبعد أن غاب فريد عن المنزل في زيارة. ومما لا شك فيه أنه وأثناء غيابه قام راجيرتون باستبدال المرآة الأصلية واستعاض عنها بالأخرى المتأرجحة؛ وفي الوقت نفسه اشترى ثياب الرجل الصيني والقناع من تجار الأغراض المسرحية. لا شك أنه اعتمد على قدرته على إزالة الزجاج المتأرجح في هدوء واستبدال المرآة الأصلية به قبل التحقيق.»

صاح السيد برودريب: «يا إلهي! لم أسمع من قبل بخطة شائنة ووضيعة أكثر من هذه. لا بد أن هذين الشيطانَين سينالان جزاءهما ويدخلان السجن.»

لكن السيد برودريب كان مخطئًا في ذلك؛ ذلك أن المتآمرين حين عرفَا أن أمرهما قد كُشِف، غادرَا المنزل وبحلول الليل كانَا قد عبرَا القناة الإنجليزية في سلام؛ وكان عزاء المحامي الوحيد هو أن الوصية قد أُلغيت بسبب الوقائع التي تم الكشف عنها في التحقيق.

أما بالنسبة لثورندايك فلم يسامح نفسه حتى اليوم لأنه سمح لفريد كالفيرلي بأن يذهب إلى المنزل ليلقى حتفه.

الفصل السابع

# الخنجر ذو المقبض الألومنيوم

إن «الاستدعاءات الطارئة»، أي طلبات المساعدة المهنية الفورية والمفاجئة، تُعدُّ من الخبرات التي يختص بها الممارس الطبي أكثر من الممارس القانوني، وقد افترضتُ، حين هجرت الجانب الإكلينيكي من مهنتي وجنحتُ إلى الجانب القانوني منها، أن أيام تلك الاستدعاءات قد ولَّت؛ أن مقاطعتي أثناء تناول طعامي، أو أثناء وقت راحتي، أو أن صوت الجرس الليلي كانت أشياء من الماضي؛ لكن في الواقع العملي كان الأمر عكس ذلك. إن الطبيب الشرعي إن جاز التعبيرُ يقف على الحدود بين المهنتين، وهو معرَّض إلى تقلبات كلتيهما، وهكذا كان يحدث بين الحين والآخر أن يتمَّ استدعاءُ صديقي أو استدعائي من دون سابق إنذار لتقديم خدماتنا المهنية. وهذا هو ما حدث في القضية التي سأقصُّها عليكم.

كنتُ قد انتهيت لتوِّي من أداء طقس «استحمامي» المقدس على نحو وافٍ، وجفَّفتُ نفسي وعلى وشك أن أدسَّ نفسي في أول دفعة من الملابس حين سمعت خطوات سريعة على الدرج، وجاء صوت بولتون مساعد المعمل الخاص بنا عند باب غرفة صديقي.

«هناك رجل بالأسفل يا سيدي ويقول بأنه ينبغي أن يراك في الحال لأمر طارئ للغاية. يبدو أنه يرتجف بشدة يا سيدي ...»

كان بولتون يتطرق إلى التفاصيل الخاصة بوصف الرجل وحالته حين سمعتُ صوت خطوات أخرى أسرع، وخاطب صوتٌ غريب ثورندايك.

«لقد أتيتُ طالبًا مساعدتك الفورية يا سيدي؛ لقد وقع أمر مريع للغاية. هناك جريمة قتل شنيعة قد وقعت. أيمكنك أن تأتيَ معي الآن؟»

قال ثورندايك: «سأكون معك بعد لحظات. هل تأكَّد موت الضحية؟»

«بالتأكيد. إن جسده بارد ومتصلِّب. وتعتقد الشرطة ...»

قاطعه ثورندايك: «هل تعرف الشرطة أنك أتيتَ إليَّ؟»

«أجل. ولن يُفعلَ شيء حتى وصولك.»

«رائع جدًّا. سأكون مستعدًّا في غضون دقائق قليلة.»

أضاف بولتون بنبرة مقنعة: «وإذا انتظرت بالأسفل يا سيدي، فسأساعد الدكتور على أن يستعدَّ على نحو أسرع.»

وبهذا الإغراء الماكر، أغرى بولتون ذلك المتطفِّل إلى العودة إلى حجرة الجلوس، وبعد ذلك ببرهة قصيرة صعد السلم بصينية صغيرة عليها طعام الإفطار، وقد أودع محتوياتِها في غرفتَينا في حزم مع قول بضع كلمات ملائمة عن حماقة «التعامل مع جرائم القتل على معدة فارغة». في تلك الأثناء كنت وثورندايك قد ارتدينا ملابسنا في سرعة لا يعرفها سوى ممارسي الطب والفنانين الذين يُغيِّرون مرارًا وبسرعة ملابسهم أثناء العروض التي يقدمونها، وفي غضون دقائق نزلنا على الدرج معًا، وذهبنا إلى المعمل لنأخذ بضع أدوات كان ثورندايك يأخذها معه في العادة أثناء ذهابه إلى التحقيق.

وحين دخلنا غرفة الجلوس، كان زائرنا يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بخطوات محمومة، وحين رآنا أمسك بقبعته في تعبير عن الارتياح. وسأل: «هل أنتما مستعدَّان للذهاب؟ عربتي عند الباب.» ومن دون أن ينتظر إجابة منا، هرع إلى الخارج وسبقنا على الدرج بخطوات كبيرة.

كانت العربة عربة كبيرة من نوع بروم، وقد اتسعت لحسن الحظ لثلاثتنا، وبمجرد أن دلفنا إليها وأغلقنا الباب، ضرب السائق على ظهر جواده بالسوط وانطلق بنا مسرعًا.

قال رفيقنا المنزعج: «من الأفضل أن أرويَ لكما بعض ملابسات الحادث بينما نحن في طريقنا. في البداية، اسمي كيرتس، هنري كيرتس؛ وها هي بطاقتي. آه! وها هي بطاقة أخرى، كان ينبغي عليَّ أن أُعطيَكما إياها أولًا. إن محاميَّ السيد مارشمونت كان معي حين اكتشفتُ تلك الحادثة المريعة، وقد أرسلني إليكما. وقد ظلَّ في المنزل ليحرص على عدم اختلال شيء حتى وصولكما.»

قال ثورندايك: «هذا من حكمته. لكن أخبِرْنا الآن بما حدث بالتحديد.»

قال السيد كيرتس: «سأفعل. القتيل هو نسيبي واسمه ألفريد هارتريدج، ويؤسفني القول إنه كان — في الواقع — رجلَ سوء. يحزنني أن أتحدث عنه بهذا الشكل — فلا بد من ذكر محاسن موتانا كما تعلمان — ولكن لا يزال علينا أن نتعامل مع الحقائق، حتى ولو كانت مؤلمة.»

وافقه ثورندايك قائلًا: «لا شك في ذلك.»

«كان بيني وبينه مراسلات كثيرة غير سارة — سيخبركما مارشمونت عنها — وتركتُ له البارحة رسالة أطلب منه فيها مقابلته لتسوية الأمور العالقة بيننا وقد حددتُ الثامنة من صباح اليوم موعدًا للقاء؛ لأنني يتحتم عليَّ أن أغادر المدينة قبل الظهر. وقد أجابني في رسالة غريبة للغاية بأنه سيُلاقيني في تلك الساعة، وقد وافق السيد مارشمونت بلطف شديد من جانبه على مرافقتي. ومن ثَم، ذهبنا إلى منزله معًا هذا الصباح، وقد وصلنا في موعدنا في الثامنة تمامًا. وضربنا الجرس عدة مرات وطرقنا الباب طرقًا عنيفًا، لكن حيث إننا لم نتلقَّ ردًّا، نزلنا وتحدثنا إلى الحارس. ويبدو أن ذلك الرجل كان قد لاحظ بالفعل من الفناء أن أنوار غرفة جلوس السيد هارتريدج كانت مضاءةً بالكامل كما كان الحال طوال الليل، وهذا طبقًا لشهادة الحارس الليلي؛ والآن وحين أصبحتْ لدينا شكوكٌ بأن هناك شيئًا ليس على ما يرام، صعد الرجل معنا ودقَّ الجرس وطرق الباب. ثم وحيث انعدمت أيُّ إشارة على وجود أي صوت بالداخل، أدخل الرجل نسخته من المفتاح في الباب وحاول أن يفتحه، لكن دون جدوى، حيث ظهر أن الباب موصد من الداخل. عندئذٍ استدعى الحارس شرطيًّا وبعد استشارته، قررنا بأن هناك ما يسوغ لنا كسر الباب؛ فأحضر الحارس عتلة وبتوحيد جهودنا فُتح الباب في النهاية. ثم دخلنا ويا إلهي! يا دكتور ثورندايك، يا لَه من منظر مريع ذلك الذي وقعت عليه أعيننا! كان نسيبي يرقد قتيلًا على أرضية غرفة الجلوس. لقد تمَّ طعنُه حتى الموت؛ ولم يتمَّ سحبُ الخنجر حتى من الجثة. كان الخنجر لا يزال مثبَّتًا في ظهره.»

ثم مسح الرجل وجهه بمنديله، وكان على وشك أن يُكمل حديثه عن تلك الفاجعة حين دخلت العربة إلى شارع جانبي هادئ بين وستمنستر وفيكتوريا، وتوقفتْ أمام مبنًى طويل وحديث مبنيٍّ بالطوب الأحمر. هبَّ الحارس القلِق ليفتح الباب، ونزلنا أمام المدخل الرئيسي للمبنى.

قال السيد كيرتس: «تقع شقةُ نسيبي في الطابق الثاني. يمكننا أن نستقل المصعد.»

كان الحارس قد أسرع أمامنا وكان يقف بالفعل ويدُه على الحبل. دخلنا المصعد وفي غضون ثواني قليلة نزلنا في الطابق الثاني وقد تَبِعَنا الحارسُ في فضول مختلس عبر الممر. وفي نهاية الممر، كان هناك باب نصف مفتوح به رضوض ومهشَّم إلى حدٍّ كبير. وفوق الباب كان هناك نقش «السيد هارتريدج» والذي كان مكتوبًا بحروف بيضاء، وعبر المدخل كانت تبرز ملامحُ المفتش بادجر الماكرة.

قال المفتش حين ميَّز صديقي: «يسرُّني قدومك يا سيدي. السيد مارشمونت يجلس في الداخل وكأنه كلب حراسة، وهو يزمجر في وجه أيٍّ منَّا إن حاول حتى السير عبر الغرفة.»

كانت كلماته تُشكِّل مجاملة، لكن كان هناك لطفٌ في أسلوب المتحدث جعلني أشكُّ أن المفتش بادجر كان يُبحر بسفينته على شاطئ مدابر للريح.

ثم دلفنا إلى ردهة أو صالة صغيرة، ومنها مررنا إلى غرفة الجلوس، حيث وجدنا السيد مارشمونت يراقب الوضع بصحبة شرطي ومفتش في زيٍّ رسميٍّ. نهض الرجال الثلاثة في هدوء حين دخلنا، وحيَّونا بأصوات هامسة؛ ثم نظرنا جميعًا نحو الطرف الآخر من الغرفة، وظللنا على وضعنا ذلك برهة من الوقت من دون أن نتحدث.

كان هناك في كافة جوانب الغرفة شيءٌ مخيفٌ وبغيض للغاية. ولفَّ جوٌّ من الغموض المأساوي الأشياء العادية؛ وكانت تكمن في أشكالها المألوفة إشارات مشئومة. وما كان مذهلًا على نحو استثنائي هو جوُّ التشويق الخاص بالحياة اليومية العادية التي توقفت فجأة وفي غمضة عين. إن المصابيح الكهربائية — والتي كانت لا تزال تتوهج بلون أحمر قاتم رغم أن أشعة شمس الصيف كانت تتسلَّلُ إلى داخل الغرفة عبر النوافذ — وكذا الكأس النصف ممتلئ والكتاب المفتوح بجوار الكرسي الفارغ، كان يشى كلٌّ منها في رسالة هامسة بالكارثة المفاجئة التي وقعت بسرعة، كما فعلت أصواتُ الرجال المنتظرين الهامسة وحركاتهم الخفيفة، وفوق كلِّ ذلك، الجثة التي تبعث على الرهبة المنبطحة على الأرض من دون حَراك بعد أن كانت قبل ساعات قليلة مفعمة بالحياة.

علَّق المفتش بادجر كاسرًا حاجزَ الصمت أخيرًا: «هناك شيء من الغموض، رغم أن الأمر واضح إلى حدٍّ معين، فالجثة تحكي قصَّتها بنفسها.»

سِرْنا عبر الغرفة وألقينا نظرة على الجثة. كانت لرجل متقدم في السن بعض الشيء، وممددة على مساحة مفتوحة من الأرضية أمام المدفأة ومنبطحة على وجهها بينما كانت الذراعان ممدودتَين. ويبرز من ظهر الرجل تحت كتفه الأيسر المقبض المستدق لأحد الخناجر، وكان ذلك الخنجر في ظهره هو الإشارة الوحيدة على الطريقة التي تُوفي بها الرجل، فيما عدا أثرًا لدماء على شفتيه. وليس ببعيد عن الجثة كان هناك مفتاحُ ساعةٍ ملقًى على السجادة، وبعد أن رمقت الساعة الموضوعة على رف المدفأة بنظرة سريعة، وجدتُ أن واجهتها الزجاجية كانت مفتوحةً.

ثم تابع المفتش حديثَه بعد أن لاحظ نظرتي إلى الساعة: «كما ترون، كان يقف أمام المدفأة يملأ الساعة، ثم تسلَّل القاتل من خلفه — ولا بد أن صوت المفتاح وهو يستدير

غطَّى على صوت حركات القاتل — ثم طعنه. ومن موضع الخنجر في الجانب الأيسر من الظهر، ترون أن القاتل لا بد وأنه كان أعسرَ. كلٌّ هذا واضح بما يكفي. ولكن ما ليس بواضح هو كيفية دخول القاتل وكيفية خروجه مرة أخرى.»

قال ثورندايك: «أعتقد أن الجثة لم يتمَّ تحريكُها.»

«لا. لقد أرسلنا إلى الدكتور إيجرتون وهو الطبيب الشرعي للشرطة، وقد أكد وفاة الرجل. وسيعود بعد قليل لمقابلتك وللترتيب بشأن التشريح.»

قال ثورندايك: «إذن لن نمسَّ الجثة حتى يعود، عدا أننا سنقيس درجة حرارتها وسننثر مادة مسحوقة على مقبض الخنجر.»

ثم أخرج من حقيبته ترمومترًا كيمائيًّا طويلًا ومنفاخًا أو نافث مسحوق. ووضع الأول تحت ملابس القتيل أمام بطنه، وبالثاني نفخ بعض المسحوق الأصفر الناعم على المقبض الجلدي الأسود للخنجر. وانحنى المفتش بادجر في حماسة ليتفقَّد مقبض الخنجر حين نفخ ثورندايك المسحوق الذي كان قد استقر بالتساوي على سطحه.

ثم قال في نبرة تنمُّ عن الإحباط: «لا توجد أيُّ بصمات. لا بد وأنه كان يرتدي قفازًا. لكن ذلك النقش يعطي إشارة واضحة للغاية.»

ثم أشار وهو يتحدث إلى الغطاء المعدني للخنجر والذي كانت منقوشة عليه بصورة غير متقنة كلمة واحدة وهي TRADITORE.

أكمل المفتش حديثه قائلًا: «هذه الكلمة هي المرادف الإيطالي لكلمة «خائن»، ولديَّ معلومات من الحارس تتناسب مع هذه الإشارة. سنُدخله بعد قليل، وستسمع منه.»

قال ثورندايك: «في تلك الأثناء، وحيث إن وضعية الجثة قد تكون ذات أهمية في التحقيق، سآخذ صورة أو اثنتين وسأرسم مخطَّطًا تقريبيًّا. أتقول إنه لم يتمَّ تحريكُ أيِّ شيء؟ مَن قام بفتح النوافذ؟»

قال السيد مارشمونت: «كانت مفتوحة حين دخلنا. كانت ليلة البارحة شديدة الحرارة، كما تتذكر. لم يتمَّ تحريكُ أيِّ شيء على الإطلاق.»

ثم أخرج ثورندايك من حقيبته كاميرا صغيرة قابلة للطي، وحاملًا تليسكوبيًّا ثلاثيَّ القوائم، وشريطَ قياس خاصًّا بالمساحين، ومقياسًا من خشب البقس، ومجموعة أوراق للرسم. ثم نصب الكاميرا في إحدى الزوايا، والتقط صورة آخذًا بذلك منظرًا شاملًا للغرفة متضمنًا الجثة. ثم تحرك إلى الباب والتقط صورة أخرى.

وقال: «هلَّا وقفتَ أمام الساعة يا جيرفس ورفعتَ يدك وكأنك تملؤها؟ أشكرك. احتفظ بوضعيتك هذه بينما ألتقط صورة.»

وظللت على تلك الوضعية التي يُعتقد بأن القتيل كان عليها لحظة مقتله بينما كان يتم التقاط الصورة، ثم وقبل أن أتحرك، وضع ثورندايك علامتين مكان موضع قدمي بطبشور أبيض. ثم نصب الحامل الثلاثي القوائم على العلامتين اللتين وضعهما بالطبشور، والتقط صورتين من ذلك الموضع، ثم التقط صورة للجثة نفسها.

وبعد أن انتهى من التصوير، شرع بعد ذلك بسرعة ومهارة رائعتين في رسم مخطط للغرفة على مجموعة أوراق الرسم، موضِّحًا موضع الأشياء المختلفة بدقة — بمقياس ربع بوصة للقدم الواحدة — وكانت تلك عملية راقبها المفتِّش بشيء من التململ.

وعلَّق المفتش قائلًا: «أنت لا تدخرُ أيَّ مجهود أيها الدكتور.» ثم أضاف وهو ينظر إلى ساعته نظرةً مطوَّلة: «ولا تضيعُ أيَّ وقت كذلك.»

رد عليه ثورندايك بينما كان يفصل الرسمة المنتهية من مجموعة أوراق الرسم: «لا. إنني أحاول أن أجمع كافة الحقائق التي قد تكون ذات صلة بالقضية. قد يتضح بعد ذلك أنها عديمة الجدوى، أو قد تكون بالغة الأهمية؛ لا يمكن أبدًا أن نعرف سلفًا؛ لذا فإنني أجمع كافة الحقائق. أعتقد أن الدكتور إيجرتون قد وصل.»

حيَّا الطبيب الشرعي ثورندايك في ودٍّ واحترام وشرعنا في الحال في فحص الجثة. ثم دوَّن صديقي درجة الحرارة بعد أن سحب الترمومتر، ومرَّرَه إلى الدكتور إيجرتون.

علَّق الأخير بعد أن رمقه بعينيه: «لقد قُتل قبل حوالي عشر ساعات مضت. إنها لَجريمةٌ غامضة وواضحة.»

قال ثروندايك: «هي كذلك. تحسَّسْ هذا الخنجر يا جيرفس.»

لمستُ المقبض، وشعرتُ بصوت فرقعة العظم المعروفة.

قلت متعجبًا: «إن الطعنة نافذة إلى حافة أحد الضلوع!»

«أجل؛ لا بد وأن سبب ذلك طعنة قوية للغاية. ولاحظ أن الملابس ملويَّة بعض الشيء، وكأن شفرة الخنجر قد تمَّ تدويرها وهي في طريقها إلى الداخل. تلك سمة غريبة للغاية، خاصة حين تقترن بعنف الطعنة.»

قال الدكتور إيرجتون: «إنها سمة فريدة بلا شك، لكنني لا أرى إن كانت ستُساعدنا كثيرًا. هل سنسحب الخنجر قبل أن نحرِّك الجثة؟»

أجاب ثورندايك: «بالتأكيد، وإلا فسيتسبب تحريكُ الجثة في جروح جديدة. لكن انتظر.» ثم أخرج خيطًا من جيبه، وبعد أن سحب الخنجر بضع بوصات قام بمدِّ الخيط بموازاة سطح النصل. ثم أعطاني طرفَي الخيط لأُمسك بهما وسحب السلاح بالكامل إلى

الخارج. وبينما كان النصل يخرج، اختفى الالتواء الذي كان في الملابس. وقال: «لاحظْ أن الخيط يُشير إلى اتجاه الجرح، وأن القطع في الملابس لم يَعُد يتماشى معه. هناك زاوية كبيرة بين هذا وذاك، وهذه الزاوية هي زاوية التفاف النصل.»

قال الدكتور إيجرتون: «أجل، هذا غريب، لكنني وكما قلت أشك أن هذا سيساعدنا.»

أدركه ثورندايك بنبرة جافة: «نحن نستخرج الحقائق في الوقت الحالي.»

وافقه الآخر وقد احمرَّ وجهُه بعض الشيء: «تمامًا، وربما من الأفضل أن ننقل الجثة إلى غرفة النوم ونفحص الجرح فحصًا مبدئيًّا.»

حملنا الجثة إلى غرفة النوم، وبعد أن فحصنا الجرح من دون أن نستنتج أيَّ معلومة جديدة، غطينا الجثة بملاءة وعُدْنا إلى حجرة الجلوس.

قال المفتش: «إذن أيها السادة، لقد فحصتم الجثة والجرح، وقمتم بقياس الأرضية والأثاث، والتقطتم الصور، ورسمتم مخططًا، لكن يبدو أننا لا نُحرز تقدُّمًا. لدينا رجل قُتل في شقته. وهناك مدخل واحد فقط إليها، وهذا المدخل كان موصدًا من الداخل في وقت وقوع الجريمة. وتقع النوافذُ على مسافة بضع وأربعين قدمًا من الأرض؛ ولا يوجد هناك مواسير لتصريف الأمطار بالقرب من أيٍّ منها؛ وتلك النوافذ مستوية مع الجدار ولا يوجد موطئُ قدمٍ على الجدار لأن تقف عليه ولو ذبابة. والمدفأة حديثة، ولا يوجد مساحة ولو حتى لقطة بحجم عادي تكفي لأن تتسلَّق عبر المدخنة. لذا فالسؤال الآن هو: كيف دخل القاتل وكيف خرج مرة أخرى؟»

قال السيد مارشمونت: «ومع ذلك، فإن الحقيقة تقول بأنه دخل، وأنه ليس هنا الآن؛ ومن ثَم فلا بد وأنه خرج؛ ومن ثَم فلا بد وأنه كان من الممكن بالنسبة له أن يخرج. وعلاوة على ذلك، لا بد وأنه كان من الممكن له أن يكتشف كيف يخرج.»

ابتسم المفتش بنوع من الحدة، لكنه لم يُجِب.

قال ثورندايك: «يبدو أن سياق الأحداث كالآتي: يبدو أن الضحية كان وحده؛ حيث ينعدم أيُّ أثر لشخص آخر معه في الغرفة، ولا يوجد سوى كأس واحد نصف ممتلئ على الطاولة. وكان الضحية يقرأ وهو جالس حين على ما يبدو لاحظ أن الساعة قد توقفت عند الثانية عشرة إلا عشر دقائق؛ فوضع كتابه على وجهه على الطاولة، ونهض ليملأ الساعة، وبينما كان يملؤها لقيَ حتفه.»

أضاف المفتش: «بفعل طعنة على يد رجل أعسر تسلَّل من خلفه على أطراف أصابعه.»

أومأ ثورندايك وقال: «يبدو الأمر كذلك. ولكن الآن لنستدعِ الحارس، ولنسمع ما سيقول.»

لم يكن من الصعب إيجاد الحارس، حيث كان في الواقع يشارك في تلك اللحظة في فحص للبناية من خلال صندوق الرسائل.

سأله ثورندايك حين دخل الرجل وبدا خجلًا بعض الشيء: «أتعرف مَن زار هذه الشقة ليلة أمس؟»

كانت إجابته: «لقد دخل وخرج كثيرون من البناية، لكن لا يمكنني أن أجزم إن كان أيٌّ منهم قد أتى لهذه الشقة أم لا. وقد رأيتُ الآنسة كيرتس وهي تدخل إليها عند التاسعة تقريبًا.»

صاح السيد كيرتس مذهولًا: «ابنتي! لم أكن أعلم ذلك.»

أضاف الحارس: «لقد غادرت بحلول التاسعة والنصف تقريبًا.»

سأل المفتش: «أتعرف سببَ مجيئها؟»

أجاب السيد كيرتس: «يمكنني أن أخمِّن.»

قاطعه السيد مارشمونت: «إذن لا تفعل. لا تُجب على أيِّ سؤال.»

قال المفتش: «أنت حذر بشدة يا سيد مارشمونت؛ نحن لا نشك بالسيدة الشابة. نحن لا نسأل على سبيل المثال إن كانت عسراء.»

ثم رمق السيد كيرتس بنظرة ماكرة وهو يُدلي بذلك التعليق، ولاحظتُ أن موكلنا أصبح شاحب اللون فجأة، في حين أشاح المفتش بنظره بعيدًا عنه بسرعة، وكأنه لم يلحظ ذلك التغيير عليه.

ثم قال وهو يوجِّه حديثه للحارس: «أخبرْنا عن أولئك الإيطاليين مرة أخرى. متى جاء أولهم إلى هنا؟»

أجاب الرجل: «قبل أسبوع تقريبًا. كان رجل مظهره عادي — والذي بدا وكأنه عازف أرغن يدوي — وقد جاء برسالة إلى مكتبي. كانت الرسالة في ظرف قذر، ومعنونة بـ «إلى المحترم السيد هارتريدج. بناية براكينهيرست»، وكان ذلك بخطِّ يدٍ سيِّئ للغاية. أعطاني الرجل الرسالة ثم طلب مني أن أعطيَها للسيد هارتريدج؛ ثم مشي، وأخذتُ الرسالة ووضعتُها في صندوق البريد.»

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

«في اليوم التالي جاءت عجوز إيطالية — إحدى تلك الحقيرات من قارئات الطالع ومعها قفص به طيور موضوع على حامل — ووقفتُ أمام البوابة الرئيسية. وسرعان ما طردتُها لكنها عادت من جديد بعد عشر دقائق ومعها الطيور. ثم طردتُها مرة أخرى، وظللتُ أطردها وتعود هي من جديد، حتى أعياني فعلُ ذلك.»

علَّق المفتش مبتسمًا وهو يرمق كرش الرجل البارز: «يبدو أنك اكتسبت بعض الوزن منذ ذلك الحين.»

أجاب الحارس باستنكاف قائلًا: «ربما. وفي اليوم التالي لذلك كان هناك بائع مثلجات، وكان من النوع الذي يبيع بضاعة رديئة. كان الرجل واقفًا بالخارج وكأنه متجمد على الرصيف. وقد ظلَّ يُعطي عينات للأولاد العاملين في المتاجر ليتذوَّقوها، وحين حاولتُ أن أُبعدَه طلب مني ألَّا أقاطعَ عمله. ويا لَه من عمل بالفعل! وهكذا كان الأولاد يتراصُّون واحدًا تلو الآخر ويلعقون قيعان الملاعق الزجاجية بألسنتهم حتى تفاقم غضبي. وظل الرجل يُزعجني بفعله طوال اليوم.

وفي اليوم التالي لذلك كان هناك رجلٌ يبدو كالقرد الأجرب ومعه أرغن يدوي. وكان هذا هو الأسوأ بينهم. وكان كافرًا أيضًا؛ فقد ظل يخلط بين الترانيم المقدَّسة والأغاني الهزلية: «روك أوف إيدجز» و«بيل بايلي» و«كوجوس أنيمال» و«أوفر ذا جاردن وول.» وحين حاولتُ أن أُبعدَه، هرع ذلك القرد الصغير الفاسد إلى ساقي؛ ثم ابتسم وراح يعزف «ويت تيل ذا كلاودز رول باي.» وقد كان ذلك مقززًا للغاية.»

ومسح الرجل على جبينه حين تذكَّر ذلك، وابتسم المفتش تقديرًا لما عاناه.

قال المفتش: «وهل كان هذا هو آخرهم؟» وبينما أومأ الحارس إيجابًا وهو عابس، سأله: «هل تستطيع التعرف على الرسالة التي أعطاك إياها الرجل الإيطالي؟»

أجابه الحارس في احترام بارد: «أجل، أستطيع.»

أسرع المفتش إلى خارج الغرفة وعاد بعد دقيقة ومعه صندوق رسائل في يده.

وقال وهو يضع الصندوق المنتفخ على الطاولة ويسحب كرسيًّا: «كان هذا في جيب صدره، والآن هناك ثلاثة رسائل مربوطة معًا. آه! هذه هي.» ثم فك الشريط، وأخرج ظرفًا متسخًا معنونًا بخطٍّ يدٍ سريعة وأمية: «إلى المحترم السيد هارتريدج.» ثم قال: «أهذه هي الرسالة التي أعطاك إياها الرجل الإيطالي؟»

تفحَّصها الحارس بدقة. وقال: «أجل، إنها هي.»

سحب المفتش الرسالة خارج الظرف وبينما كان يفتحها، ارتفع حاجباه من الذهول.

ثم قال وهو يسلم الورقة إلى ثورندايك: «ما رأيك أيها الدكتور؟»

نظر إليها ثورندايك في صمت برهة من الوقت، وكان يركز تركيزًا عميقًا. ثم حملها نحو النافذة، وبعد أن أخرج عدسته من جيبه فحص الورقة عن كثب في البداية بالعدسة قليلة قدرة التكبير، ثم بعدسة كودينجتون ذات قدرة التكبير العالية.

وقال المفتش وهو يبتسم إليَّ ابتسامة خبيثة: «كنت أظن أنك ستستطيع رؤية ذلك بعينك المجردة. إنه تصميم واضح إلى حدٍّ كبير.»

أجاب ثورندايك: «أجل، إنه إنتاج مثير جدًّا للاهتمام. ما رأيك أيها السيد مارشمونت؟»

أخذ المحامي الرسالة ونظرتُ أنا إليها من فوق كتفه. كان ما فيها مثيرًا للفضول. كانت الرسالة التالية مكتوبةً بحبر أحمر على أكثر أنواع الورق شيوعًا، وكانت الكتابة سريعة بنفس سرعة الخط المكتوب به العنوان: «لديك مهلة ستة أيام لفعل ما هو صائب. ومن خلال العلامة بعاليهِ، اعرف ما ينبغي أن تتوقعه إذا لم تفعل ذلك.» وكانت العلامة المشار إليها هي جمجمة وعظمتان متقاطعتان، وكانت مرسومة بوضوح ولكن ليس بمهارة، وكانت مرسومة في الجزء العلوي من الورقة.

قال السيد مارشمونت وهو يسلِّم الورقة إلى السيد كيرتس: «يفسِّر هذا سبب الرسالة الغريبة التي كتبها إليك بالأمس. إنها معك، أليس كذلك؟»

أجاب السيد كيرتس: «بلى، ها هي.»

ثم أخرج من جيبه رسالةً وقرأ بصوتٍ عالٍ:

> أجل، تعالَ إذا ما أردت، رغم أنها ساعة غريبة للغاية. رسائل التهديد منك مسلية جدًّا بالنسبة لي. إنها تستحق أن تُعرض على مسرح سادلرز ويلز في عروضه الرئيسية.
>
> ألفريد هارتريدج

سأله المفتش بادجر: «هل ذهب السيد هارتريدج إلى إيطاليا من قبل؟»

أجابه السيد كيرتس: «أوه، أجل. لقد مكث في كابري تقريبًا طوال العام المنصرم.»

«إذن هذا يُعطينا مؤشرًا. انظر. هاتان هما الرسالتان الأخريان؛ العلامة البريدية الخاصة بإي سي — سافرون هيل هو إي سي. وانظر إلى ذلك.»

وأخرج آخر رسالة من الرسائل الغريبة ورأينا أنه بجانب المومنتو موري التي هي عبارة عن صورة جمجمة وعبارة «تذكر الموت» باللاتينية، كانت الرسالة تحتوي على ثلاث كلمات فقط: «احذر! تذكَّر كابري!»

«إذا ما انتهيت أيها الدكتور، فسأخرج وأُلقي نظرة في أرجاء «إيطاليا الصغيرة». لا ينبغي أن يكون إيجادُ هؤلاء الإيطاليين الأربعة أمرًا صعبًا، ولدينا الحارس هنا ليتعرف عليهم.»

«قبل أن تذهب، هناك مسألتان صغيرتان أريد أن نحسمهما. المسألة الأولى هي الخنجر؛ أعتقد أنه في جيبك. هل لي بأن أُلقيَ نظرة عليه؟»

أخرج المفتش الخنجر من جيبه مرغمًا وسلَّمه إلى صديقي.

قال ثورندايك وهو ينظر إلى الخنجر بإمعان: «إنه سلاح فريد للغاية.» وراح يقلبه لينظر في أجزائه المختلفة. «إنه فريد في شكله والمادة المصنوع منها. لم أرَ من قبل مقبضًا من الألومنيوم، والجلد المغربي غريب بعض الشيء.»

قال المفتش: «يستخدم الألومنيوم من أجل خفة الوزن، وأتوقع أنه صُنع رفيعًا ليُحمل في حامل الذراع الخاص به.»

قال ثورندايك: «ربما.»

ثم استمر في فحصه للخنجر، ثم أخرج عدسة من جيبه مما أبهج المفتش.

وقال المفتش المرح: «لم أرَ في حياتي رجلًا مثله! ينبغي أن يكون شعاره: «نحن نكبِّركم.» أعتقد أنه سيقيس الخنجر في الخطوة التالية.»

ولم يكن المفتش مخطئًا، فبعد أن رسم ثورندايك السلاح رسمًا تقريبيًّا في ورق الرسم الخاص به، أخرج من حقيبته مسطرةً قابلة للطي ومقياسًا دقيقًا. ثم شرع بهذه الأدوات في قياس أبعاد أجزاء الخنجر المختلفة بعناية ودقة فائقتَين ثم أدخل كلَّ قياس في مكانه على الرسم مع تدوين بعض التفاصيل الوصفية الموجزة.

ثم قال بعد برهة وهو يُعيد الخنجر إلى المفتش: «المسألة الأخرى تتعلق بالمنازل المقابلة.»

ثم سار نحو النافذة ونظر خارجها إلى الجزء الخلفي من صفٍّ من المباني الطويلة المشابهة للمبنى الذي كنا فيه. كانت المباني الأخرى على بُعد ثلاثين ياردة تقريبًا، وكانت تفصلُ بيننا وبينها قطعةُ أرض مزروعة بشجيرات وبها مسارات متقاطعة من الحصى.

أكمل ثورندايك حديثه قائلًا: «إذا كانت أيُّ شقة من هذه الشقق مشغولةً ليلة أمس، فقد نحصل على شاهد عيان على الجريمة. لقد كانت هذه الغرفة مضاءةً إضاءةً براقة، وكانت كلُّ الستائر مفتوحة؛ لذا فإن أيَّ شخص كان يُشاهد الغرفة من أيٍّ من هذه النوافذ سيستطيع أن يرى ما بداخل الغرفة وبوضوح شديد أيضًا. قد يكون من المجدي أن ننظرَ في هذا الأمر.»

قال المفتش: «أجل، هذا صحيح. لكنني أتوقع إن كان أيٌّ منهم قد رأى شيئًا أنه سيتقدم سريعًا بما يكفي حين يقرأ الأخبار في الصحف. لكن ينبغي أن أذهب الآن، وسينبغي عليَّ أن أُخرجَكم من هنا.»

وفيما كنا ننزل الدرج، أعلن السيد مارشمونت عن نيته زيارتنا في المساء وأضاف: «إلا إذا كنتما تريدان أيَّ معلومات مني الآن.»

قال ثورندايك: «أجل، أنا أريد ذلك. أريد أن أعرف مَن المستفيد من موت هذا الرجل.»

أجاب مارشمونت: «هذه قصة غريبة. لننعطف إلى تلك الحديقة التي رأيناها من النافذة. سنتمتع ببعض الخصوصية هناك.»

ثم أشار إلى السيد كيرتس بالانتظار وحين غادر المفتش مع الطبيب الشرعي، استطعنا إقناع الحارس أن يُدخلنا إلى الحديقة.

بدأ السيد مارشمونت حديثه وهو ينظر للأعلى في فضول نحو المنازل العالية المقابلة قائلًا: «السؤال الذي طرحتَه إجابتُه في غاية البساطة. إن الشخص الوحيد المستفيد استفادة مباشرة من موت ألفريد هارتريدج هو منفذ وصيته ووارثه الوحيد، وهو رجل يُدعى ليونارد وولف. وهو ليس قريبًا للقتيل، إنما هو مجرد صديق له، لكنه يرث التركة كلَّها — وهي تُقدَّر بحوالي عشرين ألف جنيه — والملابسات هي كالآتي: كان ألفريد هارتريدج لديه أخ، وكان هو أكبر من أخيه، وكان الأخ الأصغر هو تشارلز وقد مات قبل وفاة والده، تاركًا أرملة وثلاثة أبناء. وقبل خمس عشرة سنة تُوفي الأب تاركًا كلَّ ما يملك إلى ألفريد، وكان يعتقد أنه سيُعيل أسرة أخيه وسيجعل من أبنائه ورثة له.»

سأله ثورندايك: «ألم يكن هناك وصية؟»

«تحت ضغط شديد من أصدقاء أرملة ابنه، كتب الرجل العجوز وصية له قبل وفاته بوقت قصير؛ لكنه حينها كان طاعنًا جدًّا في السن ويتصرف بطريقة طفولية؛ لذا طعن ألفريد في الوصية على أساس التأثير غير المشروع، وفي النهاية تم إلغاء الوصية. ومنذ ذلك الحين لم يدفع ألفريد هارتريدج أيَّ بنس في سبيل إعالة أسرة أخيه. ولولا موكلي السيد كيرتس، لكانوا قد ماتوا من شدة الجوع؛ لقد أخذ على عاتقه بالكامل إعالة الأرملة وتعليم الأبناء.

ومؤخرًا اتخذتِ الأمورُ منحًى خطيرًا لسببين. السبب الأول هو أن الابن الأكبر لتشارلز وهو إدموند قد بلغ سنَّ الرشد. وقد عيَّنه السيد كيرتس لدى محامٍ، وبما أنه الآن مؤهل على أكمل وجه وحصل على فرصة شراكة رائعة بينه وبين هذا المحامي، فقد كنا نضغط على ألفريد لتقديم رأس المال اللازم بما يتفق مع رغبة والده. وقد رفض فعل ذلك، وكنا سنزوره هذا الصباح بخصوص هذا الأمر. أما السبب الثاني فيشتمل على قصة غريبة ومشينة. هناك شخص يُدعى ليونارد وولف وقد كان صديقًا حميمًا للقتيل. وقد يصح القول حين أقول إنه رجل ذو شخصية سيئة، وكانت علاقتهما مؤذية لهما هما الاثنان.

وكان هناك أيضًا امرأة تُدعى هيستر جرين، وكان لها مزاعمُ معينةٌ بحق القتيل، والتي نحن في غنًى عن الخوض في تفاصيلها الآن. والآن أبرم ليونارد وولف والقتيل ألفريد هارتريدج اتفاقًا وكان شرطاه هما: أن يتزوج وولف من هيستر جرين، وأن يهبَ له ألفريد هارتريدج في المقابل كلَّ ما يملكه، على أن تتحول الملكية له بعد وفاة هارتريدج.»

سأله ثورندايك: «وهل تم هذا الاتفاق؟»

«أجل، لسوء الحظ. لكننا كنا نأمل أن نجدَ شيئًا يمكن أن نفعله لصالح الأرملة والأبناء أثناء فترة حياة هارتريدج. لا شك أن ابنة موكلي — الآنسة كيرتس — قد أتتْه ليلة أمس في مهمة مشابهة — وهو تصرُّفٌ أحمق للغاية، حيث إن المسألة كانت في أيدينا؛ لكن يجب أن تعرف أنها مخطوبة لإدموند هارتريدج — وأتوقع أن المقابلة كانت عاصفة جدًّا.»

ظل ثورندايك صامتًا لبرهة، وراح يسير ببطء على طول الممر المصنوع من الحصى، وكانت عيناه مثبتتين على الأرض، ليس بشكل تجريدي، بل بنظرات فاحصة يقظة تتنقل بين الشجيرات والجنبات، وكأنه يبحث عن شيء ما.

ثم سأل قائلًا: «لأي نوع من الرجال ينتمي ليونارد وولف هذا؟ من الواضح أنه نذل وضيع، لكن كيف هو مِن مناحٍ أخرى؟ أهو أحمق على سبيل المثال؟»

قال السيد كيرتس: «على الإطلاق. أعتقد أنه كان فيما مضى مهندسًا، وهو مهندس ميكانيكي بارع بشدة. ومؤخرًا، كان يعيش على أموالٍ أتتْه، وقد أمضى وقته وأنفق أمواله في المقامرة والتهتك. ومن ثَم فإنني أتوقع أنه يعاني من مشاكل مالية في الوقت الراهن.»

«وكيف هو مظهره؟»

أجاب السيد كيرتس: «لم أرَه سوى مرة واحدة، وكل ما يمكنني أن أتذكَّرَه هو أنه قصيرٌ بعض الشيء، وحسنُ المظهر ونحيلٌ وحليقُ الذقن، وأنه فقد إصبعه الأوسط في يده اليسرى.»

«وأين يعيش؟»

قال السيد مارشمونت: «إلتام، في كِنت. في مورتون جرانج في إلتام. والآن إن كنتَ قد حصلتَ على كل المعلومات التي طلبتَها، فينبغي عليَّ أن أنصرف وكذلك السيد كيرتس.»

صافحَنا الرجلان وأسرعَا في طريقهما، تاركين ثورندايك يُحدِّق بإمعان في أحواض الزهور المغبرة.

قال ثورندايك وهو ينحني لينظر تحت شجيرة إكليل غار: «إنها قضية غريبة ومثيرة يا جيرفس. إن المفتش يتبع أحد الخيوط بقوة، وهي وسيلةُ إلهاءٍ واضحة للغاية؛ لكن

هذا هو شأنه. آه، ها قد أتى الحارس، ولا شك أنه ينوى أن يُخرجنا، بينما ...» ثم ابتسم بحرارة إليه وهو يقترب وسأله: «أين هي واجهة هذه المباني؟»

أجابه الحارس: «شارع كوتمان يا سيدي. إنها كلَّها شققٌ مكتبية تقريبًا.»

«وماذا عن أرقامها؟ ما على سبيل المثال رقم المبنى الذي به تلك النافذة المفتوحة التي في الطابق الثاني؟»

«هذا رقم ستة؛ لكن رقم المبنى المقابل للمبنى الذي به شقة السيد هارتريدج هو ثمانية.»

«شكرًا لك.»

كان ثورندايك يتحرك بعيدًا عنه حين استدار ثانية فجأة نحو الحارس.

وقال: «بالمناسبة، لقد سقط مني شيءٌ من النافذة، إنها قطعة معدنية صغيرة ومسطحة، كهذه.» ثم رسم على ظهر بطاقة زيارته رسمةً متقنة لقرص دائري به ثقبٌ مسدَّس الشكل، وأعطى البطاقة للحارس. واستطرد قائلًا: «لا أعرف أين سقطت مني، تلك الأشياء تتدحرج بسرعة؛ لكن يمكنك أن تطلب من البستاني أن يبحث عنها. سأعطيه جنيهًا إذا ما أحضرها إلى منزلي؛ ذلك أنها ورغم أنها غير ذات فائدة لأي أحد، فإنها ذات قيمة كبيرة لي.»

لمس الحارس قبعتَه في حماسة ونشاط تحيةً لنا، وفيما خرجنا من البوابة، نظرتُ خلفي ووجدت الرجل يخوض بالفعل بين الشجيرات.

ظللت أفكر لفترة طويلة فيما يبحث عنه الحارس. أنا لم أرَ ثورندايك يُسقط أيَّ شيء، ولم يكن من شِيَمه أن يلهوَ بأي شيء ذي قيمة لديه. وكنتُ على وشك أن أسأله عن الأمر حين استدار بحدة نحو شارع كوتمان وتوقف أمام مدخل البناية رقم ستة، وبدأ يقرأ بعناية أسماء المقيمين فيها.

وقرأ بصوت عالٍ: «الطابق الثالث، السيد توماس بارلو، وكيل تجاري. هممم! أعتقد أننا سنتفقَّد السيد بارلو.»

ثم خطَا خطوات سريعة على الدرج الحجري وتبعتُه حتى وصلنا إلى الطابق الثالث ونحن نلهث بعض الشيء. وخارج باب شقة الوكيل التجاري توقف ثورندايك للحظة، وتسمَّعنا بفضول إلى صوت أقدام متقطع يأتي من الداخل. ثم فتح الباب في هدوء ونظر إلى داخل الشقة. وبعد أن ظل هكذا لدقيقة تقريبًا، نظر إليَّ بابتسامة عريضة وفتح الباب على مصراعيه من دون أن يُحدثَ أيَّ صوت. وفي الداخل، كان هناك فتًى طويلٌ وهزيل

في الرابعة عشر تقريبًا وكان يتدرَّب من دون مهارة منه على اللعب بلعبة تعرف باسم الديابولو؛ وكان الفتى منهمكًا فيما يقوم به حتى إننا دخلنا من الباب وأغلقناه من دون أن يلحظَ ذلك. وبعد برهةٍ أخطأتِ البكرةُ السقوط على الحبل وطارت إلى سلة مهملات ورقية كبيرة؛ فاستدار الفتى ليجد نفسه أمامنا، فاعتراه الارتباك فجأة.

قال ثورندايك: «اسمح لي.» وأخذ ينقِّب إلى حدٍّ ما من دون مبرر في سلة المهملات الورقية، ثم أعطى اللعبة لصاحبها. ثم أضاف: «لستُ في حاجة لأن أسأل إن كان السيد بارلو موجودًا أو إن كان سيعود عما قريب.»

قال الفتى وهو يتعرَّق من الحرج: «لن يعود اليوم، وقد غادر قبل أن آتيَ. لقد تأخرتُ بعض الشيء.»

قال ثورندايك: «أفهم ذلك. الطائر المبكِّر يلتقط الدودة، أما المتأخر فيتسنَّى له اللعب بالديابولو. كيف عرفتَ أنه لن يأتيَ؟»

«لقد ترك لي رسالة. ها هي.»

ثم أظهر الورقة، والتي كانت مكتوبةً بحبر أحمر وبخط منمَّق. فحصها ثورندايك بإمعان ثم سأله:

«هل كسرتَ المحبرة بالأمس؟»

حدَّق الفتى به في ذهول. وأجابه: «أجل فعلتُ. كيف عرفتَ؟»

«لم أعرف، أو ربما لم يكن ينبغي لي أن أسأل. لكن أرى أنه استخدم قلمه ليكتب هذه الرسالة.»

نظر الفتى إلى ثورندايك في ريبة بينما أكمل الآخر:

«لقد أتيتُ لأرى إن كان السيد بارلو هو الرجل الذي كنت أعرفه؛ لكنني أعتقد أنه بإمكانك أن تُخبرني. كان صديقي طويلًا ونحيلًا، داكن البشرة وحليق الذقن.»

قال الفتى: «ليس هو إذن. السيد بارلو نحيلٌ لكنه ليس طويلًا ولا داكنَ البشرة. إن لحيته رملية اللون ويرتدي نظارة ويضع شعرًا مستعارًا. أنا أعرف الشعر المستعار من مجرد النظر إليه.» ثم أضاف بنبرة ماكرة: «لأن أبي يضع شعرًا مستعارًا، وهو يعلقه على المسمار لكي يمشطَه؛ ويسبُّني حين أضحك عليه.»

فأدركه ثورندايك قائلًا: «لقد جرح صديقي يده اليسرى.»

قال الفتى: «لا أعرف شيئًا عن ذلك، فالسيد بارلو يرتدي القفاز على نحو شبه دائم؛ ودائمًا ما يرتدي واحدًا في يده اليُسرى على أيِّ حال.»

«آه، حسنًا! سأترك له رسالة الآن، إذا أحضرتَ لي ورقة. ألديك حبر؟»

«هناك البعض منه في الزجاجة. سأغطس القلم في الحبر لأجلك.»

توجَّه الفتى إلى الخزانة وأخرج منها مجموعة من أوراق الكتابة الرخيصة ومجموعة مشابهة من المظاريف، وبعد أن غطَّس القلم في أسفل زجاجة الحبر، أعطاه لثورندايك الذي جلس ودوَّن بسرعة رسالة قصيرة. ثم طوى الورقة، وكان على وشك أن يعنون المظروف حين بدا أنه غيَّر رأيه فجأة.

قال وهو يدسُّ الورقة المطوية في جيبه: «لا أعتقد أنني سأترك هذه الرسالة. لا. أخبر السيد بارلو أنني — السيد هوراس بادج — قد أتيتُ وقُل له إنني سأعرج عليه مرة أخرى في خلال يوم أو اثنين.»

راقب الفتى خروجنا في ارتباك وحيرة، وحتى إنه أتى إلى بسطة الدرج من أجل أن ينظر إلينا من فوق الدرابزين؛ حتى وقعت عينُه في عين ثورندايك على نحو غير متوقع، فسحب الفتى رأسَه بصورة مفاجئة ملحوظة وانسحب وهو في حالة اضطراب.

وفي الحقيقة، لم أكن في حيرة أقل من الفتى عامل المكتب بما فعل ثورندايك؛ ذلك أنني لم أجد فيما فعل صلة بالتحقيق الذي أفترض أنه كان يعمل عليه، والقشة الأخيرة التي أضافها إلى شعوري بالفضول الشديد كانت حين توقف عند نافذة على الدرج وأخرج الورقة من جيبه وفحصها بعدسته ورفعها في مقابل الضوء وضحك بصوت عالٍ.

ثم علَّق قائلًا: «من اللطيف أن تكون محظوظًا، رغم أن الحظ لا يُشكِّل بديلًا للحرص والذكاء. حقًّا يا صديقي الخبير، نحن نُبلي بلاءً حسنًا على نحو استثنائي.»

وحين وصلنا إلى الردهة، توقف ثورندايك عند مقصورة مدبر البناية ونظر إلى داخلها وأومأ إلى الرجل محيِّيًا إياه.

وقال: «نزلتُ لتوي من عند السيد بارلو. ويبدو أنه غادر مبكرًا.»

رد عليه الرجل: «أجل يا سيدي. لقد خرج عند الثامنة والنصف تقريبًا.»

«كان هذا مبكرًا للغاية؛ وأفترض أنه جاء في وقت أبكر، أليس كذلك؟»

أجابه الرجل مصدِّقًا على كلامه بابتسامة: «أعتقد ذلك، لكنني كنت قد وصلت لتوِّي حين غادر.»

«أكان معه أيُّ حقائب؟»

«أجل يا سيدي. كانت معه حقيبتان، إحداهما مربعة الشكل والأخرى طويلة وضيقة الحجم، طولها في حدود خمس أقدام. وقد ساعدته في حملهما إلى عربة الأجرة.»

«أعتقد أنها كانت رباعية العجلات، أليس كذلك؟»

«بلى سيدي.»

سأله ثورندايك: «السيد بارلو ليس هنا منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟»

«نعم. لقد وصل إلى هنا في أول يوم في ربع السنة الماضي، أي قبل حوالي ستة أسابيع.»

«آه، حسنًا! سأعرج عليه في يوم آخر. طاب صباحُك.» ثم خرج ثورندايك من البناية وتوجه مباشرة إلى موقف عربات الأجرة في الشارع المجاور. وهناك توقف لدقيقة أو اثنتين من أجل أن يتحدث مع أحد سائقي عربات الأجرة الرباعية العجلات، وفي النهاية طلب منه أن يوصلنا إلى متجر في شارع نيو أكسفورد. وبعد أن صرف سائق الأجرة بتحيته وبنصف جنيه، اختفى داخل المتجر تاركًا إياي وأنا أستعرض المخاريط والمثاقيب والقضبان المعدنية المعروضة في النافذة. وبعد برهة خرج من المتجر ومعه طردٌ صغير وقال لي ردًّا على نظرتي المتسائلة: «شريط من صُلب العِدد وكتلة معدنية من أجل بولتون.»

وكانت عملية شرائه التالية أكثر غرابة إلى حدٍّ كبير. كنا نسير في شارع هولبورن حين لفتت انتباهَه فجأةً نافذةُ متجر أثاث تعرض مجموعةً من الأسلحة الفرنسية الصغيرة القديمة — وهي آثار من مأساة عام ١٨٧٠ — والتي تباع لأغراض الديكور. وبعد فحص سريع، دخل المتجر وسرعان ما خرج وهو يحمل حربة طويلة على شكل سيف وبندقية شاسبوت قديمة.

سألته ونحن نستدير إلى شارع فيتر لين: «ماذا يمكن أن يكون المغزى من هذا العرض العسكري؟»

أجابني على الفور: «لحماية المنزل. ستقرُّ بأن طلقة من البندقية تتبعها هجمةٌ بالحربة كافيةٌ لصدِّ أجرأ اللصوص.»

ضحكتُ من الصورة الغريبة التي رسمها صديقي على هذا النحو لحارس المنزل الدءوب، لكنني ظللتُ أفكر في معنى ما يقوم به صديقي من تصرفات غريبة، والتي كنتُ متأكدًا من أنها ذات صلة بطريقة ما بالجريمة التي وقعت في بناية براكينهيرست، لكنني لم أستطع أن أرى تلك الصلة.

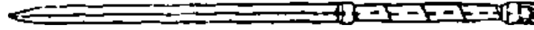
وبعد غداء متأخر، خرجتُ لكي أقومَ ببعض الأعمال التي قطعَتْها أحداثُ هذا الصباح المثيرة، تاركًا ثورندايك وهو مشغولٌ مع لوحٍ للرسم، ومقياسِ زاوية قائمة ومقياسٍ عاديٍّ

وبرجَل، وكان يرسم رسوماتٍ دقيقة بقياسات محددة من رسوماته التقريبية؛ بينما كان بولتون يُمسك بالطرد المغطى بالورق البُنِّيِّ في يده وينظر إليه في جوٍّ من الترقب والتلهف.

وكنتُ في طريقي إلى المنزل في المساء سالكًا شارع ميتر كورت حين لقيتُ السيد مارشمونت، والذي كان في طريقه أيضًا إلى منزلنا فسِرْنا معًا.

قال لي: «وصلتني رسالة من ثورندايك يطلب مني فيها عينةً من خط يد؛ لذا فكرتُ في أن أُحضرَها بنفسي وأرى إن كان هناك أيُّ جديد.»

وحين دخلنا إلى المنزل وجدنا ثورندايك في نقاش حماسي مع بولتون، وعلى الطاولة أمامهما لاحظتُ الخنجر المستخدم في ارتكاب الجريمة، مما أثار دهشتي بشدة.



الخنجر ذو المقبض الألومنيوم.

قال مارشمونت: «لقد أحضرتُ لك عينةَ خطِّ اليد التي طلبتَها. لم أكن أعتقد أنني سأستطيع فعل ذلك، لكن ومن حسن الصدفة أن كيرتس احتفظ بالرسالة الوحيدة التي تلقَّاها من الطرف المعنيِّ.»

ثم أخرج الرسالة من محفظته وأعطاها إلى ثورندايك، الذي نظر إليها بدوره بعناية وبارتياح واضح.

قال مارشمونت وهو يُمسك بالخنجر: «بالمناسبة، كنت أعتقد أن المفتش أخذ هذا معه.»

أجابه ثورندايك: «لقد أخذ الأصلي معه. هذه نسخة مطابقة منه أعدَّها بولتون من خلال رسوماتي لأغراض تجريبية.»

صاح مارشمونت متعجبًا وهو ينظر إلى بولتون بإعجاب واحترام: «حقًّا! إنها نسخة مطابقة تمامًا، وقد صنعتُها بسرعة كبيرة أيضًا.»

قال بولتون: «من السهل فعل ذلك بالنسبة لرجل اعتاد على العمل مع المعادن.»

أضاف ثورندايك: «وهذه حقيقة ذات قيمة إثباتية.»

في تلك اللحظة توقفت عربةُ أجرة بالخارج. وبعد دقيقة سمعنا صوتَ خطوات سريعة على الدرج. وكان هناك طَرْقٌ عنيف على الباب وحين فتحه بولتون، اندفع السيد كيرتس بقوة إلى داخل الحجرة.

وقال لاهثًا: «لقد حدث شيءٌ مريع يا مارشمونت! إديث — ابنتي — أُلقيَ القبض عليها بسبب جريمة القتل. جاء المفتش بادجر إلى منزلنا وأخذها. يا إلهي! سيجنُّ جنوني!»

وضع ثورندايك يدَه على كتف الرجل المهتاج. وقال له: «لا تجزعْ يا سيد كيرتس. ليس هناك داعٍ لذلك، أؤكد لك.» ثم أضاف: «أعتقد أن ابنتك عسراء؟»

«أجل، هي عسراء، ويا لَها من مصادفة مشئومة! ولكن ماذا سنفعل؟ يا إلهي! يا دكتور ثورندايك، لقد أخذوها إلى السجن — إلى السجن — أتتخيل؟! عزيزتي إديث المسكينة!»

قال ثورندايك: «سرعان ما سنُخرجها. لكن اسمعوا؛ هناك شخصٌ ما بالباب.»

وجاء صوتُ أقدام سريعة يؤكد ما قال؛ وحين نهضتُ لأفتح الباب، وجدتُ نفسي في مواجهة المفتش بادجر. ساد إحساسٌ بالحرج الشديد للحظة، ثم عرض كلٌّ من المفتش والسيد كيرتس الانسحابَ لصالح الطرف الآخر.

قال ثورندايك: «لا تذهب أيها المفتش، أريد أن أُحدِّثَك. ربما سيُعرِّج علينا السيد كيرتس مرة أخرى، لنَقُل، بعد ساعة من الآن. هلَّا فعلتَ؟ ستكون هناك أخبارٌ جديدة بخصوصك حينها، كما آمل.»

وافق السيد كيرتس على عجل وخرج من الشقة باندفاعه المعهود. وحين ذهب، التفت ثورندايك إلى المفتش وعلَّق بنبرة جافة قائلًا:

«يبدو أنك كنت مشغولًا، أيها المفتش؟»

أجابه بادجر: «أجل، أنا لا أتوانى في عملي؛ ولديَّ دلائلُ قويةٌ ضد الآنسة كيرتس. كانت هي آخرَ شخص تمَّتْ رؤيته بصحبة القتيل؛ ولديها مظلمة ضده؛ وهي عسراء، وأنت تتذكر أن من ارتكب الجريمة شخصٌ أعسر.»

«هل هناك ما تريد إضافته؟»

«أجل. لقد قابلتُ أولئك الإيطاليين، وكان الأمرُ كلُّه عمليةً مدبرة. جاءت إليهم امرأة ترتدي رداءً وغطاءً للرأس تبدو من خلالهما كأرملة، ودفعتْ إليهم أموالًا ليلعبوا دور الحمقى خارج البناية، وأعطتْهم الرسالة التي تُركت مع الحارس. ولم يتعرفوا عليها بعد، لكن يبدو أنها بنفس حجم الآنسة كيرتس.»

«وكيف خرجتْ من الشقة والباب موصد من الداخل؟»

«آه، هذا هو بيت القصيد! هذا لغزٌ مطروح أمامنا، إلا إذا قدَّمتَ لنا تفسيرًا.» قال المفتش هذا بابتسامة باهتة ثم أضاف: «حيث لم يكن هناك أحدٌ في المكان حين اقتحمناه، لا بد وأن القاتل خرج منه بطريقة ما. لا يمكنك نكران ذلك.»

قال ثورندايك: «لكنني أُنكره رغم ذلك.» ثم أكمل قائلًا: «تبدو متفاجئًا.» (وكان هذا صحيحًا بلا أدنى شك.) ثم أضاف: «لكنَّ الأمرَ كلَّه واضحٌ وضوحَ الشمس. لقد اتضح لي تفسيرُ ذلك حين نظرتُ إلى الجثة. لم يكن هناك على ما يبدو أيُّ مخرج من الشقة، وبالتأكيد لم يكن هناك بها أحدٌ حين دخلتها. إذن فمن الواضح أن القاتل لم يدخل المكان قط.»

قال المفتش: «أنا لا أفهمك على الإطلاق.»

قال ثورندايك: «حسنًا، سأقدِّم لك الأدلة بالتفصيل وبالتسلسل، حيث إنني انتهيتُ من القضية وأسلِّمها لك. والآن، أعتقدُ أننا متفقان أن الضحية لحظة تلقِّيه الضربةَ كان يقف أمام المدفأة ويملأ الساعة. والخنجر دخل بانحراف من جهة اليسار وإن كنت تتذكَّر موضعه، فستتذكر أن مقبضه كان موجَّهًا بشكل مباشر إلى نافذة مفتوحة.»

«والتي كانت تبعد عن الأرض مقدار أربعين قدمًا.»

«أجل. وسننظر الآن في أمر التفاصيل المميزة للسلاح الذي ارتُكِبت به الجريمة.»

كان ثورندايك قد وضع يده على مقبض أحد الأدراج حين قاطعَنا طَرْقٌ على الباب. نهضتُ من مكاني وفتحتُ الباب فدخل حارس بناية براكينهيرست. بدا الرجل متفاجئًا بعض الشيء حين رأى زائرينا، لكنه تقدَّم نحو ثورندايك وأخرج من جيبه ورقة مطوية.

وقال: «وجدت ما كنتَ تبحث عنه يا سيدي، وقد تطلب مني الأمر بحثًا كثيرًا. كان عالقًا في أوراق واحدة من تلك الشجيرات.»

فتح ثورندايك الورقة وبعد أن نظر بها وضعها على الطاولة.

وقال وهو يدفع بجنيه إلى الموظف المسرور: «شكرًا لك. أعتقد أن المفتش يعرف اسمك، أليس كذلك؟»

أجابه الحارس وهو يضع أتعابه في جيبه: «أجل يا سيدي.» ثم رحل مبتهجًا.

قال ثورندايك وهو يفتح الدرج: «وبالعودة إلى الخنجر، فإنه كان مميزًا كما قلتُ وكما سترى من هذا النموذج الذي يُعدُّ نسخةً طبقَ الأصل منه.» ثم أظهر النموذج الذي صنعه بولتون إلى المحقق المشدوه. وأضاف: «تلاحظ أنه رفيع بصورة استثنائية، وليس

به أيُّ بروز، وهو مصنوع من مواد غير عادية. وتلاحظ أيضًا أنه ليس مصنوعًا على يد صانع خناجر عادي؛ وعلى الرغم من الكلمة الإيطالية المنقوشة عليه، تجد أنه مكتوب عليه وبصورة واضحة عبارة «منتج بريطاني». والنصل مصنوع من شريط من صلب العِدد الشائع مقاسه ثلاثة أرباع البوصة؛ والمقبض مصنوع من قضيب من الألومنيوم؛ وليس به نقشٌ لا يمكن أن ينتجه مساعدُ مهندس في مخرطة. وحتى النتوء في أعلاه مصنوع بطريقة ميكانيكية؛ لأنه يُشبه شكل صامولة سداسية عادية. والآن، لاحظْ أبعاده كما هو واضح في رسمتي له. إن الجزأين أ وب اللذين يبرزان من النصل متماثلان تمامًا من حيث القطر، ولا يمكن أن يكون هذا التماثل من قبيل الصدفة. إن كلًّا منهما جزءٌ من دائرة قطرها ١٠٫٩ ملليمترات، وهو مقاس يتصادف بصورة استثنائية أنه مطابق لمقاس بندقية شاسبوت قديمة، التي هناك عدد منها معروض للبيع الآن في العديد من المتاجر في لندن. إليك واحدة منها.»

أحضر ثورندايك البندقية التي كان قد اشتراها من الزاوية التي كانت تستند إليها، وبعد أن رفع الخنجر من حدِّه، أدخل مقبضه في فوَّهة البندقية. وحين تركه، انزلق الخنجر في سلاسة إلى أسفل الماسورة حتى بدا مقبضه في المغلاق المفتوح.

صاح مارشمونت: «يا إلهي! أتقول إن الخنجر أُطلق من بندقية؟»

«هذا صحيح في واقع الأمر؛ هل ترون الآن سببَ صنْع مقبض الخنجر من الألومنيوم — لكي يُقلِّل من وزن المقذوف الذي هو ثقيل بالفعل — وأيضًا سبب وجود ذلك النتوء المسدس الشكل في نهايته؟»

قال المفتش: «لا، أنا لا أرى ذلك، ولكنني أقول إنك تقترح شيئًا مستحيلًا.»

ردَّ عليه ثورندايك: «إذن، ينبغي أن أشرح لك الأمر وأبرهنه. بادئ ذي بدء، ينبغي لهذا المقذوف أن ينطلق برأسه في المقام الأول؛ لذا لا بد وأن يتمَّ تدويرُه دورانًا سريعًا أثناء إطلاقه، وقد كان يدور كذلك بالطبع حين دخل في الجثة، كما ظهر لنا من الملابس التي كان القتيل يرتديها والجرح الذي تسبَّب به الخنجر. والآن ولكي يتمَّ تدوير هذا الخنجر ينبغي أن يتم إطلاقه من ماسورة محلزنة؛ ولكن لأن مقبض الخنجر لن يتعشَّق مع الحلزنة في الماسورة، كان ينبغي أن يتمَّ تركيبُه في شيء يتعشَّق معها. وهذا الشيء على ما يبدو هو حلقة ربط معدنية لدنة رُكِّبَت بهذا النتوء المسدس الشكل وتعشيقها مع حزوز الحلزنة وهكذا يدور الخنجر، ولكن هذه الحلقة تسقط بمجرد أن ينطلق المقذوف من ماسورة البندقية. وإليكم هذه الحلقة المعدنية التي صنعها بولتون.»

ثم وضع على الطاولة حلقة معدنية بها ثقبٌ مسدس الشكل في منتصفها.

قال المفتش: «هذا عمل بارع للغاية، لكنني أقول إن الأمر مستحيل وخيالي.»

صدَّق مارشمونت على كلامه قائلًا: «يبدو الأمر بعيد الاحتمال بكل تأكيد.»

قال ثورندايك: «سنرى. هذه خرطوشة بدائية الصنع من تنفيذ بولتون، وهي تحتوي على ثمن شحنة من بارود لا يُصدر دخانًا لبندقية عيار ٢٠.»

ثم ركَّب حلقة الربط المعدنية في النتوء البارز لمقبض الخنجر في مغلاق البندقية المفتوح ودفع الخنجر في الماسورة وأدخل الخرطوشة وأغلق مغلاق البندقية. ثم فتح باب غرفة المكتب فظهر هدفًا من الكرتون القشي المبطن معلَّقًا على الحائط.

قال ثورندايك: «طول الغرفتين يعطينا مسافة قدرُها اثنتان وثلاثون قدمًا. هلَّا أغلقتَ النوافذ يا جيرفس؟»

امتثلتُ لكلامه ثم وجَّه البندقية إلى الهدف. كان هناك صوتُ إطلاق نار مكتوم — ولم يكن عاليًا قطُّ كما توقعتُ — وحين نظرنا إلى الهدف رأينا الخنجر مغروزًا به حتى مقبضه على الهامش من منتصف الهدف.

قال ثورندايك وهو يضع البندقية من يده: «أترون أن الأمر ممكن. والآن لنتطرق إلى الأدلة من حيث حدوثها فعليًّا. في البداية، يوجد على الخنجر الأصلي خدوشٌ خطية تتوافق تمامًا مع حزوز الحلزنة. وهناك أيضًا حقيقة أن الخنجر كان يدور بالتأكيد من جهة اليسار إلى جهة اليمين — أي في اتجاه الحلزنة — حين دخل الجسم. وهناك هذه، وهي التي وجدها الحارس في الحديقة كما سمعتم.»

ثم فتح الورقة. وفيها كان هناك حلقة معدنية بها ثقب مسدس الشكل. ثم دخل ثورندايك غرفة المكتب والتقط من الأرض الحلقة التي كان قد ثبَّتها في الخنجر ووضعها على الورقة بجوار الحلقة الأخرى. كانت الحلقتان متماثلتين في الحجم وكانت الحافة في كلٍّ منهما بها آثار متماثلة بما يتوافق مع الحلزنة في ماسورة البندقية.

حدَّق المفتش بالحلقتين في صمت لبرهة؛ ثم رفع نظره إلى ثورندايك وقال: «أستسلم أيها الدكتور. أنت على حقٍّ بلا أدنى شك؛ لكن الطريقة التي فكَّرتَ بها في الأمر تذهلني بشدة. السؤال الوحيد المتبقي الآن هو: من الذي أطلق الخنجر؟ ولمَ لم يُسمع صوتُ إطلاق النار؟»

قال ثورندايك: «بالنسبة للسؤال الأخير، فمن المحتمل أن القاتل استخدم جزءًا ملحقًا لضغط الهواء، ليس من أجل كتم الصوت فقط، وإنما أيضًا من أجل أن يمنعَ ترْكَ أيِّ آثار

للخرطوشة على الخنجر. أما بالنسبة للسؤال الأول، فأعتقد أن بإمكاني أن أعطيَك اسم القاتل؛ ولكن من الأفضل أن ننظر في الأدلة بالترتيب.» ثم أكمل حديثه قائلًا: «قد تذكر أنني وضعتُ علامة بالطبشور على الأرض في المكان الذي وقف فيه الدكتور جيرفس وكأنه يملأ الساعة. والآن حين وقفتُ على تلك العلامة ونظرت خارج النافذة المفتوحة، رأيت نافذتين لمنزل تكادان تكونان مواجهتين لشقة القتيل. وكانت النافذتان في الطابقين الثاني والثالث للبناية رقم ٦ بشارع كوتمان. يشغل الطابقَ الثاني شركةُ مهندسين معماريين؛ ويشغل الطابقَ الثالث وكيلٌ تجاري يُدعى توماس بارلو. وقد ذهبت إلى السيد بارلو لكن وقبل أن أصف زيارتي له، سأُشير إلى أمر آخر. أمعكَ تلك الرسائل التهديدية؟»

قال المفتش: «أجل هي معي.» ثم أخرج من جيب صدره محفظة.

قال ثورندايك: «لننظر في الرسالة الأولى إذن. أنت ترى أن الورقة والظرف الموضوعة فيه من النوع الشائع جدًّا، وأن خطَّ الكتابة ينمُّ عن شخص غير متعلم. لكن الحبر لا يتوافق مع هذه الصفات. إن غير المتعلمين عادة ما يشترون الحبر في زجاجات صغيرة رخيصة. والآن هذا الظرف مكتوب بحبر داربر الثنائي اللون — وهو حبر مكتبي فاخر ولا يباع إلا في زجاجات كبيرة غالية — والحبر الأحمر المستخدم في كتابة الرسالة هو حبر قرمزي منحل، كالذي يستخدمه صائغو الوثائق، وقد استُخدِم كما ترون في قلم حبر. لكن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام حيال هذه الرسالة هو الرسمة الموجودة في أعلى الصفحة. من وجهة نظرٍ فنية، لم يكن باستطاعة هذا الرجل الرسم، والتفاصيل التشريحية للجمجمة سخيفة. لكن الرسمة نفسها دقيقة للغاية. وهي تتمتع بخط مستقيم ورفيع للرسم الآلي، وقد رُسمت بيد ثابتة متمرسة. والرسمة أيضًا تتمتع بتناسب متماثل؛ فالجمجمة على سبيل المثال في منتصف الصفحة تمامًا، وحين نفحصها باستخدام العدسة نرى السبب وراء ذلك؛ ذلك أننا سنكتشف آثار خط منتصف مرسوم بالقلم الرصاص وخطوط متقاطعة مستقيمة. وعلاوة على ذلك، تُظهر العدسة جسيمًا صغيرًا لممحاة حمراء ملساء تعود لصائغي الوثائق، مُحيَت الخطوط المرسومة بالقلم الرصاص باستخدامها؛ وبالنظر إلى كلِّ هذه الحقائق معًا، نجد أنها تُشير إلى أن الرسمة قد تم تنفيذها بيد شخص متمرس في الرسم الدقيق. والآن سنعود إلى السيد بارلو. كان الرجل في الخارج حين ذهبتُ، لكنني سمحتُ لنفسي بأن أنظر في أرجاء المكتب، وهذا هو ما رأيتُ. على رفِّ المدفأة كانت هناك مسطرة مسطحة من خشب البقس طولها اثنتا عشرة بوصة، وممحاة حمراء ملساء، وزجاجة حبر حجرية من حبر داربر الثنائي الألوان. وبحيلة بسيطة حصلتُ على عينة

من الورق والحبر المستخدمين في المكتب. وسنفحصها بعد قليل. ثم اكتشفتُ أن السيد بارلو مستأجر حديث العهد بالمكان ووجدت أنه قصيرُ القامة ويرتدي شعرًا مستعارًا ويضع نظارة، ودائمًا ما يرتدي قفازًا في يده اليُسرى. وقد غادر السيد بارلو المكتب في الثامنة والنصف من صباح اليوم ولم يرَ عودتَه أحدٌ. وكانت معه حين غادر حقيبة مربعة الشكل وأخرى رفيعة مستطيلة الشكل يصل طولُها إلى خمس أقدام تقريبًا؛ وقد استقل عربة أجرة إلى فيكتوريا ومن الواضح أنه استقل قطار الثامنة وإحدى وخمسين دقيقة إلى تشاتام.»

صاح المفتش: «آه!»

أكمل ثورندايك حديثه قائلًا: «لكن افحص هذه الرسائل الثلاث وقارنها بهذه الرسالة التي كتبتُها في مكتب السيد بارلو. سترى أن الورق من نفس النوع وأن به نفس العلامة المائية، لكن هذا الأمر ليس ذا أهمية كبيرة. أما الأمر البالغ الأهمية هنا هو ما يلي: تلاحظ أن في كلِّ رسالة من هذه الرسائل أثرَي حزٍّ طفيفين قرب الزاوية السفلية للورقة. هناك شخص ما قد استخدم بَرْجَلًا أو دبابيس رسم على رزمة الورق، وقد خلف ذلك أثرَي حزٍّ طفيفين على العديد من الأوراق من تلك الرزمة. والآن، يتم تقطيع الأوراق إلى حجمها الطبيعي بعد أن تُطوى، وإذا ما غرزت دبوسًا في الورقة العلوية من مجموعة الأوراق، فإن آثار الحزِّ في الأوراق التي تحتها ستكون على مسافة واحدة من حواف وزوايا الورق. وأنت تلاحظ بالطبع أنَّ هذين الأثرين يقعان على مسافة واحدة من الحوافِّ والزاوية السفلية.» ثم قام ثورندايك بتوضيح هذه الحقيقة باستخدام برجَل. «والآن انظر إلى هذه الورقة التي حصلتُ عليها من مكتب السيد بارلو. هناك أثرَا حزٍّ طفيفان — إنهما باهتان إلى حدٍّ كبير لكن يمكن رؤيتهما — قرب الزاوية السفلية للورقة، وحين نقيسهما باستخدام البرجَل، نجد أنهما يقعان على مسافة واحدة تمامًا أحدهما من الآخر كالآثار الأخرى، وكذلك على المسافة نفسها من الحواف ومن الزاوية السفلية للورقة. وهنا نجد أن الاستنتاج الذي لا يمكن تجاهله هو أن هذه الأوراقَ الأربع كلَّها تأتي من رزمة الورق نفسها.»

انتفض المفتش من مقعده ووقف مواجهًا ثورندايك. وسأله قائلًا: «من هو السيد بارلو هذا؟»

أجابه ثورندايك: «مهمَّتُك تحديدُ ذلك؛ لكن يمكنني أن أعطيَك لمحةً تُساعدك. هناك شخص واحد فقط يستفيد من موت السيد ألفريد هارتريدج، ومقدارُ استفادته يصل إلى عشرين ألف جنيه. اسمه ليونارد وولف وقد علمتُ من السيد مارشمونت أنه رجل

عديم المشاعر لا مبالٍ، فهو مقامر ومبذِّر. وهو يمتهن الهندسة وهو مهندس ميكانيكي بارع. وأما عن مظهره فهو نحيل وقصير وحسن المظهر وحليق الذقن، وقد فقد الإصبع الأوسط من يده اليُسرى. والسيد بارلو أيضًا قصير ونحيل وحسن المظهر لكنه يرتدي شعرًا مستعارًا وله لحية ويرتدي نظارة، ودائمًا ما يرتدي قفازًا في يده اليُسرى. وقد رأيتُ خطَّ يدِ كلٍّ منهما وأقول إنه من الصعب التفريق بينهما.»

قال المفتش: «هذا كافٍ بالنسبة لي. أعطني عنوانه وسأُطلق سراح الآنسة كيرتس في الحال.»

أُلقيَ القبض على ليونارد وولف في نفس تلك الليلة في منطقة إلتام متلبسًا بمحاولة دفنِ بندقية هواء مضغوط كبيرة وقوية في حديقته. لكن لم يُقدَّم للمحاكمة قط؛ لأنه كان يحمل في جيبه سلاحًا أصغر بكثير — وهو مسدس ديرينجر ذو قطر واسع — استطاع استخدامه في إنهاء حياته الضائعة.

وكان تعليق ثورندايك حين سمع بما حدث: «في النهاية، انتفعنا منه. لقد أراح المجتمع من رجلين سيِّئين للغاية وقدَّم لنا قضية تعلَّمنا منها الكثير. وقد أرانا كيف يمكن للمهرة والعباقرة من المجرمين أن يتحملوا المشاق والصعاب العديدة من أجل تضليل الشرطة وخداعها، ولكن يمكن لهم أيضًا ومن خلال عدم الانتباه إلى التفاصيل الصغيرة التافهة أن ينثروا الكثير من الأدلة على اشتراكهم في الجريمة في كل مكان. ولا يسعنا سوى أن نقول للمجرمين بصفة عامة في هذين الشأنين: «انطلقوا وافعلوا نفس الشيء.»

الفصل الثامن

# رسالة من أعماق البحر

إن طريق وايتشابل، رغم أنه يحتوي على آثارٍ متناثرة لماضٍ أكثر حيوية من طريق كوميرشيال المجاور له والخالي تمامًا، ليس طريقًا مبهجًا. وخاصة عند طرفه الشرقي — حيث يبدو أن حداثته الباهتة تعكس حياة قاطنيه غير الممتعة — فإن طوله المخيف الباهت يُوقع الكآبة في نفوس المارة. لكن حتى أطول الطرق وأكثرها كآبة يمكن أن يتحول إلى طريق مبهج؛ وذلك من خلال محادثة خفيفة تغلب عليها الحكمة والفكاهة، وهكذا كان الأمر حيث كنتُ أسير نحو الغرب بجوار صديقي جون ثورندايك، فقد بدا أن الطريق الطويل والممل قد تحوَّل إلى طريق قصير للغاية.

كنا قد ذهبنا إلى مستشفى لندن لرؤية حالة غير عادية لتضخم الأطراف، وأثناء عودتنا، كنا نناقش تلك الحالة الجسدية الغريبة وارتباطها بحالة العملقة من جميع الجوانب بداية من «ذقن جيبسون» إلى جسد عوج ملك باشان.

علَّق ثورندايك بعد أن تجاوزنا شارع ألدجيت هاي ستريت قائلًا: «كان الأمر سيُصبح مثيرًا لو أن أحدهم قد وضع إصبعه في الحفرة النخامية لجلالة الملك — بعد وفاته بالطبع — بالمناسبة، هاك هو زقاق هارو؛ أتذكر وصفَ ديفو لعربة الموتى المنتظرة هنا، والموكب الكبير الآتي من الزقاق؟» وأخذ بذراعي وقادني عبر الطريق الضيق حتى المنعطف الحاد عند حانة «ستار آند ستيل» حيث استدرنا لننظر خلفنا.

ثم قال وهو غارق في أفكاره: «أنا لا أمرُّ من هذا المكان أبدًا، لكن يبدو أنني أسمع قعقعة الجرس وصيحة سائق العربة الكئيبة ...»

ثم توقف فجأة، حيث ظهر فجأة شخصان أمام الممر المقنطر وكانَا يتقدمان الآن نحونا بسرعة كبيرة. كان الشخص الأول — وهو الأسبق منهما — امرأةً يهودية ممتلئة الجسم في منتصف العمر، وكانت شعثاء وتلهث بشدة؛ أما الآخر فكان شابًّا حسن الملبس

وكان أقل شعورًا بالانزعاج من رفيقته. وبينما كانَا يقتربان منا، تعرَّف الشاب على صديقي فجأة وبادره بالحديث بنبرة تنمُّ عن القلق.

«لقد تم استدعائي لتوِّي للنظر في قضية قتل أو انتحار. أتُمانع أن تنظر في الأمر لأجلي يا سيدي؟ إنها قضيتي الأولى وأشعر بتوتر شديد.»

هنا اندفعت المرأةُ وأمسكت بالطبيب الشاب من ذراعه.

وصاحت: «أسرع! أسرع! لا تتوقف للحديث.» كان وجهها أبيضَ من الشحوب كشحم الخنزير ويلمع بفعل العرق؛ وكانت شفتاها ترتعشان ويداها ترتجفان ونظرت إلينا بعينَي طفلة صغيرة مرتعبة.

قال ثورندايك: «بالطبع سأذهب يا هارت.» ثم استدرنا وتبعنا المرأة التي كانت تدفع المارة بمرفقها بصورة محمومة لتُسرع في طريقها.

وسأل ثورندايك الشاب بينما كنا نسير بسرعة: «هل بدأت الممارسة هنا؟»

أجاب الدكتور هارت: «لا يا سيدي. إنني أعمل مساعدًا. ورئيسي في العمل هو الطبيب الشرعي للشرطة، لكنه خرج لتوِّه. إنه لمن اللطف الشديد منك أن تأتيَ معي يا سيدي.»

قاطعه ثورندايك: «لا! لا! إنني قادم فقط من أجل أن أرى مدى استفادتك من تعليمي لك. يبدو أن هذا هو المنزل.»

كنا قد تبعنا مرشدتنا إلى شارع جانبي، وكنا قد وصلنا إلى نصفه تقريبًا حين رأينا مجموعة من الناس تجتمع حول مدخل منزل. وقف الناس يشاهدوننا ونحن نقترب، وانسحبوا جانبًا لكي يفسحوا لنا مجالًا للدخول. أما المرأة التي كنَّا نتبعها فقد هرعت إلى داخل المدخل بنفس السرعة التي كانت تسير بها في الشارع، واستمرت في سرعتها تلك وهي تصعد الدرج. لكن وباقترابها من الدور العلوي أبطأت فجأة وبدأت تتسلَّل على أطراف أصابع قدمها في خطوات صامتة ومترددة. وحين وصلتْ إلى بسطة الدرج الخاصة بالدور العلوي، استدارت لتُواجهنا وأشارت بإصبع سبابة مرتعشة إلى باب الحجرة الخلفية، وهمستْ بصوت يكاد يكون غير مسموع: «إنها هناك.» ثم صعدت أولى درجات الدور التالي وهي تكاد تفقد وعيها.

وضعتُ يدي على مقبض الباب ونظرتُ للخلف إلى ثورندايك. كان يصعد الدرج ببطء ويتفحص عن كثب الأرضية والحوائط والدرابزين أثناء صعوده. وحين وصل إلى بسطة الدور العلوي، أدرتُ مقبض الباب ودخلنا الغرفة معًا، وأغلقنا الباب خلفنا. كانت الستارة لا تزال مغلقة وفي تلك الإضاءة المعتمة الخافتة، لم نستطع أن نرى شيئًا غير

عادي في البداية. بدت الحجرة الرديئة الصغيرة أنيقة ومرتَّبة بصورة كبيرة، عدا كومة من الملابس النسائية القديمة الملقاة على أحد الكراسي. وبدا السرير غير ممسوس عدا الجسد الذي كان ينام عليه والذي لم يكن واضحًا بصورة كافية، وكان وجه ذلك الجسد الهادئ الذي كان مرئيًّا على نحوٍ خافت في جانبه المظلم، قد بدا نائمًا لولا سكونه التام وتلك البقعة الداكنة على الوسادة بجانبه.

تسلل الدكتور هارت على أطراف أصابعه إلى جوار السرير بينما فتح ثورندايك الستارة؛ وفي حين كان ضوء النهار المتوهج يملأ الغرفة، تراجع الطبيب الشاب للخلف وهو يشهق من الرعب.

وصاح قائلًا: «يا إلهي! يا لَها من مسكينة! إن هذا لشيء مريع يا سيدي!»

غمر الضوءُ الوجهَ الأبيض لفتاة جميلة في الخامسة والعشرين من عمرها، وكان وجه الشابة الميتة هادئًا ومسالمًا وجميلًا وخاليًا من أيِّ زينة ويكاد حسنُه يبلغ حُسنَ الملائكة. وكانت الشفتان متباعدتين قليلًا وعيناها شبه مغلقتين وكأنهما ناعستان، وتُظلِّلهما رموشٌ طويلة؛ وكان للفتاة شعرٌ أسود كثيف بضفائرَ كبيرةٍ والذي كان مغايرًا للون بشرتها البيضاء.

سحب صديقُنا أغطية الفراش بضع بوصات، فظهر — تحت ذلك الوجه الجميل، الهادئ والمبهم، والمريع في نفس الوقت بفعل ثباته وشحوب لونه الشديد وكأنه كالشمع — جرحٌ فظيع وغائر كاد يُقسم عنقَها الرقيق المتناسق.

نظر ثورندايك إلى وجهها الأبيض الممتلئ بنظرة تنمُّ عن الإشفاق الشديد.

وقال: «لقد قطع عنقها بطريقة وحشية لكنها رحيمة، وذلك بسبب وحشية القطع نفسها. لا بد وأنها ماتت من دون أن تستيقظ.»

صاح هارت وهو يقبض يديه ويتحول لونُ وجهه إلى القرمزي بفعل غضبه: «ذلك الغاشم! ذلك الوحش الشيطاني الرعديد! يجب أن يُشنَق! أقسم بالرب أنه لا بد وأن يُشنق!» كان الشاب يلوح بقبضتيه في الهواء أثناء غضبه، وكانت الدموع تترقرق في عينيه.

وضع ثورندايك يده على كتفه. وقال: «هذا هو سببُ وجودنا هنا يا هارت. أخرجْ مفكرتك.» ثم انحنى على جسد الفتاة القتيلة.

وبفعل ذلك الاستنكار الودِّيِّ من ثورندايك، استجمع الشابُ رباطةَ جأشه وبدأ تحقيقه بعد أن فتح مفكرته، في حين انشغلتُ أنا بإعداد مخطَّطٍ للغرفة بطلب من

ثورندايك، مع عملٍ وصفٍ لمحتوياتها وطريقة ترتيبها. لكن تلك المهمة لم تمنعني من أن أُبقيَ ناظريَّ على تحركات ثورندايك، وبعد برهة توقفتُ عن أداء مهمتي لرؤيته وهو يكشط بعض الأشياء التي وجدها على الوسادة باستخدام سكين جيبه.

سألني بعد أن ذهبتُ إلى جواره: «ماذا تستنتج من هذا؟» وأشار بالنصل إلى كومة صغيرة لما بدا أنه رملٌ فضي، وبعد أن نظرتُ عن كثب أكثر، رأيتُ أن جسيمات مشابهة لها كانت متناثرةً على أجزاء أخرى من الوسادة.

قلتُ متعجبًا: «رمل فضي! لا أعرف أبدًا كيف يمكن أن يصل إلى هنا. أتعرف أنت؟»

هزَّ ثورندايك رأسه نافيًا. وكانت إجابته: «سننظر في أمر تفسير ذلك لاحقًا.» وكان قد أخرج من جيبه علبةً معدنية صغيرة كان يحملها معه على الدوام، وكانت تحتوي على أشياء كشرائح تغطية زجاجية وأنابيب شعرية وشمع قولبة، و«لوازم تشخيصية» أخرى. ثم أخرج من هذه العلبة حافظةَ بذور وجرف فيها بعنايةٍ حبَّاتِ الرمل الصغيرة باستخدام سكينه. وبعد ذلك أغلق الحافظة وكان يدوِّن على الجانب الخارجي منها وصفًا لمحتوياتها بالقلم الرصاص، حين فزعنا بفعل صرخة أطلقها هارت.

«يا إلهي، يا سيدي! انظر لهذا! كان الفاعل امرأة!»

وكان هارت قد سحب أغطية السرير وكان يُحدِّق مذعورًا في اليد اليُسرى للضحية. وكانت يدها تُمسك بخُصلة شعر أحمر رفيعة.

أسرع ثورندايك في إغلاق عينته ووضعها في جيبه، وبعد أن سار بجوار الطاولة الصغيرة الموضوعة بجوار السرير، انحنى على اليد معقدًا حاجبَيه. كانت اليد مغلقة لكنها لم تكن مقبوضةً بإحكام، وحين حاول أن يفتحها برفق، وجد أن الأصابع كانت متيبسةً وكأنها أصابعُ يدٍ خشبية. أخذ ثورندايك ينظر عن كثب أكثر وأخرج عدسته وتفحَّص خُصلة الشعر بطولها بالكامل.

وعلَّق قائلًا: «يوجد هنا أكثر مما يمكن للعين أن تراه من الوهلة الأولى. ما رأيك يا هارت؟» وقدَّم عدسته لتلميذه القديم الذي كان على وشك أن يأخذها منه حين انفتح البابُ ودخل منه ثلاثة رجال. كان الأول مفتشَ شرطة والثاني بدا وكأنه شرطي يرتدي ملابس مدنية، في حين أن الثالث كان من الواضح أنه الطبيب الشرعي للشرطة.

سأل الأخير وهو ينظر إلينا بشيء من الازدراء: «أهما صديقان لك يا هارت؟»

قدَّم ثورندايك له تفسيرًا سريعًا لوجودنا فقال:

«حسنًا إذن يا سيدي، أمرُ مثولكما أمام المحكمة متروكٌ للمفتش. لم يكن مساعدي مخولًا لأن يستدعيَ غرباء. استمرَّ في عملك يا هارت.»

وبهذه الكلمات شرع في فحصه، في حين سحب ثورندايك الترمومتر الجيبي الذي كان قد دسَّه تحت الجثة وأخذ قراءته.

لكن المفتش لم يكن مستعدًّا لممارسة الامتياز الذي لَمَّح له الطبيب الشرعي؛ ذلك أن لكل خبير مجاله.

وسأل بلطف: «في رأيك يا سيدي كم مضى على وفاتها؟»

أجابه ثورندايك: «حوالي عشر ساعات.»

نظر المفتش والمحقق كلٌّ في ساعته في آنٍ واحد. وقال الأول: «هذا يعني أنها قُتلت في غضون الثانية فجرًا اليوم. ما هذا يا سيدي؟»

كان الطبيب الشرعي يُشير إلى خُصلة الشعر الموجودة في يد الفتاة القتيلة.

صاح المفتش: «يا إلهي! إن القاتل امرأة، أليس كذلك؟ لا بد وأنها كانت قوية. تبدو هذه القضية سهلة بالنسبة لك أيها الرقيب.»

قال المحقق: «أجل. هذا يوضح أمر ذلك الصندوق والوسادة التي عليه عند مقدمة السرير. كان عليها أن تقف عليهما حتى تطالَها. لكنها لا يمكن أن تكون طويلة.»

قال المفتش: «لكن لا بد وأنها كانت قوية للغاية؛ لقد كادت تفصل رأس الفتاة المسكينة عن جسدها.» ثم تحرك نحو مقدمة السرير وانحنى على الجثة وحدَّق بالجرح الغائر. وفجأة بدأ يمشي بيده على الوسادة ثم فرك أصابعه معًا. وقال متعجبًا: «هناك رمل على الوسادة؛ رمل فضي! عجبًا، كيف وصل هذا إلى هنا؟»

وجاء كلٌّ من الطبيب الشرعي والمحقق ليتحقَّقَا من هذا الاكتشاف، وبدءوا يتشاورون بجدية فيما بينهم عن معنى ذلك.

سأل المفتش ثورندايك: «هل لاحظتَ ذلك يا سيدي؟»

أجاب الأخير: «أجل، إنه أمر غير قابل للتفسير، أليس كذلك؟»

قال المحقق: «لا أعرف إن كان كذلك أم لا.» ثم هرع إلى الحوض وأطلق نخيرًا ينمُّ عن الرضا عن النفس. وقال وهو يرمق صديقي بزهو: «الأمر بسيط للغاية، كما ترون. هناك قطعة صابون رملي على الحوض، والذي هو مليءٌ بالمياه المختلطة بالدم. لا بد وأن المرأة غسلت الدم عن يديها وعن السكين أيضًا — لا بد وأنها تتسم أيضًا برباطة الجأش — وقد استخدمت الصابون الرملي في ذلك. ثم وبينما تُجفف يديها، لا بد وأنها وقفت عند مقدمة السرير فسقط الرمل على الوسادة. أعتقد بأن هذا التفسير يزيل الغموض بما يكفي.»

قال ثورندايك: «هذا واضح بصورة تُثير الإعجاب. وكيف كان تسلسل الأحداث في اعتقادك؟»

نظر المحقق المزهو بنفسه حول الغرفة وقال: «في اعتقادي أن الضحية قرأت حتى النوم. هناك كتاب على الطاولة بجوار السرير، وشمعدان ليس به شيء سوى فتيلة محترقة في تجويفه. أتخيَّل أن المرأة دخلت في هدوء، وأشعلت مصباح الغاز، ووضعت الصندوق وعليه الوسادة عند مقدمة السرير، ووقفت عليهما وقطعت عنق ضحيتها. ولا بد وأن الضحية استيقظت وأمسكت بشعر قاتلتها، رغم أنه لا يبدو أن عراكًا قد وقع؛ لكن لا شك وأنها ماتت من فورها تقريبًا. ثم غسلت القاتلة يديها ونظَّفت السكين ورتبت السرير قليلًا وخرجت. أعتقد أن الأحداث سارت بهذه الطريقة، لكنها دخلت من دون أن يسمعها أحدٌ، وكيف خرجت وأين ذهبت، هذان هما الشيئان اللذان ينبغي علينا أن نكتشفهما.»

قال الطبيب الشرعي وهو يضع أغطية السرير على الجثة: «ربما من الأفضل أن نستجوب صاحبة المكان ونسألها بضعة أسئلة.» ثم نظر بقوة إلى ثورندايك وسعل المفتش على وجه يده. لكن صديقي اختار ألَّا يلتفتَ إلى هذه التلميحات: وبعد أن فتح الباب، أدار المفتاح عدة مرات للخلف والأمام، وسحبه من الباب وتفحَّصه عن قرب ثم أعاده إلى مكانه.

وعلَّق قائلًا وهو يُمسك بالباب مفتوحًا: «صاحبة المكان تقف على بسطة الدرج في الخارج.»

ومن ثَمَّ خرج المفتش، وتبعناه جميعًا لنسمع نتيجةَ استجوابه.

قال المحقِّق وهو يفتح مفكرته: «والآن سيدة جولدشتاين، أريد منكِ أن تُخبرينا جميعًا ما تعرفينه عن هذا الأمر وعن الفتاة نفسها. ماذا كان اسمها؟»

مسحَت صاحبةُ المكان — التي كان هناك رجلٌ شاحبُ الوجه مرتعشًا يقف بجوارها — عينَيها وأجابت بصوت مرتجف: «تلك الفتاة المسكينة، كان اسمها مينا أدلر. وكانت ألمانية، وقد أتت من بريمن قبل حوالي سنتَين. ولم يكن لديها في إنجلترا أصدقاء؛ أقصد أقارب. وكانت تعمل نادلةً في مطعم في شارع فينتشرش، وكانت فتاةً طيبة وهادئة ومجدَّة في عملها.»

«متى اكتشفتِ ما حدث؟»

«قرابة الحادية عشرة صباحًا. كنت أعتقد أنها ذهبت إلى عملها كالمعتاد، لكن لاحظ زوجي من الباحة الخلفية أن ستارة غرفتها كانت لا تزال مسدلة. لذا صعدتُ إليها وطرقت الباب، وحين لم أتلقَّ إجابة فتحتُ الباب ودخلت الغرفة ثم رأيت ...» وهنا غمرت الذكرى المريعة مخيلةَ المرأة المسكينة فانفجَرَت في بكاء ونحيب هستيري.

«كان بابها إذن غير موصَد؛ هل كانت تُوصدُه في العادة؟»

قالت السيدة جولدشتاين وهي تنشج: «أعتقد ذلك. لقد كان المفتاح دومًا في الباب.»

«وماذا عن باب الشارع؟ هل كان مُوصدًا حين خرجتِ منه هذا الصباح؟»

«كان مغلقًا. إنَّنا لا نُوصده لأنَّ بعض السكان يَعُودون في وقت متأخِّر.»

«والآن أخبرينا، هل كان لها أيُّ أعداء؟ هل كان هناك مَن يَحمل ضغينة تجاهها؟»

«لا، لا، يا لَها من مسكينة! لمَ قد يحمل أحدُهم ضغينةً تجاهها؟ لا، لم تتشاجَر — شجارًا فعليًّا — مع أحد أبدًا؛ ولا حتى مع ميريام.»

سألها المفتش: «ميريام! مَن هي؟»

أدركها الرجل بسرعة: «لم يكن ذلك شيئًا يُذكر. لم يكن ذلك شجارًا.»

قال المفتش مقترحًا: «أعتقد إذن يا سيد جولدشتاين أنه كان مجرَّد شعور بسيط بالبغض بينهما؟»

قال السيد جولدشتاين: «مجرَّد حمق بسيط حول شابٍّ ما، هذا كل ما في الأمر. كانت ميريام تغار قليلًا. لكن لم يكن ذلك شيئًا يُذكر.»

«لا، لا، بالطبع. نَعرف جميعًا أنَّ الفتيات يَكُنَّ عرضة لـ ...»

ثم جاء صوت خطوات أقدام خفيفة وامتدَّ للحظات، وكانت الخطوات تنزل الدرج العلوي ببطء، وفي تلك اللحظة وعند استدارة الدرَج ظهرت الوافدةُ الجديدة أمام أعيننا. وعند رؤيتِها توقف المفتش عن حديثه فجأة وكأنه تِمثالٌ حجريٌّ، وساد فيما بيننا صمتٌ ثقيل وحذر. وتقدَّمتْ نحونا على الدرجات المتبقية فتاةٌ قصيرة القامة لكنها قويةُ البِنية وكانت مهتاجةً وشعثاء وتعلوها نظرةُ ارتعاب، ووجهُها شاحبًا للغاية، وشعرُها بلونٍ أحمرَ لامع.

وقفنا جميعًا صامِتين وجامِدين فيما كانت تتقدم نحونا تلك الفتاة ببطء؛ لكن فجأة انسلَّ المحقق عائدًا إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه ثم عاود الظهور بعد بضع لحظات وهو يحمل مظروفًا ورقيًّا صغيرًا وضعه في جيب صدره بعد أن رمق المفتش بنظرة سريعة.

قال السيد جولدشتاين: «هذه هي ابنتي ميريام التي تحدثنا عنها أيها السادة. يا ميريام هؤلاء هم الأطباء والشرطة.»

نظرت الفتاة إلينا واحدًا تلوَ الآخر. وقالت بصوت غريب مكتوم: «إذن فقد رأيتموها.» وأضافت: «هي ليست بميتة، أليس كذلك؟ هي ليست ميتة فعلًا؟» جاء السؤال بنَبرة تنمُّ عن الخداع واليأس، كنبرةِ امرأة مجنونة تقف على جثَّة طفلها. ملأتني نبرةُ صوتها بشعور غامض بعدم الراحة، ثم نظرتُ ومن دون وعي نحو ثورندايك.

وفوجئتُ بأنه كان قد اختفى.

تراجعتُ للخلف من دون صوتٍ نحو رأس الدرج، حيث يُمكنني الحصول على نظرة للردهة أو الممر، ونظرتُ للأسفل ورأيته وهو يَمدُّ يده نحو رفٍّ خلف باب الشارع. ورآني وأنا أنظر إليه فأشار إليَّ أن آتيَه، حينها تسللتُ بعيدًا عن المجموعة الواقفة من دون أن يلحظوا ذلك. وحين وصلتُ إلى الردهة كان ثورندايك يطوي ثلاثة أشياء صغيرة، كلٌّ منها في ورقة سجائر منفصلة؛ ولاحظتُ أنه كان يتعامل معها برقَّة غير عادية.

وقال وهو يضع الأشياء الثلاثة الصغيرة بحذرٍ شديد في العلبة الصغيرة التي يَحتفظ بها في جيبه: «لم نكن نريد رؤية تلك الشيطانة الصغيرة أثناء القبض عليها. لنُغادر من هنا.» ثم فتح الباب من دون أن يُصدرَ أيَّ صوت، ووقف للحظة يقفل المزلاج ويفتحه ويتفحص قفلَ الباب عن كثَبٍ.

ورمقتُ أنا الرفَّ خلف الباب بنظرة سريعة. كان عليه شمعدانان مسطحان من الخزف، وفي أحدهما تصادف أن لاحظتُ أثناء دخولنا طرفَ شمعة صغيرًا في الوعاء، فنظرتُ الآن لأرى إن كان هذا هو ما أخذه ثورندايك؛ لكنه كان لا يزال في مكانه.

تبعتُ صديقي للخارج في الشارع، ورُحْنا نسير صامِتِين لبعض الوقت، ثم قال ثورندايك بعد فترة: «بالطبع خمنتَ ما أخذه الرقيب في ذلك الكيس الورقي الصغير.»

«أجل. لقد أخذ الشعر الذي كان في يدِ الفتاة القتيلة؛ وأعتقد أنه كان من الأفضل كثيرًا لو تركه في مكانه.»

«لا شكَّ في ذلك. لكن هذه هي الطريقة التي يُدمر بها رجال الشرطة الحسنو النية الأدلة القيِّمة. ليس معنى ذلك أن هذا الدليل ذو أهمية كبيرة في هذه الحالة؛ لكن قد يكون ذلك خطأً فادحًا.»

سألته: «هل تنوي الاضطلاع بدورٍ فاعل في هذه القضية؟»

«يعتمد هذا على الظروف. لقد جمعتُ بعض الأدلة، لكنَّني لا أعلم بعدُ أهميتها. ولا أعلم كذلك ما إن كان رجال الشرطة قد لاحظوا مجموعة الحقائق نفسها التي لاحظتُها؛ لكنَّني في غنًى عن القول بأنني سأفعل أيَّ شيء يبدو ضروريًّا لمساعدة السلطات؛ فهذه مسألة واجبات مشتركة بين المواطنين.»

ونظرًا لما تسببت به أحداثُ مغامرة الصباح من تبديد لوقتنا، فقد كان من الضروري لنا أن يذهب كلٌّ منا لمباشرة عمله من دون أيِّ تأخير؛ لذا وبعد أن تناولنا غداء بصورة

روتينية في أحد المطاعم الصغيرة، انفصَلنا ولم أرَ صديقي حتى انتهيتُ من عملي اليومي، وعدتُ للمنزل قبل وقت العشاء بقليل.

وقتها وجدتُ ثورندايك جالسًا إلى الطاولة وكان مشغولًا تمامًا. كان بجواره مِجهرٌ ومكثِّفٌ يُلقي ببقعة من الضوء على رشة من المسحوق المنثور على الشريحة الزجاجية؛ وكان علبة تجميع الأشياء الصغيرة مفتوحة أمامه، وكان مشغولًا بصورة غير واضِحة في عصر عجينة إسمنت بيضاء سميكة من أنبوب إلى ثلاث قطع صغيرة من شمعِ القَولَبة.

ثم علَّق قائلًا: «الفورتافكس هذا مفيد بحق، فهو يصنع قوالب ممتازة، ويُوفِّر عليك عناء خلط الجصِّ والفوضى الناتجة عن ذلك، وهذا كثير بالنسبة لعمل صغير كهذا. بالمناسَبة، إذا كنت تريد أن تعرف ما كان على وسادة تلك الفتاة المسكينة، فألقِ نظرة سريعة من خلال المجهر. إنها عينة جميلة.»

تقدَّمتُ ونظرت بعيني من خلال الجهاز. كانت العينة جميلة بالفعل بما يتخطَّى الناحية التقنية لها. كان هناك عددٌ من الأصداف الصغيرة والجميلة مُختلطة بحبيبات بلورية من الكوارتز وشويكات زجاجية وشظايا مرجانية أبلتها المياه، وكان لبعض هذه الأصداف ملمسُ البورسلين الفاخر، وللبعض الآخر ملمَس الزجاج الفينيسي المهشَّم.

صحتُ متعجِّبًا: «هذه فورامينيفيرا!»

«أجل.»

«إذن هو ليس برمل فضيٍّ في النهاية؟»

«ليس كذلك بالتأكيد.»

«إذن ما هذا؟»

ابتسم ثورندايك. وقال: «إنها رسالة لنا من أعماق البحر يا جيرفس؛ من قاع شرق البحر المتوسط.»

«وهل تستطيع قراءة تلك الرسالة؟»

أجابني قائلًا: «أعتقد أنني يُمكنُني ذلك، لكنني آمل أن أعرف عما قريب.»

نظرتُ من خلال المجهر مرة أخرى، وتساءلت عن الرسالة التي بلَّغتْها هذه الأصداف الصغيرة إلى صديقي. رمل من قاع البحر على وسادة فتاة قتيلة! كيف يُمكن أن يُصبح الأمر أكثر تناقضًا؟ ما العلاقة المحتمَلة التي يُمكن أن تُوجد بين هذه الجريمة الشنعاء في شرق لندن وبين القاع العميق لـ «بحرٍ بلا مدٍّ»؟

وفي تلك الأثناء عصر ثورندايك المزيد من الإسمنت على قطع شمع القولبة الثلاث (والتي اعتقدتُ أنها الأشياء التي رأيتها يلفُّها بحذر في ردهة منزل آل جولدشتاين)؛



الرمل المأخوذ من وسادة الفتاة القتيلة، مكبرًا إلى ٢٥ ضعفًا.

ثم وضع إحداها على شريحة زجاجية، وكان الجزء المغطَّى بالإسمنت منها موجَّهًا نحو الأعلى، ووضع الاثنتين الأخريين في وضع عمودي. وفي النهاية عصر المزيد من العجينة الإسمنتية السميكة على ما يبدو لكي يجمع القطع الثلاث معًا، وحمل الشريحة الزجاجية بحذرٍ شديد إلى خزانة، حيث وضعها مع المظروف الذي يحتوي على الرمل والشريحة الزجاجية التي كانت موضوعةً على المجهر.

وكان يُغلق الخزانة حين جاء صوتُ طرقات حادة على مطرقة الباب، فهرع ثورندايك إلى الباب. كان هناك صبيٌّ ساعٍ يقف عند عتبة الباب ويَحمل في يده مظروفًا قذرًا.

قال الفتى: «لقد جعَلني السيد جولدشتاين أبقى وقتًا طويلًا بالخارج يا سيدي. ليس من شِيَمي التسكُّع أبدًا.»

أخذ ثورندايك المظروف نحو مصباح الغاز وبعد أن فتَحَه سحب منه ورقة استعرضها بعينيه بسرعة ولهفة شديدة؛ ورغم أن وجهه ظل جامدًا وكأنه قناع حجري، فقد شعرتُ بقناعة بداخلي أن الورقة أخبرتْه بشيء كان يتمنَّى معرفته.

وبعد أن خرج الفتى مبتهجًا، التفت ثورندايك إلى رفوف الكتب ومرَّ بعينيه عليها في تفكير عميق حتى استقرتْ نظرتُه على كتابٍ ذي غلاف رثٍّ بالقرب من إحدى أطراف الرفوف. فمدَّ يده إلى ذلك الكتاب وأخذه وبينما كان يضعه على الطاولة ويفتحه، رمقتُه بنظرة ودُهِشت حين لاحظت أنه عملٌ ثنائيُّ اللغة، فكانت الصفحات المقابلة لبعضها على ما يبدو مكتوبةً باللغة الروسية والعبرية.

علَّق ثورندايك بعد أن لاحظ اندهاشي قائلًا: «العهدُ القديم بالروسية واليديشية. سأجعل بولتون يصوِّر بضع عينات من صفحاته، أهذا هو ساعي البريد أم هو مجرَّد زائر؟»

اتضح أنه ساعي البريد، وبعد أن أخرج ثورندايك من صندوق البريد مظروفًا رسميًّا أزرق اللون، نظر إليَّ نظرةً ذات مغزًى.

وقال: «يُجيب هذا على ما أعتقد عن تساؤلك يا جيرفس. أجل؛ إنه استدعاء من قاضي التحقيق وخطابٌ مهذَّبٌ للغاية: «آسف لإزعاجك، لكن ليس أمامي خيارٌ آخر في ظل هذه الظروف» — بالطبع لم يكن لدَيه — لقد رتَّب الدكتور دايفدسون أن يتمَّ إجراءُ التشريح غدًا في تمام الرابعة مساءً، وسأكون مسرورًا إذا ما تمكَّنت من الحضور. المشرحة في شارع باركر، بجوار المدرسة.» إذن أعتقد أننا ينبغي علينا أن نذهب، رغم أن دايفدسون سيمتعض من ذلك على الأرجح.» ثم أخذ ثورندايك مجلدَ العهد القديم وذهب به إلى المعمل.

في اليوم التالي تناولنا الغداء في المنزل، وبعد أن انتهينا من الطعام، سحبنا كرسيَّينا إلى جوار النار وأشعل كلٌّ منَّا غليونَه. وكان يبدو على ثورندايك أنه مُنهمِكٌ في التفكير؛ ذلك أنه كان يفتح مفكَّرته على ركبتِه ويُحدِّق بتأمُّل في النار، وكان بين الحين والآخر يُدوِّن أشياء في مفكِّرته بقلمه الرصاص كما لو كان يُرتِّب نقاطَ جدالٍ أو حوار. وبافتراضي أن الجريمة التي وقعت في شارع ألدجيت هي ما يَشغل تفكيره، تجرَّأتُ على أن أسأله:

«هل لديك أيُّ أدلة مادية لتُقدِّمَها إلى قاضي التحقيق؟»

أغلق مفكرته ووضَعَها في مكانها وقال: «الأدلة التي لديَّ مادية وذات أهمية؛ ولكنَّها غيرُ متصلة ببعضها وغير حاسِمة. إذا ما تمكنتُ من أن أربطها ببعضها فأصنع منها مجموعة مُتماسكة من الأدلة — وهذا ما آملُ أن أتمكَّنَ من فعله قبل أن أصلَ إلى المحكمة — فستكون تلك الأدلة في غاية الأهمية بالفعل، وهاك هو رفيقي الغالي ومعه أدوات البحث.» والتفتَ بابتسامة على وجهه نحو بولتون الذي كان قد دخل الغرفة لتوِّه، وتبادل

السيد والرجل نظرةً ودية تنمُّ عن التقدير المتبادَل. وكانت علاقة ثورندايك ومساعدُه مصدرَ سرورٍ دائم لي: فكان أحدُهما يقدم الخدمات في وفاء وإخلاص؛ وكان الآخر يقدم كامل التقدير والإعجاب.

قال بولتون وهو يُعطي لسيده علبةً صغيرة مصنوعة من الكرتون كالتي تُوضَع فيها أوراق اللعب. سحب ثورندايك غطاءها فرأيت أن العلبة من الداخل كانت مُزوَّدةً من الداخل بثلمات للشرائح، وكانت تحتوي على صورتَين فوتوغرافيَّتَين. وكانت الصورتان مميزتَين بحق؛ فقد كانت كلٌّ منهما نسخةً من صفحة من مجلد العهد القديم، وكانت إحداها بالروسية والثانية باليديشية؛ لكن الأحرف كانت بيضاء على خلفية سوداء، وكانت لا تحتل سوى مساحة صغيرة في المنتصف، تاركةً هامشًا أسود كبيرًا. وكانت كلُّ صورة موضوعةً على بطاقة صلبة وكلُّ بطاقة تحتوي على صورة مكررة ملصقة على ظهرها.

أراني ثورندايك هاتين البطاقتَين وهو يَبتسم ابتسامةً مُثيرة، وكان يُمسكهما بأطراف أصابعه من أطرافهما قبل أن يدسَّهما مرة أخرى في علبتهما.

وقال وهو يضع العلبة في جيبه: «إننا نقوم باستطراد بسيط في علم فقه اللغة. لكن يَنبغي علينا الانصرافُ الآن وإلا فسنجعل دايفدسون يَنتظرنا كثيرًا. شكرًا لك يا بولتون.»

وحمَلَنا القطارُ بسرعة نحو الشرق، فخرجنا من محطة ألدجيت قبل نصف ساعة كاملة من موعدنا، إلا أن ثورندايك كان يسير بسرعة، لكنه بدلًا من أن يتجه مباشرة نحو المشرحة، ذهب إلى شارع مانسيل لأسباب مجهولة، وكان في أثناء سيره يتفحَّص أرقام المنازل. كان صفٌّ من المنازل القديمة — رائعة المظهر لكنها قذرة — على الجانب الأيمن منَّا على ما يبدو يجذب انتباهه، وقد أبطأ من سرعة سيرِه حين كنَّا نقترب منه.

ثم قال وهو يُشير إلى تمثال خشبي لشخصية هندية مطليٍّ بألوان فظَّة وموضوع على رفٍّ في باب أحد متاجر التبغ الصغيرة القديمة الطراز: «تلك حياة غريبة يا جيرفس.» وتوقفنا لننظر في ذلك التمثال الصغير، وفي تلك اللحظة فُتح بابٌ جانبيٌّ وخرجت امرأة إلى عتبة الباب، ووقفتْ تنظر في الشارع في كلَا الاتجاهين.

عبر ثورندايك الرصيف في الحال وخاطبها، وكان في ذلك يوجِّه لها سؤالًا على ما يبدو؛ لأنني سمعتُ إجابتها وهي تقول: «إنه يَصِلُ في السادسة والربع، يا سيدي، وهو في الغالب دقيق في مواعيده.»

قال ثورندايك: «شكرًا لكِ. سأضع ذلك في الحسبان.» ثم رفَعَ قبعتَه محيِّيًا إياها وراح يسير بسرعة، وسرعان ما التفَّ إلى شارع جانبي خرجنا منه إلى شارع ألدجيت.

كانت الساعة الآن الرابعة إلا خمس دقائق؛ لذا رُحْنا نسير بسرعة لنصل إلى مكان اللقاء في موعدنا، لكننا وعلى الرغم من أننا وصلنا إلى البوابة والساعة تدقُّ مُعلنةً الرابعة، فحين دخلنا البناية وجدنا الدكتور دايفدسون يُعلِّق مئزره ويستعدُّ للرحيل.

وقال من دون أن يُظهرَ في حديثِه أيَّ علامة على صدقه: «آسف، لم أتمكَّن من انتظاركما، لكنَّ تشريح الجثة ما هو إلا مسرحية هزلية في جريمة كهذه؛ لقد رأيتُما كلَّ ما كان ينبغي عليكما رؤيتُه. لكن ها هي الجثة؛ إن هارت لم يَفرغ من إغلاقها بعد.»

ثمَّ رحَل بعد أن قال تلك الكلمات وحيَّانا بعبارة «طاب مساؤكما» بنبرة فظَّة.

قال هارت وهو ينظر إلى ثورندايك بوجهٍ مُغتاظ من المكتب الذي كان جالسًا عليه يُدوِّن ملحوظاته: «يجب أن أعتذر عن تصرُّفات الدكتور دايفدسون يا سيدي.»

قال ثورندايك: «لستَ في حاجة لذلك، أنت غير مسئول عن تصرُّفاته؛ وأنا لن أُعطِّلك. أنا أريد أن أتحقَّق من شيء أو شيئين فقط.»

وبعد أن فهمنا تلميحه، بقيتُ أنا وهارت عند المكتب فيما خلع ثورندايك قبعته وتقدم نحو طاولة التشريح الطويلة وانحنى فوق الجثة البائسة والمثيرة للشفقة. وقد ظلَّ بلا حراك لبرهة، يسير بعينيه بجدية على الجثة، وكان بلا شك يبحث عن كدمات أو علامات تدل على وجود صراع. ثم عكف على فحص الجرح عن قرب أكثر، خاصَّة من حيث يبدأ وينتهي. وفجأة، اقترب أكثر وراح ينظر بدقة واهتمام كما لو أن شيئًا قد جذب انتباهَه، وبعد أن أخرج عدسته، أخذ سفنجة صغيرة وجفَّف بها شيئًا بارزًا من العمود الفقري. ثم قرَّب عدسته من البقعة التي جفَّفها وراح يتفحصها مرة أخرى بعناية، ثم أخرج منها شيئًا ما باستخدام مشرط وملقط، وغسل هذا الشيء بعناية وراح يفحصه مرة أخرى بعدسته وهو على راحة يدِه. وفي النهاية وكما توقَّعت، أخرج «العلبة التي يجمع بها الأشياء» وسحب منها مظروفًا صغيرًا ووضَع فيه ذلك الشيء — وكان من الواضح أنه شيء صغير — وأغلق المظروف ودوَّن عليه شيئًا من الخارج ووضَعَه مرةً أخرى في العلبة.

وقال بينما كان يضع العلبة في جيبِه ويأخُذ قبعتِه: «أعتقد أنني رأيتُ كلَّ ما كنتُ أريد رؤيته. سنلتقي غدًا صباحًا في التحقيق.» وسلَّم على هارت وخرجنا إلى الهواء النقي نسبيًّا.

وبذريعة أو بأُخرى، أخذ ثورندايك يتلكَّع في شارع ألدجيت حتى دقَّ جرس الكنيسة معلنًا السادسة، حينَها توجهتْ خطواتُه نحو زقاق هارو. وراح يسير في ذلك الممر الضيق

المتعرِّج بخطوات بطيئة وقد بدا عليه الانغماس في التفكير ثم سار بطول شارع ليتل سومرست حتى خرج إلى شارع مانسيل، وحين كانت الساعة تدق السادسة والربع وجدنا أنفسنا في مواجهة متجر التبغ الصغير.

نظر ثورندايك في ساعته وتوقَّف، وراح ينظر باهتمام في الشارع. وبعد لحظة أخرج من جيبه وبسُرعة العلبة المصنوعة من الكرتون، وأخرج منها الصورتَين الفوتوغرافيتَين الملصقتَين اللتَين تسبَّبتَا لي في حيرة كبيرة. وقد بدا الآن أن ثورندايك متحيرٌ منهما أيضًا بنفس الدرجة، وذلك بالنظر لتعبيرات وجهِه؛ ذلك أنه كان يرفعهما بالقرب من عينيه ويفحصهما في عبوس وقلق، ويرجع بظهره شيئًا فشيئًا نحو مدخل الباب بجوار متجر التبغ. في تلك اللحظة لاحظتُ رجلًا والذي بينما كان يقترب منَّا، بدا أنه كان ينظر إلى صديقي ببعض الفضول والكثير من الازدراء؛ كان الرجل قصيرًا للغاية وشابًّا قويَّ البِنية وكان على ما يبدو يهوديًّا أجنبيًّا، وكان وجهه الشرير بطبيعته وغير الجذاب مشوَّهًا أكثر بعلامات إصابته بمرضِ الجدري.

قال في فظاظة وهو يَدفع ثورندايك: «اعذرني، فأنا أسكن هنا.»

أجابه ثورندايك: «أنا آسف.» ثم تحرَّكَ جانبًا وسأله فجأة: «بالمناسبة، أعتقد أنك لا تعرف تمامًا اللغة اليديشية؟»

سأله الوافد الجديد بنبرة خشنة: «ولمَ تسأل؟»

«لأنني حصلتُ لتوِّي على هاتين الصورتين لنصٍّ ما. أعتقد أن إحداها مكتوبة باليونانية، وأن الأخرى مكتوبة باليديشية، لكنني نسيتُ أيهما يونانية وأيهما يديشية.» وأعطى البطاقتين للغريب الذي أخذهما منه ونظر فيهما بفضول وعبوس.

وقال وهو يرفع يده اليمنى: «هذه يديشية، وتلك روسية وليست يونانية.» ثم أعطى البطاقتين إلى ثورندايك الذي أخذهما منه وأمسك بهما من أطرافهما بحذر كما فعل من قبل.

قال ثورندايك: «إنني مُمتنٌّ لك كثيرًا لكرم مساعدتك.» لكن وقبل أن ينتهيَ ثورندايك من شكره، كان الرجل قد دخل بعد أن فتح الباب بالمفتاح وأغلق الباب بعنف.

دسَّ ثورندايك الصورتين بحذرٍ في مكانَيهما في العلبة مرة أخرى، ووضَع العلبة في جيبه ودوَّن ملحوظة في مفكرته.

وقال: «بهذا، أكون قد انتهيتُ من عملي في هذه القضية، ما عدا تجربة صغيرة يمكنني أن أُجريَها في المنزل. بالمناسبة، لقد التقطتُ دليلًا صغيرًا كان دايفدسون قد غفل

عنه. سينزعج من ذلك، وأنا لا أحب أن أُحرز نقاطًا على حساب الزملاء؛ لكنه غيرُ مهذب ولا أستطيع أن أتواصلَ معه.»

كان استدعاء قاضي التحقيق يقتضي بأن تكون العاشرة هي الساعة التي يَحضر فيها ثورندايك ليقدِّم شهادته، لكنَّ نقاشًا له مع أحد المحامين المشهورين تداخل مع خططه فتأخرنا ربع ساعة عن التحرك من مكتب المحامي. كان صديقي يتمتع بلا شك بمعنويات مُمتازة، رغم أنه كان صامتًا ومشغولَ البال، وقد استنتجتُ من ذلك أنه كان راضيًا عمَّا قام به من عمل؛ لكن وبينما جلستُ إلى جواره في عربة الأجرة، امتنعتُ عن أن أسأله عن شيء، ليس لأنَّني لا أتسم بالأنانية، لكن انطلاقًا من رغبتي في الاستماع إلى شهادته للمرة الأولى بالتزامن مع الاستماع لشهادات الشهود الآخرين.

كانت الحُجرة التي انعقد فيها التحقيق جزءًا من مدرسة مُجاوِرة للمَشرحة. وكان خلوُّها الشديد قد اكتسب بعض الحيوية في تلك المناسبة بوجود طاولة طويلة مُغطاة بقماش الجوخ وقد جلس قاضي التحقيق عند رأسها، بينما شغلت هيئةُ المحلفين أحدَ جوانبها؛ وقد سُررتُ من رؤية أن هيئة المحلفين تتكوَّن في معظمها من رجال عاملين عاديين بدلًا من «محلفين مُحترفين» متبلِّدي الحسِّ وأشداء والذين كثيرًا ما يشرفون هذه التحقيقات بحضورهم.

وجلس الشهود على صفٍّ من الكراسي، وتمَّ تخصيصُ ركن من الطاولة ليجلس فيه محامي المرأة المتهمة، وقد كان أنيقًا وبارعًا يرتدي نظارة أنقية ذهبية، كما تم تخصيص جزء من الحجرة للصحفيين، وشغل مجموعة متنوعة من الجمهور يمثلون العامة عدة مقاعد أخرى.

وكان هناك شخص أو اثنان حاضران دُهشت حين رأيتهما. على سبيل المثال، كان هناك الرجل ذو العلامات على وجهه والذي قابلناه في شارع مانسيل، وقد حيَّانا بنظرة تنمُّ عن المفاجأة والعدائية؛ وكان هناك المفوَّض ميلر من سكوتلاند يارد، وقد استبينتُ من تصرفاته أن هناك تفاهمًا خاصًّا مبرمًا بينه وبين ثورندايك. لكن لم يكن لديَّ كثيرٌ من الوقت لأنظر حولي؛ ذلك أننا حين وصلنا كانت الفعاليات قد بدأت بالفعل. كانت السيدة جولدشتاين وهي الشاهدة الأولى تنتهي من سردها لظروف اكتشاف الجريمة وبينما كانت تنسحب وهي تبكي بهستيرية، تبعتْها نظراتٌ مواسية لها من هيئة المحلفين المتعاطفة معها.

وكانت الشاهدة التالية امرأة شابة تُدعى كيت سيلفر. وبينما كانت تتقدم لتحلف اليمين رمقت ميريام جولدشتاين بنظرة تنمُّ عن البغض والتحدي، وكانت ميريام جولدشتاين تقف جانبًا رهينة اثنين من رجال الشرطة، وكان وجهها شاحبًا وتبدو جامحةً، وشعرها الأحمر مسترسل على كتفيها بكُتَل شعثاء، وكانت تُحدِّق فيما حولها وكأنها في حلم.

قال قاضي التحقيق: «أعتقد أنكِ كنتِ على صلة وثيقة بالقتيلة، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح. كنا نعمل في المكان نفسه لفترة طويلة من الوقت — مطعم إمباير في شارع فينتشرش — وكنا نعيش معًا في نفس المنزل. كانت أعزَّ صديقاتي.»

«على حدِّ علمك، هل كان لها أيُّ أصدقاء أو أقارب في إنجلترا؟»

«لا. لقد جاءت إلى إنجلترا من بريمن قبل حوالي ثلاث سنوات. حينها تعرَّفتُ عليها، وكلُّ أقاربها كانوا في ألمانيا، لكن كان لها الكثيرُ من الأصدقاء هنا؛ لأنها كانت فتاة ودودة ومفعمة بالحيوية.»

«على حدِّ علمكِ، هل كان لها أيُّ أعداء، أقصد أيَّ أشخاص يُكنون لها الضغائن ويمكن أن يتسببوا بأذيتها؟»

«أجل. كانت ميريام جولدشتاين عدوةً لها. لقد كانت تكرهها.»

«تقولين إن ميريام جولدشتاين كانت تكره الضحية. كيف عرفتي ذلك؟»

«لم يكن ذلك سرًّا. لقد خاضتَا شجارًا عنيفًا بسبب شابٍّ يُدعى موزيس كوهين. كان موزيس رفيقَ ميريام، وأعتقد أنهما كانَا مغرمين ببعضهما كثيرًا حتى جاءت مينا أدلر وسكنت بمنزل آل جولدشتاين قبل ثلاثة أشهر تقريبًا. حينها أُعجِب موزيس بمينا، وكانت هي تشجعه، رغم أنها كان لديها رفيقٌ وهو شابٌّ يُدعى بول بيتروفسكي، والذي يسكن أيضًا في منزل آل جولدشتاين. في نهاية المطاف، انفصل موزيس عن ميريام وارتبط بمينا. حينها تميَّزت ميريام من الغيظ ولامت مينا عما وصفته بأنه سلوك غادر؛ لكن لم يكن من مينا سوى أنها ضحكت وقالت لها إنها تستطيع الحصول على بيتروفسكي بدلًا من حبيبها.»

سألها قاضي التحقيق: «وبمَ ردَّتْ ميريام على ذلك؟»

«كانت لا تزال في غاية الغضب؛ لأن موزيس كوهين كان شابًّا ذكيًّا وسيمًا، في حين لم يكن بيتروفسكي حسن المظهر. وإلى جانب ذلك، لم تكن ميريام تحب بيتروفسكي؛ فقد كان فظًّا في معاملتها، وقد جعلت والدها يُبعده عن المنزل. لذا انتهت الصداقة بينهما، وبعدها مباشرة وقع الخلاف.»

«الخلاف؟»

«أقصد حول موزيس كوهين. إن ميريام فتاة سريعة الغضب للغاية، وكانت تغار بشدة من مينا؛ لذا حين ضايقها بيتروفسكي بالسخرية منها بشأن موزيس كوهين ومينا، فقدتْ صوابَها وقالت أشياء فظيعة عن كل منهما.»

«مثل ماذا على سبيل المثال؟»

«قالت بأنها ستقتلهما، وبأنها تريد أن تقطع عنق مينا.»

«ومتى حدث ذلك؟»

«كان ذلك في اليوم السابق لوقوع الجريمة.»

«مَن غيرك سمعها وهي تقول تلك الأشياء؟»

«ساكنة أخرى تُدعى إيديث برايانت وبيتروفسكي. كنَّا نقف جميعًا في الردهة في ذلك الوقت.»

«لكنني أعتقد بأنك قلتُ إن بيتروفسكي أُبعِد عن المنزل.»

«لقد حدث ذلك بالفعل؛ لكنه كان قد ترك صندوقًا في غرفته، وفي ذلك اليوم جاء ليأخذه. كان هذا هو ما أوقع الخلاف. كانت ميريام قد أخذت غرفتَه لتجعل منها غرفةَ نومٍ لها، وحوَّلت غرفتها القديمة إلى حجرة للعمل. وقالت بأنه لا يجب أن يذهب إلى غرفتها ليأخذ صندوقه.»

«وهل ذهب بيتروفسكي؟»

«أعتقد ذلك. لقد خرجت أنا وميريام وإيديث، تاركين إياه في الردهة. وحين عُدْنا كان الصندوق قد اختفى، وحيث إن السيدة جولدشتاين كانت في المطبخ ولم يكن هناك شخص آخر في المنزل، فلا بد وأنه أخذ الصندوق.»

«لقد قلتِ شيئًا عن غرفة عمل خاصة بميريام. ماذا كانت تعمل؟»

«كانت تُقطِّع رسومات استنسل لشركة ديكور.»

في تلك اللحظة أمسك قاضي التحقيق من على الطاولة بسكين ذات شكل مميز وأعطاها للشاهدة.

وسألها قائلًا: «هل رأيتِ هذه السكين من قبل؟»

«أجل، إنها تعود لميريام جولدشتاين. إنها سكينُ تقطيع استنسل وهي تستخدمها في عملها.»

اختتمت كيت سيلفر شهادتها بهذه الجملة، وحين نودي على اسم الشاهد التالي وكان هو بول بيتروفسكي، تقدم الرجل الذي قابلناه في شارع مانسيل ليُقسم اليمين. وكانت

شهادته مقتضبة إلى حدٍّ كبير وكانت مجردَ تأييد لشهادة كيت سيلفر، وهكذا كانت شهادة الشاهدة التالية وهي إيديث برايانت. وحين انتهى هؤلاء، قال قاضي التحقيق:

«أيها السادة، أقترح قبل التطرق إلى الشهادة الطبية أن نستمع إلى شهادة ضباط الشرطة، وسنستدعي أولًا المحقق الرقيب ألفريد بيتس.»

تقدَّم الرقيب بخطوات سريعة وشرع يقدِّم شهادته بدقة ونزعة رسمية.

«استدعاني الشرطي سيموندز في الحادية عشرة وتسع وأربعين دقيقة، ووصلتُ إلى المنزل قبل الثانية عشرة بدقيقتين بصحبة المفتش هاريس والطبيب الشرعي دايفدسون. وحين وصلتُ كان الدكتور هارت والدكتور ثورندايك والدكتور جيرفس حاضرين في الغرفة بالفعل. وجدتُ الضحيةَ وتُدعى مينا أدلر راقدةً في السرير وعنقها مقطوع. كانت ميتة وجثتها باردة. ولم يكن هناك آثارُ شجار، ولم يكن السرير في حالة فوضى. وبجوار السرير كانت هناك طاولة عليها كتاب وشمعدان فارغ. من الواضح أن الشمعة كانت قد اشتعلت عن آخرها، لأن الدواية لم تكن تحتوي إلا على فتيلة محترقة. وعلى الأرض عند مقدمة السرير كان هناك صندوق وعليه وسادة. من الواضح أن القاتل وقف على الوسادة وانحنى فوق مقدمة السرير ليرتكب الجريمة. وترجع ضرورة هذا إلى مكان الطاولة، التي لم يكن من الممكن تحريكها من دون إحداث بعض الضوضاء وربما إزعاج الضحية. ومن وجود الصندوق والوسادة أستنتج أن القاتل كان قصيرَ القامة.»

«هل كان هناك أيُّ شيء آخر يُشير لهوية القاتل؟»

«أجل. كانت هناك خُصلة شعر نسائي بلون أحمر تقبض عليها الضحية بيدها اليُسرى.»

وحين نطق المحقق بهذه الجملة، أطلقت كلٌّ من المتهمة وأمِّها صيحةَ رعب في نفس الوقت. وغاصت السيدة جولدشتاين في مقعد وكادت تفقد وعيها، في حين وقفت ميريام مرعوبةً وشاحبة كالموتى، وراحت تنظر إلى المحقق بنظرات تنمُّ عن الذعر والهلع، وذلك حين أخرج من جيبه مظروفَين ورقيَّين صغيرين وفتحهما وسلَّمهما إلى قاضي التحقيق.

وقال: «الشعر الموجود في المظروف «أ» هو الشعر الذي وُجِد في يد الضحية، وذلك الموجود في المظروف «ب» هو شعر ميريام جولدشتاين.»

هنا وقف محامي المتهمة. واحتجَّ قائلًا: «من أين حصلتَ على الشعر الموجود في المظروف «ب»؟»

أجابه المحقق: «أخذتُه من كيس به شعر ممشط كان معلَّقًا على جدار غرفة نوم ميريام جولدشتاين.»

قال المحامي: «أعترض على ذلك. ليس هناك أيُّ دليل على أن الشعر المأخوذ من ذلك الكيس هو شعر ميريام جولدشتاين.»

ضحك ثورندايك ضحكة مكتومة وقال لي بنبرة خافتة: «هذا المحامي غبيٌّ كالشرطيِّ. لا يبدو أن أيًّا منهما يعرف أهمية ذلك الكيس على الإطلاق.»

سألتُه متفاجئًا: «إذن هل كنتَ تعرف بأمر ذلك الكيس؟»

«لا. لقد اعتقدتُ أن الشعر مأخوذٌ من فرشاة شعرها.»

نظرتُ إلى صديقي في ذهول، وكنتُ على وشك أن أطلب منه توضيحَ إجابته المبهمة تلك، حين رفع إصبعَه طالبًا مني الصمت والتفت ليستمع مرة أخرى.

كان القاضي يقول: «حسنًا يا سيد هورفيتس. سأدوِّن اعتراضك، لكنني سأسمح للرقيب بأن يُكملَ شهادته.»

جلس المحامي، وأكمل المحقق شهادته.

«لقد فحصتُ عينتَي الشعر وقارنتُ بينهما، وفي رأيي أنهما من رأس نفس الشخص. والملاحظة الأخرى التي رأيتُها في الغرفة كانت وجودَ كمية صغيرة من رمل فضي منثورة على وسادة الضحية حول رأسها.»

قال قاضي التحقيق متعجبًا: «رملٌ فضيٌّ! من المؤكد أنه من الغريب للغاية وجود شيء كهذا على وسادة امرأة، أليس كذلك؟»

أجابه الرقيب: «أعتقد أن من السهل تفسير ذلك. كان حوض غسل اليدين مليئًا بمياه دامية، مما يوضح أن القاتل غسل يده والسكين كذلك على الأرجح، بعد ارتكابه الجريمة. وعلى الحوض كانت هناك قطعةٌ من صابون رملي، وأرى أن القاتل استخدمها في تنظيف يده بينما كان يُجفِّفهما، لا بد وأنه كان يقف عند مقدمة السرير فسقط الرمل متناثرًا على الوسادة.»

علَّق قاضي التحقيق مصدقًا على ذلك فقال: «تفسير بسيط لكنه مبتكَرٌ للغاية.» وتبادل أعضاءُ هيئة المحلفين إيماءات ووكزات الإعجاب.

«وقد بحثتُ في الغرفتين اللتين تشغلهما المتهمةُ ميريام جولدشتاين، ووجدتُ سكينًا من النوع الذي يستخدمه قاطعو الاستنسل، لكنها كانت أكبرَ من المعتاد. وكان عليها بقعُ دماء فسَّرتِ المتهمةُ وجودَها قائلة بأنها كانت قد جُرحت إصبعُها قبل بضعة أيام. وقد اعترفتْ أن السكين ملكٌ لها.»

انتهت شهادة الرقيب عند هذا، وكان على وشك أن يجلس حين نهض المحامي.

وقال: «أرغب في أن أسأل الشاهد سؤالًا أو اثنين.» وبعد أن أومأ القاضي بالموافقة استطرد المحامي قائلًا: «هل تمَّ فحصُ إصبع المتهمة منذ إلقاء القبض عليها؟»

أجابه الرقيب: «لا أعتقد ذلك. ليس على حدِّ علمي على أيِّ حال.»

دوَّن المحامي الإجابة ثم سأله: «بالإشارة إلى الرمل الفضي، هل وجدتَ أيًّا منه في قعر حوض غسل اليدين؟»

احمرَّ وجهُ الرقيب. وأجابه قائلًا: «لم أفحص الحوض.»

«هل فحصه أيُّ أحد؟»

«لا أعتقد ذلك.»

قال السيد هورفيتس: «شكرًا لك.» ثم جلس، وسمعنا صوت صرير ريشة كتابته المنتصر يعلو على صوت همهمات الاستنكار من جانب هيئة المحلفين.

قال قاضي التحقيق: «أيها السادة، سنشرع الآن في الاستماع إلى شهادة الأطباء، وسنبدأ بالطبيب الشرعي للشرطة.» ثم استطرد قائلًا بعد أن أقسم الدكتور دايفدسون اليمين: «أيها الطبيب، أنت رأيتَ الضحية بعد اكتشاف الجريمة بفترة قصيرة، فهل قمتَ بفحص الجثة؟»

«أجل. وجدتُ جثة الضحية مستلقيةً في سريرها، والذي لم يكن يبدو في حالة فوضى. كانت الضحية قد ماتت قبل نحو عشر ساعات، وكان التيبُّس مكتملًا في أطرافها، ولكن ليس في جذعها. وسببُ الوفاة جرحٌ غائر يمتدُّ بعرض الحنجرة ويفصل بين أعضائها وصولًا إلى العمود الفقري. وقد أُحدِث هذا الجرح بذبحة واحدة من السكين بينما كانت الضحية راقدة، ولا شك أن هذا كان قتلًا. ولم يكن من الممكن بالنسبة للضحية أن تكون قد تسبَّبت بهذا الجرح لنفسها. وأداةُ إحداث هذا الجرح سكينٌ ذات حدٍّ واحد، وتمَّ سحبُها على الرقبة بدءًا من الجهة اليمنى وانتهاءً في اليسرى؛ وقد وقف المعتدي على وسادة موضوعة على صندوق عند مقدمة السرير وقد انحنى على الضحية ليرتكب جريمته. ومن المرجح أن القاتل قصيرُ القامة وقويُّ البنية ويستخدم يدَه اليُمنى. ولم يكن هناك أيُّ دليل على وقوع شِجار، وبالحكم من طبيعة الجرح، يجب أن أقول إن الوفاة كانت لحظيةً تقريبًا. وفي اليد اليُسرى للضحية كانت هناك خُصلةٌ صغيرة من شعر نسائي بلون أحمر. وقد قارنتُ بين تلك الخصلة وشعر المتهمة، وفي رأيي أنه شعرها.»

«هل اطلعتَ على سكين تعود للمتهمة؟»

«أجل، سكينُ تقطيع استنسل. كان عليها بقعُ دماء جافة فحصتُها ووجدتُ أنها تعود للثدييات. وعلى الأرجح أنه دمٌ بشري، لكن لا يمكنني الجزم بذلك.»

«هل من الممكن إحداث ذلك الجرح بهذا السكين؟»

«أجل، رغم أنه سكينٌ صغير على إحداث جرحٍ عميق كهذا. لكن لا يزال ذلك ممكنًا.»

نظر قاضي التحقيق إلى السيد هورفيتس. وسأله: «هل ترغب في توجيه أيِّ أسئلة إلى هذا الشاهد؟»

كان ردُّه: «لو تكرمتَ يا سيدي.» ثم وقف المحامي وبعد أن نظر إلى ملحوظاته قال: «لقد وصفتَ بقعَ الدماء التي كانت على هذا السكين. لكننا سمعنا أنه كان هناك مياه دامية في حوض غسل اليدين، وثمة اقتراح — بدرجة معقولة — أن القاتل غسل يده والسكين. لكن إذا كان السكين قد تمَّ غسلُه، فكيف تفسِّر وجودَ بقعِ الدم عليه؟»

«من الواضح أنه لم يتمَّ غسلُ السكين، بل تمَّ غسلُ اليدين فقط.»

«لكن أليس هذا بعيدَ الاحتمال؟»

«لا، لا أعتقد ذلك.»

«قلتَ إنه لم يكن هناك شجار، وإن الوفاة كانت لحظيةً تقريبًا، إلا أن الضحية تمكَّنتْ من انتزاع خُصلةٍ من شعر قاتلتها. أليس هناك تعارضٌ بين هاتين الجملتين؟»

«لا. على الأرجح أن الشعر قد انتُزِع بشكل تشنجي في لحظة الوفاة. على أيِّ حال، لا شك أن الشعر كان في يد الضحية.»

«هل من الممكن التعرف على شعر أيِّ شخص؟»

«لا. ليس بشكل قاطع. لكن هذا الشعر كان مميزًا للغاية.»

جلس المحامي وبعد أن تمَّ استدعاءُ الدكتور هارت وأيَّد بدوره وباقتضاب شهادةَ رئيسه، قال القاضي: «الشاهد التالي أيها السادة هو الدكتور ثورندايك، والذي كان حاضرًا بمحض الصدفة، لكنه في واقع الأمر كان أولَ مَن وصل مسرح الجريمة. وقد قام بفحص الجثة ولا شك أنه سيسلِّط مزيدًا من الضوء على مثل هذه الجريمة الشنعاء.»

وقف ثورندايك وبعد أن أقسم اليمين، وضع على الطاولة علبةً صغيرة لها مقبضٌ جلدي. وردًّا على أسئلة القاضي، قدَّم نفسه كمحاضر للطب الشرعي في مستشفى سانت مارجريت، وشرح باقتضاب صلتَه بالجريمة. عند هذا قاطعه رئيسُ هيئة المحلفين ليطلب منه إبداء رأيه في أمر الشعر والسكين؛ حيث إن هذين الأمرين هما محلُّ الخلاف، ومن ثَم فقد تمَّ إعطاؤه الأشياءَ ذا الصلة.

سأله قاضي التحقيق قائلًا: «في رأيك، هل الشعر الموجود في المظروف «أ» يعود لنفس الشخص صاحب الشعر في المظروف «ب»؟»

وكانت إجابته: «لا شك لديَّ أنهما يعودان للشخص نفسه.»

«هلَّا فحصتَ هذا السكين وأخبرتنا إذا كان هو سببَ الجرح في جثة الضحية؟»

فحص ثورندايك النصلَ باهتمام بالغ، ثم سلَّم السكين مرة أخرى إلى القاضي.

وقال: «ربما كان هذا السكين هو ما استُخدِم في إحداث الجرح، لكنني متأكدٌ أن الأمر ليس كذلك.»

«هلَّا قدَّمتَ لنا أدلَّتَك على قولك القاطع جدًّا هذا؟»

قال ثورندايك: «أعتقد أننا سنوفر الكثير من الوقت لو قدَّمتُ لك الحقائق بترتيب متصل ومترابط.» أومأ القاضي موافقًا وشرع ثورندايك في حديثه: «لن أُبدِّدَ وقتكم بتكرار ذكْر الحقائق التي سبق ذكرها بالفعل. لقد قدَّم الرقيب بيتس وصفًا كاملًا لحالة الغرفة وليس لديَّ شيءٌ أُضيفه بهذا الصدد. وتوصيفُ الدكتور دايفدسون للجثة يغطي كافة الحقائق: إن المرأة كانت قد ماتت قبل عشر ساعات، وإن الجرح كان بلا شك بدافع القتل، والجرح أيضًا قد أُحدِث بالطريقة نفسها التي صوَّرها. ومن الواضح أن الوفاة كانت لحظية، وأقول إن الضحية لم تستيقظ من نومها أبدًا.»

قاطعه قاضي التحقيق معترضًا: «لكنَّ الضحية كانت تُمسك بخُصلة شعر في يدها.»

ردَّ عليه ثورندايك: «ليس ذلك الشعرُ هو شعرَ القاتل. بل تمَّ وضعُه في يد الضحية لسبب واضح؛ وحقيقةُ أن القاتل أحضر هذا الشعر معه توضِّح أن الجريمة كانت مدبَّرةً، وأنها ارتُكبت على يد شخص كان يستطيع الوصول إلى المنزل وعلى معرفة بسكَّانه.»

وحين نطق ثورندايك بهذه الإفادة، حدَّق به قاضي التحقيق وهيئةُ المحلفين والحضور على حدٍّ سواء بفم فاغر من الدهشة. وساد صمتٌ مطبق لبرهة من الوقت، ثم بدَّدتْ هذا الصمتَ ضحكةٌ هستيرية جامحة أطلقتها السيدة جولدشتاين، ثم سأل القاضي قائلًا:

«كيف عرفتَ أن الشعر في يد الجثة لم يكن شعرَ القاتل؟»

«كان استنتاج ذلك في غاية البساطة. من النظرة الأولى كنتُ أجد لون الشعر المميز والواضح مثيرًا للريبة. لكن كان هناك ثلاثُ حقائق، كلٌّ منها بحدِّ ذاتها تُعدُّ كافيةً لإثبات أن الشعر لم يكن على الأرجح يخصُّ القاتل.

في المقام الأول، كانت هناك حالة اليد. في لحظة الوفاة، حين يُمسك الشخصُ بأي شيء ويشدُّ عليه، تحدث حالة تُعرف بتشنج الجثة. إن الانقباض العضلي يتحوَّل على

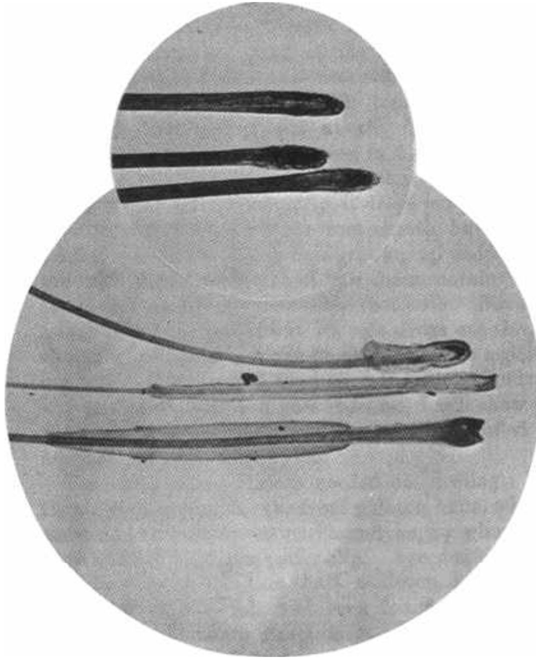
الفور إلى حالة يُطلَق عليها «تخشُّب الموت» أو تيبُّس الوفاة، ويظل الشيء المقبوض عليه في يد المتوفى حتى تنتهيَ حالةُ التيبس تلك. وفي هذه الحالة، كانت اليدُ متيبسة تمامًا، لكنها لم تكن قابضةً على الشعر بأي شكل من الأشكال. لقد كانت خُصلةُ الشعر موضوعةً على راحة اليد بصورة مرتخية، وكانت اليد مُنقبِضة جزئيًّا فقط. لذا كان من الواضح أن الشعر وُضِع فيها بعد الوفاة. أما الحقيقتان الأخريان فتُشيران إلى حالة الشعر نفسه. حين تُمزَّقُ خصلةٌ شعر من الرأس، فمن البديهي أن نجدَ جذور الشعر في الطرف نفسه من الخصلة. لكن في الحالة التي بين أيدينا لم يكن الأمرُ على ذلك النحو؛ فخصلةُ الشعر التي كانت في يد القتيلة كان بها جذور في كلا الطرفين، ومن ثَم فلا يمكن أن تكون هذه الخصلة منزوعةً من رأس القاتل. لكن الحقيقة الثالثة التي لاحظتُها كانت أكثرَ حسمًا، وهي تقول بأن الشعر الذي تتكوَّن منه الخصلة لم يكن منزوعًا على الإطلاق، بل سقط من تلقاء نفسه. وفي الواقع كان الشعر متساقطًا، وكان السبب في ذلك هو تسريحه على الأرجح. وسأشرح لك الاختلاف بينهما. حين يتساقط الشعر بصورة طبيعية، فإنه يخرج من قناة صغيرة في الجلد تُدعى غمد الجذر، وذلك بأن يدفعه شعرٌ حديث ينمو تحته؛ ولا نرى في طرف الشعر المتساقط هذا سوى تضخُّمٍ بُصيليٍّ صغيرٍ — هو بصيلة الشعر. لكن حين يُخرَج الشعر بانتزاعه عنوة، فإن جذر الشعر يسحب معه غمد الجذر، ويمكن رؤيةُ هذا بوضوح في شكل كتلة لامعة في نهاية الشعرة. وإذا ما انتزعتْ ميريام جولدشتاين خصلةً من شعرها وأعطتني إياها، فسأُريك الاختلاف الواضح بين الشعر المنزوع والشعر المتساقط.»

ولم تكن ميريام البائسة في حاجة للضغط عليها لتفعل ذلك. ففي لحظة، قامت بانتزاع بضع شعيرات من شعرها وسلَّمها أحدُ رجال الشرطة إلى ثورندايك الذي ثبَّتها على الفور إلى مشبك للورق. ثم أخرج من العلبة مشبكًا آخر مثبَّتًا به بضع شعيرات مأخوذة من الخُصلة التي وُجدت في يد القتيلة. ثم أعطى ثورندايك المشبكَين وعدسة مكبرة إلى القاضي.

قال الآخر متعجبًا: «رائع! وأمر حاسم بشدة.» ثم مرَّر الأشياء إلى رئيس هيئة المحلفين وساد الصمتُ لفترة بينما كانت هيئة المحلفين تفحص العينتين باهتمام لاهث والكثير من تعبيرات الوجه التي تنمُّ عن التعجب.

واستطرد ثورندايك قائلًا: «وكان السؤال التالي هو: من أين حصل القاتل على هذا الشعر؟ لقد افترضتُ أنه مأخوذ من فرشاة شعر ميريام جولدشتاين، لكن شهادة الرقيب

(أ)



(ب)

(أ) شعر متساقط يوضح البصيلات، مكبَّر إلى ٣٢ ضعفًا. (ب) شعر منزوع من فروة الرأس، يوضِّح أغماد الجذور المصاحبة له، مكبَّر إلى ٢٠ ضعفًا.

توضِّح تمامًا أنه أُخِذ من كيس الشعر الممشط الخاص بها الذي أخذ هو منه عينةً للمقارنة.»

علَّق القاضي قائلًا: «أعتقد أيها الطبيب أنك حسمتَ أمرَ الشعر بصورة تامة. فهل لي أن أسألَك إذا ما وجدتَ شيئًا آخر قد يُسلِّط الضوء على هوية القاتل؟»

أجابه ثورندايك: «أجل، لقد لاحظتُ عدة أشياء تُحدِّد هوية القاتل بصورة شبه قاطعة.» ثم التفت إلى المفوض ميلر ونظر إليه نظرة ذات مغزًى، فقام الآخر من فوره

وتقدَّم في هدوء نحو الباب ثم عاد وهو يضع شيئًا في جيبه. واستطرد ثورندايك: «حين دخلتُ الردهة، لاحظتُ الحقائق التالية: خلف الباب كان هناك رفٌّ موضوع عليه شمعدانان من الخزف. وفي كلٍّ واحد منهما كانت هناك شمعة، وفي وعاء أحدهما طرفُ شمعة قصير، طولُه قرابة البوصة. وعلى الأرض وبالقرب من ممسحة الأقدام، كانت هناك بقعة من الشمع، وآثارٌ ضعيفة لأقدام موحلة. وكان المشمع على السلَّم يحمل أيضًا آثار أقدام متلاشية سببُها جرموق مبتل. وكانت تلك الآثار تصعد السلَّم، وببلوغ قمة الدرج كانت تزداد تلاشيًا. وعلى الدرج كانت هناك بقعتَا شمعٍ أخريان، وبقعة ثالثة على الدرابزين؛ وكان هناك عودُ ثقابٍ شمعيٌّ محترقٌ عند منتصف الدرج من جهة الأعلى، وآخر عند بسطة الدرج. ولم يكن هناك آثار تدل على النزول، لكن إحدى بقع الشمع بالقرب من عواميد الدرابزين كانت مداسًا عليها بينما كانت لا تزال دافئةً وليِّنةً، وحملت آثارَ مقدمة كعب جرموق ينزل على الدرج. وكان قفلُ باب الشارع قد زُيِّن مؤخرًا، وكذا قفل غرفة النوم، وقد فُتحَ الأخير من الجهة الخارجية باستخدام سلكٍ مَثْنيٍّ ترك علامةً له على المفتاح. وبداخل الحجرة لاحظتُ شيئين آخرين؛ الأول أن وسادة القتيلة كان منثورًا عليها رملٌ يُشبه الرمل الفضي بعض الشيء، لكنه كان رماديًّا أكثر وأقل خشونة. وسأعود إلى هذه النقطة بعد قليل.

وكانت الملاحظة الأخرى أن الشمعدان الموضوع على الطاولة بجوار السرير كان خاويًا، وكان شكلُه غريبًا؛ فقد كان به تجويفٌ على شكل جمجمة تتكون من ثمانية شرائط مسطحة من المعدن. وكان الفتيل المتفحم للشمعة المحترقة في قاع التجويف، لكن قطعة صغيرة من الشمع على الحافة العلوية أظهرت أن شمعة أخرى قد وُضعت فيه وأنها أُخذت منه، وإلا فإن قطعة الشمع الصغيرة تلك كانت ستصبح ذائبة. وفي الحال فكَّرتُ في طرف الشمعة الموجود في الردهة، وحين نزلتُ مرة أخرى أخذتُ ذلك الطرف من الوعاء وفحصتُه. وعليه وجدتُ ثماني علامات مميَّزة تتناسب مع الأشرطة الثمانية للشمعدان الموجود في غرفة النوم. لقد حُمل طرفُ الشمعة هذا في اليد اليُمنى لشخص ما؛ ذلك أن الشمع الدافئ اللين حمل بصمتَي إبهام وسبابة اليد اليمنى وكانت البصمتان واضحتين. وقد أخذتُ ثلاثة قوالب لطرف الشمعة باستخدام شمع القولبة، ومن تلك القوالب صنعتُ صبَّةً إسمنتية، وهي تُظهر كلًّا من البصمات والعلامات الموجودة على الشمعدان.» ثم أخرج من علبته شيئًا صغيرًا أبيض اللون، وسلَّمه للقاضي.

سأله القاضي: «وماذا تستنتج من هذه الحقائق؟»

«أستنتجُ أنه في حوالي الثانية إلا الربع من صباح يوم ارتكاب الجريمة، دخل رجلٌ إلى المنزل باستخدام المفتاح (وكان قد زار المنزل في اليوم السابق للحصول على خُصلة الشعر ولتزييت الأقفال). ويمكننا تحديدُ الوقت من خلال حقيقة سقوط المطر في صباح ذلك اليوم من الساعة الواحدة والنصف إلى الثانية إلا الربع، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي سقط فيها المطر في غضون أسبوعين، وارتُكبتِ الجريمة عند الساعة الثانية صباحًا تقريبًا. وقد أشعل الرجل عودَ ثقابٍ شمعيًّا في الردهة وآخر عند منتصف الدرج. وقد وجد باب غرفة النوم موصدًا، فأدار المفتاح من الخارج باستخدام سلكٍ مَثْنيٍّ. ثم دخل وأشعل الشمعة، ووضع الصندوق وعليه الوسادة وقتل الضحية، ثم غسل يديه والسكين، وأخذ طرف الشمعة من تجويف الشمعدان ونزل الدرج حيث أطفأ الشمعة وألقاها في الوعاء.

والدليل التالي يتمثَّل في الرمل المنثور على الوسادة. لقد أخذتُ منه شيئًا وفحصتُه تحت المجهر، وحينها أدركتُ أنه رمل من قاع شرق البحر المتوسط. وكان الرمل يتكون من أصداف دقيقة تسمى «فورامينيفيرا»، وحيث إن إحدى تلك الأصداف الدقيقة تنتمي لنوع يوجد فقط في بلاد المشرق، فقد استطعتُ أن أحدد مكانها.»

قال قاضي التحقيق: «هذا رائع جدًّا. لكن كيف بحق السماء وصل رمل من قاع البحر إلى وسادة تلك المرأة؟»

أجابه ثورندايك: «تفسيرُ ذلك غاية في البساطة. إن الرمل من ذلك النوع يوجد بكميات كبيرة في الإسفنج التركي. ويتناثر هذا الرمل في أرضية المستودعات التي يُفرَّغ فيها هذا الإسفنج بمستويات تصلُ إلى الكاحل؛ والرجال الذين يقومون بعملية التفريغ يُصبحون مغبَّرين به وتُصبح ملابسهم مشبَّعة به وجيوبهم ممتلئة به. وإذا ما قام شخص من هؤلاء — حيث تكون جيوبه وملابسه مليئة بالرمل — بارتكاب هذه الجريمة، فحين انحنى عند مقدمة السرير بوضعية مقلوبة جزئيًّا فمن المؤكد أنه أسقط بعض الرمل من جيوبه وثنايا ملابسه. والآن، وبمجرد أن فحصتُ الرمل وتأكدت من طبيعته، أرسلتُ رسالة إلى السيد جولدشتاين أطلب منه قائمة بالأشخاص الذين كانوا على صلة بالقتيلة مع ذكر عناوينهم ومِهَنهم. وقد أرسل لي القائمة، ومن بين مَن كانوا فيها رجلٌ يعمل عتالًا في مستودع لبيع الإسفنج بالجملة في شارع مينريز. وثبت لديَّ أن محصول الموسم الجديد من الإسفنج التركي قد وصل قبل أيام قليلة من ارتكاب الجريمة.

وكان السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو ما إذا كان ذلك العتال هو الشخص نفسه الذي وجدتُ بصماته على طرف الشمعة. ولحسم هذه النقطة، أعددت صورتين ملصقتين

في بطاقتين وبعد أن ابتدعت طريقة للقاء الرجل عند باب منزله لدى عودته من العمل، تمكنتُ من استمالته لينظر في الصورتين ويقارن بينهما. وقد أخذهما مني ممسكًا كلَّ واحدة منهما بين إبهامه وسبابته. وحين أعادهما لي، أخذتهما إلى المنزل وغبرتُ كلَّ واحدة منهما على كلا جانبيها بعناية بمسحوق طبي خاص. وقد التصق المسحوق بالأماكن التي ضغط فيها بإصبعيه على الصور، مما أظهر بصماته في وضوح تام. وكانت بصمات يده اليمنى مطابقةً للبصمات التي وجدتُها على الشمعة، كما سترى لو قارنتها بالصبة.» ثم أخرج من العلبة الصورة المكتوب عليها باللغة اليديشية، وكان في الهامش الأسود لها بصمة إبهام بلون أبيض مائل للصفرة تبرز واضحة وضوحًا مذهلًا.

كان ثورندايك قد سلَّم البطاقة إلى القاضي حين وقع اضطراب غريب للغاية؛ ففي حين كان صديقي يسلِّم الجزء الآخر من دليله، لاحظتُ بيتروفسكي ينهض من مقعده ويتسلل خلسة نحو الباب. وأدار مقبض الباب بلطف وسحبه بهدوء في البداية، ثم راح يسحبه بمزيد من القوة. لكن الباب كان موصدًا. وحين أدرك ذلك، أمسك بيتروفسكي بمقبض الباب بكلتا يديه وكاد يقتلعه في شراسة، فكان يُديره إلى الأمام والخلف بعنف وجنون؛ وكانت أطرافه ترتعد، وعيناه تُحدِّقان بجنون في وجوه الحضور المذهولين، وكان وجهه القبيح الشديد الشحوب يتعرَّق بغزارة ويزيده الرعب المرتسم عليه قبحًا وبشاعة، فشكَّل كلُّ ذلك مشهدًا صادمًا بحق.

وفجأة ترك مقبض الباب، ثم صرخ صرخة مريعة داسًّا يده تحت معطفه وهرع نحو ثورندايك. لكن المفوض كان مستعدًّا لحركة كهذه. ووقع صياح وعراك، وبعدها تم الإمساك ببيتروفسكي الذي كان يركلُ ويعضُّ كالمجنون، بينما تملَّك ميلر من يده اليمنى ومن السكين الكبيرة التي كان يمسك بها.

ثم قال ثورندايك حين ثُبِّت بيتروفسكي وقُيِّد وبعد أن عدَّل المفوض ياقة ملابسه: «أطلب منك أن تسلم هذه السكين إلى القاضي.» ثم أضاف: «هلا فحصته سيدي وأخبرتني إن كان به ثلمة عند الحافة بالقرب من الحد، إنها ثلمة مثلثة الشكل طولها حوالي ثُمْن بوصة؟»

نظر القاضي إلى السكين وقال بنبرة تنم عن الدهشة: «أجل، هي موجودة. أرأيت هذا السكين من قبل؟»

أجابه ثورندايك: «لا، لم أرَه من قبل. لكن من الأفضل أن أُكملَ شهادتي. لستُ في حاجة لأن أخبرك أن البصمات على البطاقة وعلى الشمعة هي بصمات بيتروفسكي؛ وإنما سأنتقل إلى الدليل الذي استخرجتُه من جثة الضحية.




المفوض ميلر يرقى إلى مستوى الحدث.

لقد ذهبتُ بمقتضى أمرك إلى المشرحة وفحصت جثة الضحية. وقد قدم الدكتور دايفدسون وصفًا كاملًا ودقيقًا للجرح، لكنني لاحظت شيئًا أعتقد أن الدكتور دايفدسون غفل عنه. وجدت أن عظمة العمود الفقري، في النتوء المستعرض الأيسر للفقرة الرابعة، تحوي جسيمًا صغيرًا من الفولاذ الذي استخرجته بعناية.»

ثم أخرج من جيبه العلبة التي يجمع فيها الأشياء، وأخرج منها مظروفًا صغيرًا وسلَّمه إلى القاضي وقال: «تلك الشظية الفولاذية موجودة في هذا المظروف، ومن الممكن أن تتوافق مع الثلمة الموجودة في نصل السكين.»

ووسط صمت تام، فتح القاضي المظروف الصغير وأسقط منه الشظية الفولاذية على ورقة. ثم وضع السكين على الورقة وراح يزيح الشظية بدقة نحو الثلمة، ثم رفع نظره إلى ثورندايك.

وقال: «إنها تتوافق معها تمامًا.»

وفجأة جاء صوت ارتطام شديد من الجهة الأخرى من الغرفة فالتفتنا إليه جميعًا. كان بيتروفسكي قد سقط على الأرض مغشيًا عليه.

قال ثورندايك معلِّقًا بينما كنا نسير في الطريق إلى المنزل: «إنها قضية مثيرة للاهتمام يا جيرفس، وهي تُعيد التأكيد على الدرس الذي ما زالت السلطات ترفض أن تتعلمه.»

سألته: «ما هو ذلك الدرس؟»

«هو كالآتي: حين تُكتشَف جريمة قتل، ينبغي أن يتحول مسرح تلك الجريمة في الحال إلى ما يشبه قصر الجميلة النائمة. ينبغي ألَّا يُحرَّك أيُّ شيء ولو كان حبة من الغبار، ولا ينبغي أن يُسمَح لأي شخص كائنًا من كان من الاقتراب منه، وذلك حتى يعاين الشخصُ المعنيُّ كلَّ شيء في موضعه ومن دون أن يمسَّه أحد. لا ينبغي السماح لرجال الشرطة المنفعلين بالمشي في المكان، ولا للمحققين بتفتيشه، ولا للكلاب البوليسية بالتزاحم في المكان. تخيَّل ما كان سيحدث في هذه القضية لو أننا وصلنا بعد عدة ساعات. كانت ستُنقَل الجثة إلى المشرحة، وسيأخذ الرقيب الشعر في جيبه، وسيتبعثر السرير بغرض تفتيشه، وسيتناثر الرمل بعيدًا، وكانت الشمعة ستنقل من مكانها على الأرجح، وكان السُّلَّم سيحمل آثار أقدام حديثة.

ما كان سيظل هناك أيُّ بقايا لأي دليل.»

أضفتُ قائلًا: «وكانت الرسالة من قاع البحر ستذهب سدًى.»


هنداوي